

مفسات القلوب

محمّد صالح المنجد

© مجموعة زاد للنشر، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

مفسدات القلوب. / محمد صالح المنجد، - الرياض، ١٤٣٨هـ

٣٨٠ ص، ٥، ١٦ × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٨٧-٨٠٤٧-٦٠٣-٩٧٨

١. المعاصي والذنوب أ. العنوان

ديوي: ٣، ٢١٢ ١٤٣٨/١١٩٤

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م

امتياز التوزيع
شركة مكتبة
العبيكان
Obekkan

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية
طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣
هاتف مجاني: ٩٢٠٠٢٠٢٠٧
ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

الناشر

مجموعة زاد
للنشر
ZAD GROUP

المملكة العربية السعودية
الخبر - هاتف: ٨٦٥٥٣٥٥
جدة - هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢
ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢
www.zadgroup.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

١١	المقدمة
١٣	الترف
١٥	مقدمة
١٦	تعريف الترف
١٧	ذم الترف في القرآن الكريم
٢٠	ذم الترف في السنة النبوية
٢٢	لا تفرحوا أيها المترفون!
٢٧	هل الترف والغنى متلازمان؟
٢٩	صور الترف المعاصرة
٣٥	أسباب الترف
٣٧	آثار الترف على القلب
٤١	علاج الترف
٤٧	الخاتمة
٤٨	اختبر فهمك
٥١	النفاق
٥٣	مقدمة
٥٤	تعريف النفاق
٥٥	أنواع النفاق
٥٧	الخوف من النفاق

٥٩	صفات المنافقين في الكتاب والسنة.....
٧٥	الوقاية من النفاق.....
٧٩	موقف المسلم من المنافقين.....
٨٣	الخطامة.....
٨٤	اختبر فهمك.....
٨٧	الغفلة
٨٩	مقدمة.....
٩٠	تعريف الغفلة.....
٩١	الموقف الشرعي من الغفلة.....
٩٣	أنواع الغفلة.....
٩٤	أقسام الغفلة المذمومة.....
٩٦	أسباب الغفلة.....
١٠٢	نماذج مما يغفل عنه الناس.....
١٠٩	عقوبات الغفلة.....
١١٣	علاج الغفلة.....
١٢٠	الخطامة.....
١٢١	اختبر فهمك.....
١٢٣	الشهوة
١٢٥	مقدمة.....
١٢٦	تعريف الشهوة.....
١٢٧	لماذا حُلِقَت الشهوة؟.....
١٢٩	أسباب الوقوع في الشهوة المحرمة.....
١٣٢	كيف تتعامل مع الشهوة؟.....
١٤٤	كيف نعالج الشهوة؟.....
١٥٣	من قصص أهل العفاف.....

١٥٧	من قصص الساقطين في مستنقع الشهوات
١٥٩	الخاتمة
١٦٠	اختبر فهمك
١٦٣	اتباع الهوى
١٦٥	مقدمة
١٦٧	تعريف الهوى
١٦٨	النهى عن اتباع الهوى
١٧٠	متى يُعاقب الإنسان على هواه؟
١٧١	أسباب اتباع الهوى
١٧٥	أضرار اتباع الهوى
١٨٣	فوائد مخالفة الهوى
١٨٧	علاج الهوى
١٩٠	الهوى المحمود والهوى المذموم
١٩٣	الخاتمة
١٩٥	اختبر فهمك
١٩٧	حب الرئاسة
١٩٩	مقدمة
٢٠٠	تسمية حب الرئاسة بالشهوة الخفية
٢٠٢	حاجة الناس إلى الولاية
٢٠٦	صور وأحوال حب الرئاسة
٢٠٨	مظاهر حب الرئاسة
٢١٦	أسباب حب الرئاسة
٢٢٠	علاج حب الرئاسة
٢٣٠	الخاتمة
٢٣١	اختبر فهمك

٢٣٣	العشق.....
٢٣٥	مقدمة.....
٢٣٦	تعريف العشق.....
٢٣٨	أنواع العشق.....
٢٤١	هل العشق اختياري أم اضطراري؟.....
٢٥٣	أسباب العشق.....
٢٥٧	سبل الوقاية من العشق.....
٢٥٩	علاج العشق.....
٢٦٤	الخاتمة.....
٢٦٦	اختبر فهمك.....
٢٦٩	حب الدنيا.....
٢٧١	مقدمة.....
٢٧٣	حقيقة الدنيا.....
٢٧٧	المؤمنون والدنيا.....
٢٨١	مظاهر حب الدنيا.....
٢٨٣	أسباب حب الدنيا.....
٢٨٥	مفاسد حب الدنيا.....
٢٩٤	علاج حب الدنيا.....
٣٠١	الخاتمة.....
٣٠٢	اختبر فهمك.....
٣٠٥	الجدال.....
٣٠٧	مقدمة.....
٣٠٨	تعريف الجدال والمرء.....
٣٠٩	معنى الجدال في القرآن.....
٣١١	الجدل طبع مركب في الإنسان.....

٣١٤	أسباب حصول المراء والجدال
٣١٦	شروط المجادلة
٣٢١	أنواع الجدال
٣٣١	أمثلة للجدال المحمود
٣٣٥	أضرار المراء والجدال المذمومين
٣٤٠	ممارسة العلماء
٣٤٢	الخاتمة
٣٤٣	اختبر فهمك
٣٤٥	الكبر
٣٤٧	مقدمة
٣٤٨	تعريف الكبر
٣٥٠	الفرق بين الكبر والعجب
٣٥١	أسباب الكبر
٣٥٤	بماذا يحصل الكبر؟
٣٥٩	أمثلة من المتكبرين الذين صرفهم الكبر عن اتباع الحق
٣٦٢	آثار الكبر على السلوك
٣٦٨	عقوبة المتكبر
٣٧٤	علاج الكبر
٣٨٠	الخاتمة
٣٨١	اختبر فهمك



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أما بعد:

فكما أن للقلوب أعمالاً تحيا بها فتُسعدُها، فإنها تطرأ عليها مفسدات تُمرضُها وتُشقيها، وهي آفاتٌ تعرِّضُ للقلب، فإذا تمكَّنت منه أمرضته، وحرَّفته عن سبيلِ المتقين، وألزمتُه غيِّه، وما أُشربَ من هَواهُ .

وقلبُ المؤمن هو القلبُ السليمُ، وهو السالمُ من تلك الآفاتِ والأمراضِ، فيُنزِلُ -ببرِّه وصلاحه- منازلَ المتقين، ويسلكُ سبيلَ الصالحين، ويحيا حياةً طيبةً .

فإذا أصابت قلبَ العبدِ هذه الأمراضُ وتمكَّنت منه فسدت مادتهُ، فرأى المنكرَ معروفاً، والمعروفَ منكراً، وأحبَّ هواه الذي هو قاتِلُهُ، وأطاع عدوّه الذي يأمرُه بالكُفرِ والفُسوقِ والعصيانِ.

ويا خيبةَ من عصى مولاهُ، وأطاعَ عدوّه، واختارَ سبيلَ الغيِّ على سبيلِ الرِّشادِ، وأبدلَ التوكُّلَ على الله، وحسنَ الظنَّ به، وحبَّه، وابتغى مرضاته، والإخلاصَ له في عبادته، بالنفاقِ، والغفلةِ، والشهوةِ، واتباعِ الهوى، وحبِّ الدُّنيا.

إنَّ هذه الأمراضُ -وغيرها- تصرفُ العبدَ عن عبادَةِ ربِّه، وتُرغَّبُ إليه هَواهُ، فيُغازِلُ قلبه حُبُّ الدُّنيا، وتمرُّقُ فيه الشهوةُ والغفلةُ، ويُسيطرُ عليه الكِبَرُ وحُبُّ الرِّئاسةِ، ويتخلَّلُه النفاقُ، ويستميلُه الجدالُ والمراءُ، ويعتريه الشُّكُّ والرَّيبُ، فيضعُفُ فيه نورُ الإيمانِ، فلا يستبصرُ بما يستبصرُ به المتقون، ولا يتحلَّى بما يتحلَّى به الصالحون، ويبقى رهينَ شيطانِه، وحبيسِ هَواهُ، ثمَّ يندمُ، ولاتَ ساعةَ مندمٍ.

فأردنا في هذا الكتاب أن نتكلّم عن هذه الأمراض والآفات، التي تُعدّ عقباتٍ في طريق السالّكين، وآفاتٍ تُصيبُ قلوبَ العبادِ، وأن نكشفَ عن آثارها، ونتعرّفَ على كَيْفِيَّةِ التّخلُّصِ منها.

ومَن لم يتّقها قعدَ به ذنبُه، وعاجلهُ حُسْرُه، ومَن وقاهُ اللهُ شرّها سلّمَ له قلبُه، وأصلحَ اللهُ له حاله .

نسألُ اللهَ أن يُؤتِيَ قلوبنا تقواها، وأن يحفظها من هذه الأمراض، وتلك الآفات؛ فإنه ما من قلبٍ إلّا بين أصبعين من أصابع الرّحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه.



مفسدات القلوب



الترف



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الترف داء عُضال، ومرض مهلك، إذا استشرى في أمة؛ ذهب بعزمها، وأورثها تباطؤاً، وخمولاً، وكسلاً، ودعة، وعلقها بالحياة الدنيا، وحببها إليها، والترف إن التصق بشخص، حتى صار يوصف به؛ كان ذلك إيذاناً بضعفه، وإعلاماً بوهنه، ودليلاً على تراخي شأنه، وعدم ضبطه أمره، وأنه آثر لذائذ الحياة على الجد والاجتهاد.

ومع خطورة هذا المرض وكثرة أضراره، كان لا بُدَّ لنا أن نضع أيدينا على هذا الجرح، ونحاول معالجته.

فما حقيقة الترف؟

وما مساوئه؟

وكيف نعالج مجتمعاتنا التي استشرى فيها هذا الداء؟

وفي هذا الفصل أحببنا أن نجيب على هذه التساؤلات.

وأشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية.

اللهم سدّد خطانا، وأصلح نياتنا وأعمالنا، ووفقنا للخير والهدى.

تعريف الترف

الترف في اللغة:

الترفه: التوسع في النعمة، يقال: أترف فلان فهو مترف، ﴿وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، وقال: ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ﴾ [الأنبياء: ١٣]، وقال: ﴿أَخَذْنَا مَتْرَفِيهِمْ﴾ [المؤمنون: ٦٤]، وهم الموصوفون بقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ﴾ [الفجر: ١٥]^(١).

ويطلق على معنى الترف ألفاظ أخرى منها: التمتع، الترفه، الرفاهية.

الترف في الاصطلاح:

هو مجاوزة حد الاعتدال في النعمة، والإكثار من النعم الجالبة للرفاهية. فالمترفون إذن: هم الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش، وحرصوا على الزيادة من الملذات والملهيات، وسعوا إلى بلوغ الغاية في أنواع الترف من المأكّل، والمشرب، والمسكن، والمراكب.



(١) المفردات في غريب القرآن (ص ١٦٦).

ذم الترف في القرآن الكريم

ذم الله تعالى الترف في القرآن الكريم في عدة مواضع، وبيّن فسادَه وأثره السيئ، وأنه من أسباب الهلاك والعذاب:

أولاً: الترف من صفات الظالمين والكافرين:

قال الله عزَّجَلَّ في وصف الكفار: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: «إن الله تعالى أخبر أن الذين ظلموا أنفسهم من كل أمة سلفت فكفروا بالله؛ اتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله، وتجبروا وصدوا عن سبيله، وذلك أن المترف في كلام العرب هو: المنعم الذي قد غدّي باللذات»^(١).

ثانياً: الترف سبب لعذاب الآخرة:

قال عزَّجَلَّ: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ [مريم: ٥٩]. قال كعب الأخبار رَحِمَهُ اللهُ: «والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عزَّجَلَّ: شرّابين للقهوات»^(٢)، تراكين للصلوات، لعاين بالكعبات^(٣)، رقادين عن العتات^(٤)، مفرطين في الغدوات، تراكين للجُمُعات، ثم تلا هذه الآية: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾^(٥).

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥٢٩).

(٢) أي: يشربون الخمر.

(٣) أي: يلعبون بحجر الترد (الزهر) المحرم.

(٤) أي: صلاة العشاء والفجر.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٦٨).

ثالثاً: الترف سبب للهلاك في الدنيا:

قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْنَانًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ ﴿[الأنبياء: ١١-١٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ هذا تهكم بهم قدرا، أي: قيل لهم قدرا: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه، من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة»^(١).

رابعاً: الترف سبب لهلاك الغير:

إن أذى المترفين قد يتعدى إلى غيرهم، فيهلكون أقوامهم بسبب ترفهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

ولعلك تلاحظ في حياة الناس، أن فساد المترفين لا يقتصر عليهم، بل يتعداهم إلى غيرهم دائماً، ويجعلون الناس يتطلعون إلى ما في أيديهم، ويحاولون تقليدهم.

خامساً: الترف سبب للقعود عن الأعمال الصالحة:

قال الله عَزَّجَلَّ في المترفين الذين لم يطبقوا الجهاد لشدة الحر، واعتادوا الظلال والأماكن الباردة: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

فثقل النفير على المترفين بسبب المشقة والحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة، وحذروا من الحر الذي تقي منه الظلال، وتذهب به الكور والآصال، على الحر الشديد الذي لا يقدر قدره، وهي النار الحامية.

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٣٥).

سادساً: الترف سبب للاعتراض على أقدار الله:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

فهذه هي حال المترف، إذا أنعم الله عليه بالرزق والنعمة، يقول: إن ربي أكرمني لأنه يحبني، وإذا ابتلاه الله بأنواع المكاهه تراه يعترض ويجزع، ولا يصبر على ما أصابه، كل هذا بسبب الترف، ولو أنه عاش زاهداً بسيطاً؛ لتقبل تلك المصائب ورضي بها، بل وحمد الله عليها.

ولو تأملنا لوجدنا أن الصبر على الفقر أهون من الصبر على الغنى.



ذم الترف في السنة النبوية

ورد النهي عن الترف في عدد من الأحاديث النبوية، تحذيراً منه؛ لئلا يتعلق القلب بالدنيا، وينغمس في ملذاته، ومتعها الزائلة.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلس ذات يوم على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي: مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزَيْتِيهَا»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا؛ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ»^(٢).

وعن عبد الله بن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحَلَ إِلَى فِضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ بِمِصْرَ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ آتِكَ زَائِرًا، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ أَنَا وَأَنْتَ حَدِيثًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمٌ، قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَمَا لِي أَرَاكَ شَعْتًا، وَأَنْتَ أَمِيرُ الْأَرْضِ؟ قَالَ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنْهَانَا عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْإِرْفَاهِ^(٣)، قَالَ: فَمَا لِي لَا أَرَى عَلَيْكَ حِذَاءً؟ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُنَا أَنْ نَحْتَفِيَ أَحْيَانًا»^(٤).

فكان يأمرهم بالاحتفاء أحياناً؛ لتخشوشن أرجلهم، وتعود على المشي في الأماكن المختلفة.

(١) رواه البخاري (١٤٦٥) ومسلم (١٠٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٣) الإرفاه: الاستكثار من الزينة.

(٤) رواه أبو داود (٤١٦٠)، وصححه الألباني.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتاً»^(١)، أي: اكفهم من القوت بما لا يوجههم إلى ذلّ المسألة، ولا يكون فيه زيادة تبعث على الترفّ في الدنيا.



(١) رواه مسلم (١٠٥٥).

لا تفرحوا أيها المترفون!

أولاً: النعم امتحان وابتلاء:

بيّن الله عزّوجلّ أن التوسعة في النعم على العباد في الدنيا إنما هي امتحان وابتلاء، وليست دليلاً على رضى الله على المنعم عليه، ولا محبته، خلافاً لما يعتقدده كثيرٌ من المترفين؛ فإنهم يظنون أن النعم التي تأتيهم علامة على رضى الله عنهم.

وكيف يرضى الله على المترف الذي عصاه، واستعمل نعمته في البطر والتكبر!.

وقد ظن الكفار من قبلهم هذا الظن، فعندما رأوا كثرة الأموال والأولاد قالوا: ﴿مَنَحْنَا أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

فأخبرهم سبحانه بعدم صواب اعتقادهم، فقال عزّوجلّ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ذُرِّي وَمَن خَلَقْتُ وَجِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمدودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهْدَتْ لَهُ تَمهيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ طَمَعُ أَن أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ [المدثر: ١١-١٦]، أي: أيحسب أن نزيده في الآخرة من المال والبنين، كلا.

وقد بين سبحانه لهؤلاء المترفين: أن إنعامه عليهم إنما هو من باب الاستدرج، فقال عزّوجلّ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْمِئِئِنَّا لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَطْمِئِئِنَّا لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَهُمْ

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال جل شأنه: ﴿فَدَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

ثانياً: النعم الدنيوية سبب لزوال النعم الأخروية:

أخبر عَزَّوَجَلَّ أن هناك أناساً تُعَجَّلَ لهم طيباتهم في الدنيا، فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ فَسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

قال أبو مجلز رَحِمَهُ اللهُ: «ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)»^(١).

أي: إنه سيأتي أقوام يوم الحساب، فيسألون عن حسناتٍ كانت لهم لا يرون جزاءها، فيخبرون أنهم أفنوا تلك الحسنات بتنعّمهم بأنواع النعم في الدنيا.

وقد كان الصحابة والتابعون يتقللون من التنعّم في هذه الحياة الدنيا؛ ليستبقوا نعمهم للحياة الأخرى.

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَيْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَنَا مُتَعَلِّقٌ لِحْمًا، فَقَالَ: يَا جَابِرُ، مَا هَذَا؟ قُلْتُ: لَحْمٌ اشْتَرَيْتَهُ بِدِرْهَمٍ لِنِسْوَةٍ عِنْدِي قَرِمٍ مِنْ إِلَيْهِ»^(٢)، فقال: أما يشتهي أحدكم شيئاً إلا صنعه؟! أما يجد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه؟! أين تذهب هذه الآية: ﴿أَلْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾؟! قال: فما انفلت منه حتى كدت أن لا أنفلت»^(٣).

وكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «لو شئت كنت أطيّبكم طعاماً، وألينكم لباساً، ولكني أستبقي طيباتي»^(٤). يعني للآخرة.

وكان حفص بن أبي العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يكثر غشيان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان إذا قرّب طعامه اتقاه.

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٨٥).

(٢) يعني: اشتهين اللحم.

(٣) أخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور (٧/ ٤٤٧).

(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ١٢٠).

فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما لك ولطعامنا؟» قال: يا أمير المؤمنين، إن أهلي يصنعون لي طعاماً هو ألين من طعامك، فأختار طعامهم على طعامك. قال: «ثكلتك أمك، أما تراني لو شئت أمرت بشاة فَنِيَّةٍ سَمِينَةٍ فَأَلْقِي عَنْهَا شَعْرَهَا، ثُمَّ أَمَرْتُ بِدَقِيقٍ فَنَخَلُ فِي خِرْقَةٍ، فَجَعَلُ خَبْزاً مَرَقَقاً، وَأَمَرْتُ بِصَاعٍ مِنْ زَبِيبٍ، فَجَعَلُ فِي سَمْنٍ حَتَّى يَكُونَ كَدَمِ الْغِزَالِ».

قال حفص: إني أراك تعرف لين الطعام. فقال عمر: «ثكلتك أمك، والذي نفسي بيده لولا كراهية أن ينقص من حسناتي يوم القيامة لأشركتكم في لين طعامكم»^(١).

وعن حفصة بنت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت لأبيها: يا أمير المؤمنين، ما عليك لو لبست ألين من ثوبك هذا؟! وأكلت أطيب من طعامك هذا؟!؛ قد فتح الله عليك الأرض، وأوسع عليك الرزق، فقال: «سأخاصمك إلى نفسك، أما تعلمين ما كان يلقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شدة العيش؟» وجعل يذكرها شيئاً مما كان يلقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أبكاها، قال: «قد قلت لك إنه كان لي صاحبان سلكا طريقاً، فإني إن سلكت غير طريقهما سلك بي غير طريقهما، فإني والله لأشاركنهما في مثل عيشهما الشديد؛ لعلي أدرك معها عيشهما الرخي».

يعني بصاحبيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

ولما قدم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الشام صنع له طعام لم يرقه مثله، قال: «هذا لنا، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟». قال خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لهم الجنة. فاغرورقت عينا عمر، وقال: «لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا بالجنة: لقد باينونا يوماً بعيداً»^(٣).

ويقول قتادة: «تعلمون والله أن أقواماً يسترطون^(٤) حسناتهم، ليستبق رجلٌ طبياته إن استطاع، ولا قوة إلا بالله»^(٥).

(١) أخرجه ابن سعد وعبد بن حميد، كما في الدر المنثور (٤٤٧/٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣٤٤٣٤).

(٣) تفسير الطبري (١٢٠/٢٢).

(٤) أي: يتلعون، من سرط الشيء إذا ابتلعه، والمعنى: تنقص حسناتهم.

(٥) تفسير الطبري (١٢٠/٢٢).

ثالثاً: هذا النعيم مما يُسأل عنه العبد يوم القيامة:

أخبر تعالى في كتابه الكريم أن هذا النعيم الذي يعيش فيه العبد في الدنيا سيُسأل عنه يوم القيامة، هل أدى شكره أم لا؟ قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾ [التكاثر: ٨].

قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ فِي الْآيَةِ: «عن كل لذة من لذات الدنيا»^(١).

وقال سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ: «حتى عن شربة عسل»^(٢).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «من النعيم: الغداء، والعشاء»^(٣).

وقال أبو قلابة رَحِمَهُ اللهُ: «من النعيم: أكل العسل والسمن بالخبز النقي»^(٤).

وكان الحسن وقتادة يقولان: «ثلاث لا يُسأل عنهم ابن آدم يوم القيامة، وما خلاهن فيه المسألة والحساب، إلا ما شاء الله: كسوة يوارى بها سوءته، وكسرة يشد بها صلبه، وبيت يظله»^(٥).

وإليك هذه القصة، عن أعظم ثلاثة رجال في الأمة بأسرها: الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكر، وعمر، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قَوْمُوا». فقاموا معه، فأتى رجلا من الأنصار... فانطلق فجاءهم بعدق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه. وأخذ المديّة... فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرَجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»^(٦).

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٧).

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٧).

(٥) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٨٦).

(٦) رواه مسلم (٢٠٣٨).

فإن كانوا سيُسألون عن نعيمِ حصّلوهُ لمرة واحدة بعد جوع شديد؛ فكيف بنا نحن
أصحاب الوجبات اليومية الثلاثة؟!



هل الترف والغنى متلازمان؟

الترف في أغلب أحواله قائم على الغنى ومبني عليه، لكنه ليس بلازم له، فكم من غنيّ عاش حياة البخلاء، وأصاب أهله البؤس والِعوز!

وكم من فقير حرص على توفير النعم وتحصيل الملذات والشهوات من كل طريق، حتى ركبته الديون لأجل ذلك!.

كما أن الزهد ليس ملازماً للفقير، فكم من غني عاش عيشة الزهاد، مع ما حباه الله من النعمة والجاه والمال!.

فليس المقصود أن يتخلى الإنسان عن أمواله وتجارته وممتلكاته حتى يبتعد عن الترف، بل من الممكن أن يبقى محافظاً على هذا ولا يكون مترفاً، فيتاجر، ويصرف على نفسه وأهله بالمعروف، ويتصدق على الفقراء والمسكين، ويُبقي من المال ما يقيم به تجارته وحياته.

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يتعدى؛ فيزيد في الزهد أو العبادة على المشروع؛ يغضب لذلك، وبلغه أن بعض أصحابه قال: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

(١) رواه البخاري (٥٠٦٢)، ومسلم (١٤٠١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فأما الإعراض عن الأهل والأولاد: فليس مما يحبه الله ورسوله، ولا هو من دين الأنبياء»^(١).

إن حقيقة الزهد: أن لا يتعلق القلب بشيء من أمور الحياة، فلا يتعلق بهال، ولا بجاه، ولا بمنصب، ولا بصورة، ولا برئاسة.



(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٤٢).

صور الترف المعاصرة

في حياتنا المعاصرة توجد صور مختلفة للترف، منها -على سبيل المثال-:

المبالغة في الاهتمام بالشعر:

وذلك بترجيله، وتمشيطه، وتسريحه، وشراء أنواع الكريجات؛ لإبرازه في أحسن صورة. وقد جاء الإسلام وسطاً في قضية الاهتمام بالشعر، فأمر بإكرام الشعر لمن كان له شعر، ونهى عن الترجل والتمشط يومياً، ولكن يوماً بعد يوم.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْهُ»^(١).

وعن عبد الله بن مغفل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «نهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن التَّرجُلِ إِلَّا غَبَاءً»^(٢). والترجل غباءً، أي: يوماً بعد يوم.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن هذين الحديثين: «الصواب: أنه لا تعارض بينهما بحال؛ فإن العبد مأمور بإكرام شعره، ومنهي عن المبالغة والزيادة في الرفاهية والتنعم، فيكرم شعره، ولا يتخذ الرفاهية والتنعم ديدنه، بل يترجل غباءً»^(٣).

المبالغة في التنظيف والتزین:

يمكنك الرجل الساعات الطوال في المغتسل للاستحمام، وبعضهم يجعل فيه أنواعاً من المعطرات، والرغوة الصابونية، وغير ذلك من أنواع الترف الحديثة التي لم تكن معروفة من قبل.

(١) رواه أبو داود (٤١٦٣)، وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٤١٥٩)، وصححه الألباني.

(٣) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٢/٢٨٤).

نعم، لقد دعا الإسلام إلى التزين والتنظف، بل وأمر به، قال تعالى: ﴿يَبْتَغِيْءَ آدَمَ حُدُوًّا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

ولكن، هذا مرتبط بعدم الإسراف والترف.

يقول ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «التزين والتنظف مباح، ما لم يكن إسرافاً وتنعماً وتشبهاً بالجبارين»^(١).

فليس من الترف في شيء أن يغتسل الرجل ويتنظف، وأن يستعمل مزيلات العرق ونحوها؛ ليبقى نظيفاً، ولا يؤدي غيره برائحته، لا في المسجد ولا في غيره.

ولكن الترف أن يبالغ في ذلك، وأن يصرف عليه الأموال الطائلة، ويضيع له الأوقات الكثيرة.

المبالغة في شراء أنواع الملابس ذات الماركات العالمية بأسعار خيالية:

كان الرجل قبل مدة ليس بالبعيدة لا يملك إلا ثوباً واحداً، فإذا أراد أن يغسله وينظفه: اضطر أن يبقى في منزله حتى ينتهي أهله من تنظيفه وتنشيفه، وهو لا يستطيع الخروج إلى الناس ما دام الثوب مبللاً.

وأنعم الله على الناس فأصبح الشخص يملك الثوبين، والثلاثة، بل والعشرة، ولا بأس في ذلك كله، ما دام في حدود المعروف والعادة.

بعض الناس لا يلبس إلا من شركة معينة، بناء على طلبية خاصة به، يطلبها منهم شخصياً؛ ليستطيع أن يتميز بها عن غيره.

فإن لم يكن هذا هو الترف بعينه، فما هو الترف!؟

نحن مأمورون أن نلبس ثياباً حسنة تدل على نعمة الله علينا، لكن في حدود الاعتدال والاقتصاد.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ

(١) التمهيد (٥/٥١).

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كَبِيرٍ» قال رجل: إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكَبِيرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١).

قال أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المترفعة، ولا الدون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان، ولم يكن تخير الأجود عندهم قبيحاً، وأما اللباس الذي يزري بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى، ويوجب احتقار اللابس، وكل ذلك مكروه منهى عنه»^(٢).
فخير الأمور أوسطها.

المغلاة في المأكل والمشرب:

أهل الترف تجدهم يغالون في الأكل والشرب، فلا يأكلون من الطعام ولا يشربون من الشراب إلا أغلاه ثمناً، ولا يرضون إلا بأنفس الأشياء وأفخرها.

ولا يكتفون في الوجبة الواحدة بنوع واحد أو نوعين من الطعام، بل لأبداً أن تحتوي السفرة الواحدة على أنواع وأشكال من الأطعمة، ولو وضع أمامهم نوع واحد من الطعام لتأففوا وتبرموا.

وقد ذكر القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه يحرم الأكل الزائد على قدر الكفاية، المبتغى به الترفه والسَّمَن^(٣).

ومن صور الترف في الطعام والشراب: أن كثيراً من الناس لا يأكلون الطعام إلا إذا كان طازجاً، أما إذا كان قد حُفِظ في الثلاجة فلا يمكن أن يضعه في فمه، بل يلقيه في القمامة، ويعتبر نفسه أكبر من أن يأكل طعاماً قد بات في الثلاجة، حتى ولو لم يتغير طعمه أو يتبدل شكله، ولكنه الترف - والعياذ بالله.

لا بأس أن يجود الإنسان على نفسه بطعام جيد من آنٍ لآخر، أو أن يشتري أكلة نفيسة

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) تفسير القرطبي (٧/١٩٧).

(٣) تفسير القرطبي (١١/٦٧).

سعرها مرتفع بعد كل مدةٍ وأخرى، ولكن: أن يكون هذا ديدنه وعادته؛ فهو أمرٌ غير مقبول، وطريقة غير مستساغة، لا يقبلها شرعٌ ولا عقل.

ومن صور الترف المتعلقة بالمآكل والمشارب: استعمال الأواني الفاخرة الغالية الثمن، فترى من الأسر المترفة من لا تأكل إلا في الصحون ذات الماركات الفخمة، والقدر من الشركات الكبرى، ولا يقبلون بالأصناف المعتدلة من الصحون والقدر والكاسات وغيرها.

ومن صور الترف المتعلقة بالمآكل والمشارب: ارتياد المطاعم الفاخرة ذات الأسماء العالمية، والتي لا يفرقها عن غيرها من المطاعم إلا اسمها وشهرتها، وديكوراتها الجميلة.

ومن صور الترف في المطاعم والمشارب: كثرة استعمال المشروبات الغازية، واعتبارها أمراً ضرورياً لا بُدَّ منه، فيشرب الشخص مع كل وجبة أو بعدها مشروباً غازياً.

كيف لا! والناس بحاجة إلى هضم ما أكلوه، بعد أن أتحموا أنفسهم، وملئوا بطونهم بأنواع وأشكال من الأطعمة والحلويات، حتى احتاجوا إلى ما يساعدهم على هضم ذلك المأكول.

عن ابن سيرين رَحِمَهُ اللهُ أَنْ رجلاً قال لابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أجبك لك جوارش؟ قال: وأي شيء الجوارش؟ قال: شيء إذا كظك الطعام فأصبت منه سهل عليك^(١). قال: فقال ابن عمر: «ما شبت من طعام منذ أربعة أشهر، وما ذاك أن لا أكون له واجداً؛ ولكنني عهدت قوماً يشبعون مرة، ويجوعون مرة»^(٢).

حفلات الزفاف وما يصاحبها:

لقد أصبحت ليلة الزفاف في البلاد الإسلامية -على وجه العموم- مضرراً للمثل في الإسراف والتبذير والترف، كلُّ يتنافس في تقديم الجديد، ومسابقة الآخرين في هذا المجال.

وأصبحت قصور الأفراح وقاعاتها ذات أسعار خيالية، وثوب الزفاف وحده حكاية مستقلة، فأسعار ثياب الزفاف خيالية، ولا بُدَّ للعريس أن يصلي بنيرانها، فلا تقبل الفتاة ولا أهلها إلا بأجود الأنواع، وأفخر الأقمشة، وأشهر الماركات العالمية.

(١) أي: يهضم الطعام إذا ثقل بطنك، أي أنه يؤدي دور المشروبات الغازية اليوم.

(٢) الزهد للإمام أحمد (١٨٩).

إن الترف في حفلات الزواج لا يقتصر ضرره على إضاعة الأموال، وانتشار الحسد والبغضاء بين الناس؛ بل إن ضرره متعدّد إلى عزوف الشباب عن الزواج، لما يرونه من المصاريف والتكاليف التي لا قبل لهم بها، فيعيش الشاب بين نارين: إما نار العزوبية، أو نار الزواج في حياة الدّين الذي سببه له هذا الزواج.

الجوالات وإكسسواراتها وأرقامها:

من صور الترف التي استولت على قلوب كثير من الناس: اقتناء أحدث الجوالات، وتزيينها بأفضل الإكسسوارات.

وتقام مزادات علنية لأرقام الجوالات المتميزة، وتباع بأسعار خيالية.

السيارات وزينتها وأرقام لوحاتها:

من صور الترف المنتشرة في مجتمعاتنا: اقتناء كثير من المترفين لأحدث أنواع السيارات، وتجديدها سنوياً، ودفع مبالغ باهظة للحصول على أرقام لوحات متميزة، فقد أقيم في أحد المدن الخليجية مزاداً للوحدات السيارات المتميزة، وتم إنفاق الملايين في هذا المزاد فقط.

المبالغة في بناء المنازل، وتأثيثها:

كثير من الأسر تقوم بتغيير أثاث منزلها بشكل دوري ومستمر، فبعض الأسر تغيره كل ستة أشهر، وبعضها كل سنة، وبعضها كل ثلاث سنين أو خمس، حسب القدرة المالية لكل أسرة.

وأما التفنن في زخرفة البيوت وملؤها بأنواع الترف: فحدث ولا حرج!

فتُجلب أنواع الزينة والزخرفة من الداخل والخارج، وأناس متخصصون في هذا الشأن تُدفع لهم أموال كثيرة لصناعة الديكورات.

لقد أصبحت دورات المياه في فخامتها كأنها مجالس، تزين بالفسيفساء^(١)، والرخام، والزجاج المعشق، وغير المعشق.

(١) الفُسَيْفِساء: ألوان من الحرز يؤلف بعضه إلى بعض، ثم يُرْكَب بعضه إلى بعض، ثم يُرْكَب حيطان البيوت من داخل، كأنه نقشٌ مصوّر. (تهذيب اللغة: ٤/٢٤٧).

المبالغة في استخدام الخدم:

لم يعد الأمر مقتصرًا على وجود خادمة تُعين ربة المنزل على أمورهما، بل أصبحت هناك خادِمات متخصصة: فخادمة للتنظيف، وأخرى للطبخ، وثالثة للاعتناء بالأطفال.

وهناك البستاني المسؤول عن العناية بأشجار الحديقة، والحارس، والسائق، وقد يكون لكل فرد من أفراد العائلة سائق.

وفي بعض المنازل يكون عدد الخادِمات والعاملين أكثر من عدد أفراد الأسرة.

المبالغة في الألعاب والترفيه والترويح عن النفس:

ففنادق ومدن ترفيهية يُكَلَّف بناؤها البلايين، ثم يقدم الناس للإقامة فيها والاستفادة من برامجها الترفيهية، وآخر صيحات الأَطعمة والألعاب، ولك أن تتخيل المبالغ الباهظة التي يدفعها من يرتاد هذه الأماكن.

اقتناء أغراض المشاهير:

بيِعَ منديل أم كلثوم بخمسة ملايين دولار.

وبيع قلم نجيب محفوظ -الذي كتب به الإلحاد- بستة آلاف دولار.

أما الأميرة ديانا: قرروا أن يقطعوا ثوبها إلى قطع كثيرة جداً، كل قطعة (٢ ملم)، وتباع كل قطعة بسعر ٢٥ دولار، حتى يصل سعر الثوب إلى ١٠٠ مليون دولار!

فهذه نماذج وصور من الترف التي تقع في مجتمعاتنا المعاصرة، وهي قضية خطيرة جداً، يجب علينا مراجعة أنفسنا فيها قبل فوات الأوان.



أسباب الترف

أسباب الترف كثيرة، ومنها:

أولاً: طول الأمل، ونسيان الموت.

ثانياً: التقليد الأعمى، والتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان، فهناك كثير من الناس إمّعات يقلدون غيرهم تقليداً أعمى، ولا يتأملون في أفعالهم: هل لها حظ من النظر والعقل، أم لا؟!؟

وكما يقال: يرغب الإنسان أن يكون ابن بيئته، وهذه البيئة مليئة بالبذخ والترف، فلا بد أن يواكب هذه البيئة، فيسرف في طعامه وشرابه ولباسه وسكنه.

وقد يخرج الأمر عن حد التقليد إلى جانب المباهاة والمفاخرة، فكلُّ يريد أن يفوز على صاحبه في هذا الجانب.

ثالثاً: سوء التربية، وضعف التوجيه المناسب للأبناء، خاصة مع ما يرونه حولهم من أنواع الترف والبذخ.

رابعاً: كثرة المال ووفرة النعم؛ فالمال يعمي ويصم، ويدعو إلى الركون والمتعة والراحة، ويدفع صاحبه إلى البذخ والإنفاق في غير حاجة، وقد قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۖ ﴿٦﴾ [العلق: ٦-٧]، ومن أجل صور الطغيان وأوضحها: البطر بالنعمة، والإنفاق في غير حاجة؛ ترفاً ومباهاةً وحباً للظهور.

خامساً: حُبّ النفس للشهوات، وهذا حُبّ غريزي، كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ

الْمُسُومَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ [آل عمران: ١٤]، وهذه المحبة الغريزية بحد ذاتها لا لوم فيها، لكن المحظور أن تقدم هذه الأشياء على حب الله ورسوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، فملذات الدنيا كلها بمنزلة الخمر، إذا أدمنها الإنسان صعب عليه فراقها، والدنيا خمر الشيطان، مَنْ سَكَرَ مِنْهَا لَمْ يَفْقَ إِلَّا فِي عَسْكَرِ الْمَوْتَى، نادماً مع الخاسرين.

سادساً: كيد الأعداء. فإن أعداءنا عندما عرفوا أن الترف هو سبب هلاك الأمم؛ سارعوا لوضع المخططات التي تغرق الأمة الإسلامية في أنواع الترف والملذات والملهيات؛ حتى نبقى حريصين على مواليتهم ومحبتهم، خاصة وأن أكثر أنواع الترف والملذات بأيديهم، وقد قال اليهود في بروتوكولاتهم: «سنشجع حب الترف المطلق»، وقالوا أيضاً: «سنلهي الناس والجماهير بأنواع شتى من الملاهي والألعاب ومزجيات الفراغ والمجامع العامة...».



آثار الترف على القلب

الفرح بالدنيا والتنعم بها والترف بملذاتها سم قاتل يسري في العروق، ويصيب القلب بآثار شنيعة، ومن تلك الآثار:

تعبيد القلب لغير الله:

القلب السليم: هو الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الدنيا والتعلق بها، لذلك كان صاحبه من الناجين يوم القيامة، بعكس هؤلاء المترفين الذين أصبحت قلوبهم تعبد الهوى والملذات، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبَدُ الدَّرْهَمِ، وَعَبَدُ الخَمِصَةِ؛ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»^(١).

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد وصف المترفين بأنهم عبيد الدنانير والدراهم والخمائنص؛ لأنهم يحبون لأجلها، ويغضبون لأجلها، ويفعلون كل شيء في سبيلها.

التعلق بالدنيا، والإعراض عن الآخرة:

صاحب الترف يكون قلبه متعلقاً بالملذات، حريصاً عليها غاية الحرص، كما قال تعالى:

﴿لِئَلَّ تُؤْمِنُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا زهدت القلوب في موائد الدنيا؛ قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة، وإذا رضيت بموائد الدنيا؛ فاتتها موائد الآخرة»^(٢).

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧).

(٢) الفوائد (ص ٩٨).

انشغال القلب بتحقيق السعادة:

إن هدف الناس من الحرص على الملذات وأنواع الترف هو تحقيق السعادة، والقلب إذا لم يستطع أن يوجد تلك السعادة؛ بقي قلقاً مضطرباً حتى يحصل على ما يريد، والسعادة بهذه الأشياء وهم وسراب لا يتحقق، فلا يزال الإنسان يركض وراءها، دون أن يستطيع تحقيقها.

عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»^(١).

وابن القيم يحدث عن شيخه ابن تيمية، الذي كان مضطهداً معذباً مسجوناً، قد أخذت منه أوراقه وأقلامه ومحبرته، ومنع من الاتصال بالعالم الخارجي، عندما كان مسجوناً في دمشق، يقول عنه: «وَعَلِمَ اللَّهُ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَطِيبَ عَيْشًا مِنْهُ قَطُّ، مَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ ضَيْقِ الْعَيْشِ وَخِلَافِ الرِّفَاحِيَةِ وَالنَّعِيمِ، بَلْ ضِدِّهَا، وَمَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْحَبْسِ وَالتَّهْدِيدِ وَالْإِرْهَاقِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَطِيبِ النَّاسِ عَيْشًا، وَأَشْرَحَهُمْ صَدْرًا، وَأَقْوَاهُمْ قَلْبًا، وَأَسْرَهُمْ نَفْسًا، تَلُوْحُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ عَلَى وَجْهِهِ، وَكُنَّا إِذَا اشْتَدَّ بِنَا الْخَوْفَ وَسَاءَتْ مِنَّا الظُّنُونُ وَضَاقَتْ بِنَا الْأَرْضُ أَتَيْنَاهُ، فَمَا هُوَ إِلَّا نَرَاهُ وَنَسْمَعُ كَلَامَهُ فَيَذْهَبُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَيَنْقَلِبُ انْشِرَاحًا وَقُوَّةً وَيَقِينًا وَطَمَآنِينَةً، فَسَبْحَانَ مَنْ أَشْهَدَ عِبَادَهُ جَنَّتَهُ قَبْلَ لِقَائِهِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا فِي دَارِ الْعَمَلِ، فَأَتَاهُمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَسِيمِهَا وَطِيبِهَا مَا اسْتَفْرَغَ قَوَاهِمَ لَطْلِبِهَا وَالْمَسَابِقَةَ إِلَيْهَا.

وكان بعضهم يقول: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه؛ لجالدونا عليه بالسيوف»^(٢).

الترف يجرّ على القلب أدواء أخرى:

كالكبر، والتباهي، والتفاخر، والعجب، وينفي عنه التواضع، ولين الجانب.

(١) رواه ابن ماجة (٤١٠٥)، وصححه الألباني.

(٢) الوابل الصيب (ص ٦٧).

الترف يدعو لمشاركة الفساق فسقهم ومجونهم:

لأنهم هم الذين يزدحمون على مواضع الشهوات، أما أهل الدين والمترفعين عن الدنيا: فإنهم لا يتعلقون بها ولا يزدحمون عليها. قيل لبعضهم: ما الذي زهدك في الدنيا؟ قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخساسة شركائها^(١).

للترف أضرارٌ سيئةٌ على الجسد:

أجساد أهل الترف لا تتحمل المشاق، وتصاب بالأمراض لأدنى الأسباب؛ لأن الله فطر الجسم على تحمل المشاق، فإذا خالف الإنسان الفطرة ركبه هذه الأدوية. يقول ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «... وليس المأمور به أن يتقي البرد حتى لا يصيبه منه شيء بالكلية؛ فإن ذلك يضر أيضاً، وقد كان بعض الأمراء يصون نفسه من الحر والبرد بالكلية حتى لا يحس بهما بدنه؛ فتلف باطنه وتعجل موته»^(٢). فالترف يؤثر على الصحة، ويجعل مقاومة الأمراض ضعيفة، ويجعل الإنسان غير قادر على مواجهة شدائد العيش.

الترف مضيعة للوقت:

المترف يستهلك الأوقات بحثاً عن الملذات والشهوات، ولو علم أهمية الوقت ما أضاعه في ملذاته الفانية. عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(٣).

(١) مدارج السالكين (١٦/٢).

(٢) لطائف المعارف (ص ٣٥٦).

(٣) رواه البخاري (٦٤١٢).

الترف يقود إلى التكاسل عن العبادات:

لأن المترف يريد التنعم في ملذات الدنيا؛ فلا يجد وقتاً لقراءة القرآن، ولا لصيام النهار، ولا لقيام الليل، وسائر العبادات.

الترف يفسد المجتمع:

بالترف يصبح المجتمع كسولاً، وتقل فيه أنواع الإنتاج المتنوعة، فيقل فيه الإنتاج الزراعي، والصناعي، والتجاري، وغير ذلك؛ لأن الجميع يسعى إلى أنواع الترف والملذات التي تستهلك الأوقات والصحة.



علاج الترف

يكمن علاج الترف في أمور متعددة، منها:

عدم تعويد النفس على الراحة والدعة والكسل:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْهَرَمِ»^(١) فالعجز هو عدم القدرة، والكسل ترك الشيء مع القدرة عليه.

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ^(٢)

فيعوّد الإنسان نفسه على العمل، سواء كان العمل الوظيفي، أو العمل داخل البيت، كخدمة أهله، ونحو ذلك.

عن الأسود قال: سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله»^(٣). تعني: خدمة أهله.

فمن المناسب جداً: أن تتعود البنتُ على غسل الصحون وتنظيف البيت، ويتعود الولدُ على قصّ الزرع وتهذيب الحديقة، وغسل السيارة، وشراء حاجيات البيت من السوق، وغير ذلك.

(١) رواه البخاري (٢٨٢٣) ومسلم (٢٧٠٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/١١٠).

(٣) رواه البخاري (٦٧٦).

الزهد في الدنيا والتقلل من مُتَعَمَّا:

وهو أهم العلاجات، فيدعو الإنسان لنفسه ولأهله بأن يزهّدوا في الدنيا، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كِفَافًا»^(١).

ولو تأمل أحدنا في حقيقة الدنيا؛ لوجدها حقيرة لا تستحق كل هذا التعب والجري خلفها، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بجدي أسكّ^(٢) ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه ثم قال: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟». فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟». قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا فيه؛ لأنه أسكّ، فكيف وهو ميت؟ فقال: «فَوَاللهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»^(٣).

عن سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرِبَةَ مَاءٍ»^(٤).

وهذه الحياة لا تستحق أن يفرح بنعيمها، ولا أن يُحزن بفوات ملذاتها، لما سئل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: عمن معه ألف دينار ألا يكون زاهدا؟ قال: «نعم، بشرط أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت»^(٥).

عن عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِحْصَنِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافَى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حَبِزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»^(٦).

فينبغي على الإنسان أن يأخذ الدنيا بسخاوة نفس، يعطي هذا، ويصل هذا، ويتصدق على هذا، فالمال الذي عنده كأنه للناس.

(١) رواه مسلم (١٠٥٥).

(٢) أي: صغير الأذنين.

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وصححه الألباني.

(٥) مدارج السالكين (١/٤٦٥)، فيض القدير (٤/٧٢).

(٦) رواه الترمذي (٢٣٤٦)، وحسنه الألباني.

أن ينظر الإنسان إلى من هو دونه في الدنيا، ولا ينظر إلى من هو فوقه:

حتى يعرف نعمة الله عليه، ولا يتطلع إلى الزينة التي فيها أصحاب الترف.

تقصير الأمل:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك»^(١).

وعن حفص بن سليمان رحمته الله قال: دخل رجل على أبي ذر رضي الله عنه فجعل يقلب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر أين متاعكم؟ قال: «إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا» - يقصد: في الآخرة - قال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ها هنا. قال: «إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه»^(٢).

ودخلوا على بعض الصالحين، فقلّبوا أبصارهم في بيته، فقالوا: إنا نرى بيتك بيت رجل مرتحل!، فقال: «أمرٌ محلٌّ؟ لا أرْمَحِلُّ وَلَكِنْ، أُطْرِدُ طَرْدًا»^(٣).

فالمرء منا لا يُطلب منه أن يرحل من هذه الحياة، بل يُطرد منها طرداً، فيؤخذ في ثانية، وتخرج روحه بدون استئذان ولا إمهال، ولا إعطاء فترة مهلة للمغادرة.

النظر في سيرة الصالحين والزهاد:

من نظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وجد زهداً ليس له نظير، يدعوه إلى الامتثال والاتباع.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خوان^(٤) حتى مات، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات»^(٥).

وعن أبي حازم قال: سألت سهل بن سعد رضي الله عنه فقلت: هل أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) شعب الإيمان (١٠٦٥١).

(٣) جامع العلوم والحكم (ص ٣٨٠).

(٤) طبق مرتفع يوضع عليه الطعام، وهو ما يسمى الآن بالطاولة، والمنضدة.

(٥) رواه البخاري (٦٤٥٠).

النَّقِيِّ^(١)؟ فقال سهل: «ما رأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النقي من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله». قال: فقلت: هل كانت لكم في عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مناخل؟ قال: «ما رأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خلا من حين ابتعثه الله حتى قبضه». قال: قلت: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: «كنا نطحه وننفخه فيطير ما طار، وما بقي ثريناه^(٢) فأكلناه»^(٣).
وعن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كساء وإزارا غليظا، فقالت: «قُبْض روح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذين»^(٤).

وقد ضرب كثيرٌ من الصحابة والتابعين أمثلة رائعة للزهد والتقلل من حياة الترف والملهيات والملذات.

فهذا مصعب بن عمير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي كان يُضرب به المثل في الترف في قريش، فلم يكن هناك من يدانيه في لباسه وطيبه، ثم ترك حياة المترفين والتحق بركب الزاهدين، ولما مات ما وجدوا له كفنًا يكفيه، وما وجدوا إلا بردة إذا غطوا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطوا رجليه بدا رأسه^(٥).

وعمر بن عبد العزيز مثال رائع آخر لمن زهد بعد حياة الترف:

عن حجاج الصواف قال: أمرني عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة أن أشتري له ثياباً، فاشتريت له ثياباً، فكان فيها ثوب بأربعمائة، فقطعه قميصاً ثم لمسه بيده، فقال: «ما أخشنه وأغلظه»، ثم أمر بشراء ثوب له وهو خليفة، فاشتروه بأربعة عشر درهماً فلمسه بيده، فقال: «سبحان الله، ما ألينه وأدقه»^(٦).

وأتى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز إلى أبيه وهو خليفة، يستكسي أباه، فقال: يا أبت

(١) هو خبز الدقيق الأبيض النظيف من الغش والنخالة. فتح الباري (٥٤٨/٩).

(٢) أي: بللناه بالماء وعجنناه، ثم خبزناه وأكلناه.

(٣) رواه البخاري (٥٤١٣).

(٤) رواه البخاري (٥٨١٨).

(٥) انظر: صحيح البخاري (١٢٧٥)، الثقات لابن حبان (٢٣٤/١).

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٣٤/٥).

اكسني. فقال: «أذهب إلى الخيار بن رباح البصري، فإن لي عنده ثياباً، فخذ منها ما بدا لك». قال: فذهب إلى الخيار بن رباح فقال: إني استكسيت أبي، فأرسلني إليك، وقال لي: إن لي عند الخيار بن رباح ثياباً. فقال: صدق أمير المؤمنين، فأخرج إليه ثياباً سنبلانية^(١) أو قطرية^(٢) -وهي ثياب متواضعة-. فقال: هذا ما لأمر المؤمنين عندي، فخذ منها. فرجع عبد الله بن عمر إلى أبيه عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ، فقال: يا أبتاه، استكسيتك فأرسلتني إلى الخيار بن رباح، فأخرج لي ثياباً ليست من ثيابي، ولا من ثياب قومي. قال: «فذاك ما لنا عند الرجل». فانصرف عبد الله ابن عمر، حتى إذا كاد أن يخرج ناداه، فقال: «هل لك أن أسلفك من عطائك^(٣) مائة درهم؟» قال: نعم يا أبتاه. فأسلفه مائة درهم، فلما خرج عطاؤه حوسب بها، فأخذت منه^(٤).

وكان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ في غاية الزهد، قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ: «الناس يقولون مالك بن دينار زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز؛ أتته الدنيا فتركها»^(٥).

ومن العلاجات المهمة: أن يترك الإنسان بعض النعيم الذي يقدر عليه:

عن معاذ بن أنس الجهني عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ تَرَكَ اللَّبَاسَ تَوَاضِعاً لِلَّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ دَعَاَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الْإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا»^(٦).

وعن أبي عثمان قال: كتب إلينا عمر رَحِمَهُ اللهُ: «إياكم والتنعم وزى أهل الشرك ولبوس الحرير؛ فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن لبوس الحرير»^(٧).

(١) هي الثياب السابعة الطويلة.

(٢) ثياب حمراء مخططة فيها بعض الخشونة.

(٣) أي: عطاؤه من بيت المال.

(٤) تاريخ دمشق (١٧/٦٦-٦٧).

(٥) السنة لعبد الله بن أحمد (١/١١٩).

(٦) رواه الترمذي (٢٤٨١)، وصححه الحاكم.

(٧) رواه مسلم (٢٠٦٩).

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ذروا التَّعَمُّمَ وَزِيَّ الْعَجْمِ»^(١).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ أَنْ تَبْدَلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمَسِّكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُتْلَمُ عَلَى كِفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(٢).

ومن وسائل محاربة الترف: مشاركة الفقراء في طعامهم وشرابهم:

عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فأت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشراب من عندها، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسقيني». قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه!، قال: «اسقيني». فشرب منه^(٣).

فالعباس أراد أن يأتي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهاء لم يضع أحد يده فيه، ولكنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبى إلا مشاركة الناس في شرابهم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أَهْدِي إِلَيَّ ذِرَاعًا أَوْ كُرَاعًا لَقَبِلْتُ»^(٤).

أي: لو أهدى إليّ شيء عليه لحم قليل جداً، أو ما عليه لحم أصلاً لقبّله.

فهذه بعض السبل لمحاربة الترف الموجود الآن بكثرة في حياتنا، ولا بُدَّ من مراعاة ذلك، خاصّة مع أطفالنا؛ فهم جيل المستقبل، ومَعْقِدُ الآمال.



(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٩٤)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(٢) رواه مسلم (١٠٣٦).

(٣) رواه البخاري (١٦٣٦).

(٤) رواه البخاري (٢٥٦٨).

الخاتمة

إن هذه الحياة التي يعيشها هؤلاء المترفون ما هي إلا نعيم زائل، ومتاع قليل، أراد الله أن يختبر بها عباده، وقليلٌ من عباده الشكور، قال نفطويه:

إِذَا مَا كَسَاكَ الدَّهْرُ ثَوْبَ مَصْحَةٍ وَلَمْ يَحُلْ مِنْ قُوتٍ يَحْلَى وَيَعْدِبُ
فَلَا تَغْبِطَنَّ الْمُتَرْفِينَ فَإِنَّهُ عَلَى حَسْبٍ مَا يُعْطِيهِمُ الدَّهْرُ يَسْلُبُ^(١)

واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف؛ فإنها يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب، ويفضحان أهلها.

والترف - وإن كان مذموماً من جميع الناس - إلا أنه في حق طلبة العلم والدعاة أكثر ذمماً، وهذا المرض قد انتشر بين الناس عامتهم وخاصتهم، وقلَّ أن يسلم منه أحد.

وخير الأمور هو التوسط، وعدم الإفراط في ملازمة الطيبات؛ فإنه يؤدي إلى الترفه والبطر، ولا يأمن من الوقوع في الشبهات، فإن من اعتاد ذلك قد لا يجده أحياناً، فلا يستطيع الصبر عنه، فيقع في المحذور.

كما أن مَنْ منع نفسه من جميع الطيبات فقد يفضي به ذلك إلى التنطع، وهو التكلف المؤدي إلى الخروج عن السنة، المنهي عنه.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يصلح نياتنا وذرياتنا، وأن يجعل عيشنا كفافاً وأمرنا سداداً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



(١) فيض القدير (٦/٦٨).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرّف الترف لغة واصطلاحاً.
٢. اذكر ثلاثة من صور الترف المعاصرة.
٣. ما هي أسباب شيوع ظاهرة الترف؟
٤. اذكر ثلاثة من آثار الترف على الفرد والمجتمع.
٥. لكل داء دواء، فما دواء الترف؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. لماذا دُمَّ الترف في القرآن الكريم؟

٢. هل الترف والغنى متلازمان؟ وضح ذلك.
٣. كيف يكون الترف سبيلاً لتعبيد القلب لغير الله؟
٤. (وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه) من القائل؟ ومن المقصود؟ وما مناسبه؟
٥. الترف مفسد للمجتمع، وضح ذلك.
٦. هل يجتمع الزهد في الدنيا وحب جمع المال؟.



مفسات القلوب



النفاق



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن النفاق داء وبيل، وانحراف خطير، وشر مستطير، وهو من أخطر الأمراض التي تفسد القلب إن لم يكن أخطرها، والإنسان لا يرضى لنفسه النفاق غير أنه قد يقع فيه من حيث لا يشعر، وبالأخص النفاق العملي، وهذا لا يعني أن يقف الإنسان عاجزاً عن مواجهته، ويخطئ من يستهين به دون أن يحصن نفسه منه؛ لأنه يسلب من الإنسان كل صفات الخير، ويحرمه من فعل الصالحات، ويتنزعه منه كل القيم السامية؛ حتى يجعله منبوذاً مدحوراً. وقد جاءت سور القرآن بكشف أهله، وذكر صفاتهم.

وستتطرق في هذا الفصل إلى تعريف النفاق، وذكر أنواعه، وبيان صفات المنافقين، وسبل الوقاية منه.

أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة وإخراجها، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



تعريف النفاق

النفاق لغة:

(نفق) النون والفاء والقاف أصلان صحيحان، يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه، والآخر على إخفاء شيء وإغماضه.

مأخوذ من النفق، وهو السرب في الأرض الذي يُستتر فيه، وسمي النفاق بذلك؛ لأن المنافق يستتر كفره^(١).

والنفاق اصطلاح شرعي، لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وإن كان أصله معروفاً في اللغة العربية.

النفاق شرعاً:

إظهار الخير، وإسرار الشر.

عن ابن جريج قال: «المنافق يخالف قوله فعله، وسرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه»^(٢).



(١) انظر: لسان العرب (٣٥٧/١٠)، وانظر: معجم مقاييس اللغة (٥/٤٥٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/١٧٦).

أنواع النفاق

النفاق ينقسم إلى: نفاق أكبر ونفاق أصغر.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والنفاق كالكفر، نفاق دون نفاق، ولهذا كثيرا ما يقال: كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر»^(١).

١. النفاق الاعتقادي (النفاق الأكبر):

وهو أن يُظهر الإيمان والإسلام وهو كافر في الباطن، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزل القرآن بدمّ أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كلّه أو بعضه»^(٢).

وقد يطلق الفقهاء لفظ الزنديق على المنافق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله، هؤلاء هم المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار»^(٣).

٢. النفاق العملي (النفاق الأصغر):

وهو ترك المحافظة على أمور الدين سرّاً، ومراعاتها علناً، مع الإيمان بالله وصحة الاعتقاد.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٤).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ٤٣١).

(٣) طريق المهجرتين (ص ٥٩٥).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «النفاق الأصغر، وهو نفاق العمل، وهو أن يُظهر الإنسان علانية صالحته، ويُبطن ما يخالف ذلك»^(١).

والنفاق الأصغر العملي قد يجتمع في قلب المسلم مع أصل الإيمان، وهو من أكبر الذنوب والمعاصي، بخلاف النفاق الأكبر فإنه ينافي الإيمان، فلا يجتمع نفاق أكبر مع الإيمان بالله في قلب عبد.

ولكن إذا استحکم النفاق الأصغر وکمل؛ فقد يفضي بصاحبه إلى النفاق الأكبر، والانسلاخ من الدين بالكلية.

والنفاق العملي لا يخلد صاحبه في النار، بل حكمه حكم سائر أهل الكبائر، فإن شاء الله غفر له وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه على ذنوبه، ثم يكون مآله إلى الجنة.

والنفاق في الدين منه ما هو أصلي، ومنه ما هو طارئ:

فالمقصود بالنفاق الأصلي: النفاق الذي لم يُسبق بإسلام صحيح، فقد تدفع المصلحة الدنيوية بعض الناس، إلى التظاهر بالانتساب للإسلام وهو غير مؤمن به في قلبه، فيكون منافقاً منذ اللحظة الأولى لإعلان إسلامه، ثم يستمر على هذا النفاق.

وقد يعلن بعض الناس إسلامهم وهم صادقون، ثم يطرأ الشك والنفاق على قلوبهم، بعد تعرضهم لابتلاءات مختلفة يمتحن الله بها صدق إيمانهم، فيرتدون عن الإسلام ردة داخلية، ويخشون إعلان ردتهم، ويستمرون على التظاهر بالإسلام، مخافة إجراء أحكام الردة عليهم، أو مخافة فوات منافع دنيوية تأتيهم بوصفهم مسلمين، أو مخافة تعرضهم للذم وفقدان مكانتهم في المجتمع، أو غير ذلك من صور المنافع التي يرونها، فيستمرون على إظهار الإسلام، بينما هم في الحقيقة كافرون مرتدون.



(١) جامع العلوم والحكم (١/٤٣١).

الخوف من النفاق

اشتد خوف الصحابة ومن بعدهم من الصالحين من النفاق حتى كان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا فرغ من التشهد في الصلاة يتعوذ بالله من النفاق، ويكثر التعوذ منه، فقال له أحدهم: ومالك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟، فقال: «دَعْنَا عَنْكَ، دَعْنَا عَنْكَ، فَوَاللَّهِ إِنْ الرَّجُلَ لَيَقْلَبُ عَنْ دِينِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ، فَيَخْلَعُ مِنْهُ»^(١).

وعن حَنْظَلَةَ الْأَسِيدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةَ قَالَ: قُلْتُ: نَافِقٌ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّبِيغَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَاذْهَبْنَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافِقٌ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّبِيغَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحْتَكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٢).

ومعنى (نافق حنظلة): أنه خاف أنه منافق حيث كان يحصل له الخوف في مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويظهر عليه ذلك، مع المراقبة والفكر والإقبال على الآخرة، فإذا خرج اشتغل

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٨٢). قال الذهبي: إسناده صحيح.

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٠).

بالزوجة والأولاد ومعاش الدنيا، وأصل النفاق إظهار ما يكتُم خلافه من الشرِّ، فخاف أن يكون ذلك نفاقاً، فأعلمهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ليس بنفاق، وأنهم لا يُكَلِّفون الدوام على ذلك.

«سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ» أي: ساعة كذا، وساعة كذا^(١).

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: دُعِيَ عَمْرُ لِحَنَازَةَ فَخَرَجَ فِيهَا أَوْ يَرِيدُهَا، فَتَعَلَّقْتُ بِهِ فَقُلْتُ: اجْلِسْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ مِنْ أَوْلَئِكَ أَي: مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ: «نَشَدْتُكَ اللهُ، أَنَا مِنْهُمْ؟» قَالَ: لَا، وَلَا أُبْرِي أَحَدًا بَعْدَكَ^(٢).

وقال ابن أبي مليكة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النَّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيْمَانٍ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ»^(٣).

وقال ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تَاللهِ لَقَدْ مُلِئْتُ قُلُوبَ الْقَوْمِ إِيْمَانًا وَيَقِينًا، وَخَوْفُهُمْ مِنَ النَّفَاقِ شَدِيدٌ، وَهُمْ لِدَلِكِ ثَقِيلٌ، وَسِوَاهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ إِيْمَانَهُمْ كِإِيْمَانِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ»^(٤).

وما عنوا به النفاق الذي هو ضد أصل الإيْمَان، بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيْمَان، فيكون مسلماً منافقاً. وله علامات كثيرة، فعن عبد الله بن عمرو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدَّعِيَهَا: إِذَا أُؤْتِيَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٥).



(١) شرح النووي على مسلم (١٧/٦٦-٦٧).

(٢) رواه البزار (٤٢٥)، وقال الهيثمي في المجمع (٣/٤٢): رجاله ثقات.

(٣) رواه البخاري (١/٢٦).

(٤) مدارج السالكين (١/٣٥٨).

(٥) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، وانظر: إحياء علوم الدين (٤/١٧٢).

صفات المنافقين في الكتاب والسنة

جاء ذكر المنافقين في القرآن الكريم، وفي السنة المطهرة، في مواضع عديدة، تبين صفاتهم، وتحذّر المؤمنين منهم، حتى أفرد الله تعالى سورة خاصة بهم، ومن صفاتهم:

• مرض القلب:

قال الله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

[البقرة: ١٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قَدْ نَهَكَتْ أَمْرَاضُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ قُلُوبَهُمْ فَأَهْلَكَتْهَا، وَغَلَبَتْ الْقُصُودُ السَّيِّئَةَ عَلَى إِرَادَاتِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ فَأَفْسَدَتْهَا، فَفَسَادُهُمْ قَدْ تَرَامَى إِلَى الْهَلَاكِ، فَعَجَزَ عَنْهُ الْأَطِبَّاءُ الْعَارِفُونَ، ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾»^(١).

• الطمع الشهواني:

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فيطمع الذي في قلبه ضعف، فهو لضعف إيمانه في قلبه: إما شك في الإسلام منافق، فهو لذلك من أمره يستخفّ بحدود الله، وإما متهاون بإتيان الفواحش^(٢).

(١) مدارج السالكين (١/٣٤٩).

(٢) جامع البيان (٢٠/٢٥٨).

• التكبر والاستكبار:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين -عليهم لعائن الله- أنهم إذا قيل لهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: صدّوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك، واحتقاراً لما قيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾. ثم جازاهم على ذلك؛ فقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).

• الاستهزاء بآيات الله:

قال الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزْؤُا بِآيَاتِ اللَّهِ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، أي: تُظهر المؤمنين على ما في قلوبهم. وقيل: إن الله أنزل هذه الآية على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن المنافقين كانوا إذا عابوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكروا شيئاً من أمره وأمر المسلمين قالوا: لعَلَّ الله لا يفشي سرّنا، فقال الله لنبية صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قل لهم: ﴿اسْتَهِزْؤُا﴾، متهدداً لهم متوعداً، ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾^(٢).

• الاستهزاء بالمؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لكل منهم وجهان: وجه يلقي به المؤمن، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يُترجم به عن سرّه المكنون.

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٧٣).

(٢) جامع البيان (١٤/٣٣١).

وقد أعرضوا عن الكتاب والسنة؛ استهزاءً بأهلها واستحقاراً، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين؛ فرحاً بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثار منه إلا أشراً واستكباراً، فتراهم أبداً بالتمسكين بصريح الوحي يستهزؤون ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١).

• صدّ الناس عن الإنفاق:

قال الله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا إِلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، قَالَ: «كُنْتُ فِي غَزَاةٍ، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِيٍّ، يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِهِ، وَلَيْتَنِي رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لِيُخْرِجَنَّا الْأَعْرُضَ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعَمْرٍ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ لِي عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَقَّتَكَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدٌ»^(٢).

• السّفه، ثم رمي المؤمنين بالسّفه:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «التمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، مبخوس حظّه من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفارا، فهّمه في حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء، فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطهرون»^(٣).

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥٠).

(٢) رواه البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٥٠).

• موالاة الكافرين:

قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩].

يقول الله لنبيه: يا محمد ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يتخذون أهل الكفر بي والإحاد في ديني أولياء، يعني أنصارا وأخلاء من دون المؤمنين، يعني: من غير المؤمنين. ﴿أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ﴾ يقول: يطلبون عندهم المنعة والقوة باتخاذهم إياهم أولياء من دون أهل الإيمان بي ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يقول: فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم هم الأذلاء الأقلاء، فهلا اتخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتبسوا العزة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، فيعزهم ويمنعهم^(١).

• التربص بالمؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿﴾ [النساء: ١٤١].

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ الذين ينتظرون أيها المؤمنون بكم ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنْ اللَّهِ﴾ يعني: فإن فتح الله عليكم فتحا من عدوكم، فأفاء عليكم فيئا من الغانم، ﴿قَالُوا﴾ لكم ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ نجاهد عدوكم، ونغزوهم معكم، فأعطونا نصيبا من الغنيمة، فإننا قد شهدنا القتال معكم، ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ يعني: وإن كان لأعدائكم من الكافرين حظ منكم بإصابتهم منكم ﴿قَالُوا﴾ يعني: قال هؤلاء المنافقون للكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نغلب عليكم حتى قهرتم المؤمنين، ونمنعكم منهم بتخذيلنا إياهم، حتى امتنعوا منكم فانصرفوا، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: فالله يحكم بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة،

(١) جامع البيان (٣١٩/٩).

يفصل بينكم بالقضاء الفاصل بإدخال أهل الإيمان جنته، وأهل النفاق مع أوليائهم من الكفار نارَه^(١).

• مخادعة الله، والكسل في العبادات:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

إن المنافقين يخادعون الله بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم، والله خادعهم بها حكم فيهم من منع دمائهم بها أظهرها بألستهم من الإيمان، مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفر، استدراجا منه لهم في الدنيا، حتى يلقوه في الآخرة، فيوردهم بها استبتنوا من الكفر نار جهنم...

وأما قوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ فإنه يعني أن المنافقين لا يعملون شيئا من الأعمال التي فرضها الله على المؤمنين على وجه التقرب بها إلى الله؛ لأنهم غير موقنين بمعاد ولا ثواب ولا عقاب، وإنما يعملون ما عملوا من الأعمال الظاهرة بقاء على أنفسهم، وحادارا من المؤمنين عليها أن يُقتلوا أو يُسلبوا أموالهم، فهم إذا قاموا إلى الصلاة التي هي من الفرائض الظاهرة قاموا كسالى إليها، رياء للمؤمنين؛ ليحسبوا منهم، وليسوا منهم؛ لأنهم غير معتقدي فرضها ووجوبها عليهم، فهم في قيامهم إليها كسالى...

وأما قوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلعل قائلًا أن يقول: وهل من ذكر الله شيء قليل؟! قيل له: إن معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهب، إنما معناه: ولا يذكرون الله إلا ذكرا رياء؛ ليدفعوا به عن أنفسهم القتل والسبب وسلب الأموال، لا ذكر موقن مصدق بتوحيد الله، مخلص له الربوبية؛ فلذلك سماه الله قليلا؛ لأنه غير مقصود به الله، ولا مبتغى به التقرب إلى الله، ولا مرادا به ثواب الله وما عنده، فهو، وإن كثر، من وجه نَصَب عامله وذاكره، في معنى السراب، الذي له ظاهر بغير حقيقة ماء^(٢).

(١) جامع البيان (٩/ ٣٢٤).

(٢) جامع البيان (٩/ ٣٣١).

• التذبذب والتردد:

قال الله تعالى: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

عنى بذلك: أن المنافقين متحيرين في دينهم، لا يرجعون إلى اعتقاد شيء على صحة، فهم لا مع المؤمنين على بصيرة، ولا مع المشركين على جهالة، ولكنهم حيارى بين ذلك^(١). وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل المنافق، كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة»^(٢).

قال النووي رحمه الله: «العائرة: المترددة الحائرة: لا تدري لأيهما تتبع: ومعنى تعير: أي تتردد وتذهب»^(٣).

• مخادعة المؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

خداع المنافق ربه والمؤمنين: إظهاره بلسانه من القول والتصديق خلاف الذي في قلبه من الشك والتكذيب؛ ليدرأ عن نفسه - بما أظهر بلسانه - حكم الله عز وجل اللزوم من كان بمثابة حاله من التكذيب، لو لم يظهر بلسانه ما أظهر من التصديق والإقرار من القتل والسب، فذلك خداعه ربه وأهل الإيمان بالله^(٤).

• التحاكم إلى الطاغوت:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا إِلَى الَّذِينَ يَرَعُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

(١) جامع البيان (٩/٣٣٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٨٤).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/١٢٨).

(٤) جامع البيان (١/٢٧٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إِنْ حَاكَمْتَهُمْ إِلَى صَرِيحِ الْوَحْيِ وَجَدْتَهُمْ عَنْهُ نَافِرِينَ، وَإِنْ دَعَوْتَهُمْ إِلَى حُكْمِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَيْتَهُمْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ، فَلَوْ شَهِدَتْ حَقَائِقُهُ لَرَأَيْتَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْهُدَى أَمْدًا بَعِيدًا، وَرَأَيْتَهَا مُعْرِضَةً عَنِ الْوَحْيِ إِعْرَاضًا شَدِيدًا»^(١).

• الإفساد بين المؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَوْا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لأنهم جناء مخذولون، ﴿خَبَالًا وَلَا أُضْعَوْا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مطيعون لهم، ومستحسنون لحدِيثهم وكلامهم، يستنصحوهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدّي هذا إلى وقوع شرّ بين المؤمنين وفساد كبير^(٢).

• الحلف الكاذب، والخوف، والجبن، والهلع:

قال الله تعالى: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُمُ وَمَا هُمْ بِمَنْكُمُ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَتًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧].

يخبر الله تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن جزعهم وفرعهم وفرقهم وهلعهم، أنهم ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُمُ﴾ أي: يميننا مؤكدة، ﴿وَمَا هُمْ بِمَنْكُمُ﴾ أي: في نفس الأمر، ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي: فهو الذي حملهم على الحلف. ﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا﴾ أي: حصنا يتحصنون به، وحرزا يتحرزون به، ﴿أَوْ مَعْرَتٍ﴾ وهي التي في الجبال، ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ وهو السرب في الأرض والنفق... ﴿مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم؛ لأنهم إنما يخاطبونكم كرها لا محبة، وودّوا أنهم لا يخاطبونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزّ

(١) مدارج السالكين (١/٣٥٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/١٦٠).

ونصر ورفعة، فلهذا كلما سُرَّ المسلمون ساءهم ذلك، فهم يودّون أن لا يخالطوا المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾^(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مِّنْ سِنْدَةٍ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِیْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاذْرُهُمْ فَتِلْكَ أَلْسِنَةٌ كَاذِبَةٌ﴾.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أحسن الناس أجساماً، وأخلبهم لساناً، وألطفهم بياناً، وأخبثهم قلوباً، وأضعفهم جناناً، فهم كالخشب المسندة التي لا ثمر لها، قد قلعت من مغارسها، فتساندت إلى حائط يقيمها؛ لئلا يطأها السالكون»^(٢).

• يحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا:

قال الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَحَلَفُوا وَأَحْبَبُوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا»، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(٣).

• يعيبون العمل الصالح:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيب عليك ﴿فِي﴾ قسم ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٥٤).

(٣) رواه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٧٧٧).

ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن أعطوا من الزكاة ﴿رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم^(١).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

عن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: «لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عجيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾^(٢).

لا يسلم أحد من عييبهم ولزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بهال جزيل قالوا: هذا مرء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقته^(٣).

• الرضا بأسافل المواضع:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَّاكَ أُولَ الْأَطْوَالِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦].

يقول تعالى منكرا وذاما للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجنب الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿أَشْحَاءَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورًا عَيْنِهِمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْمَخَوْفُ سَلَقُواكُمْ بِالْسِنَةِ جِدَارٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] أي: علت ألسنتهم بالكلام الحادّ القوي في الأمن، وفي الحرب أجنب شيء^(٤).

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٨٢).

(٢) رواه البخاري (٤٦٦٨)، ومسلم (١٠١٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٨٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٩٦).

• الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:

قال الله تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُمَا كَمَا نَسِئْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾. ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة^(١).

• كره الجهاد، والتخلف عنه:

قال الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

يقول تعالى ذامًا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك، وفرحوا ببقودهم بعد خروجه، ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾؛ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والشار؛ فلماذا قالوا: لا تنفروا في الحر، قال الله تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حرًا من النار^(٢).

• التخذيل والإرجاف:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٧٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٨٩).

﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرَبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿[الأحزاب: ١٢-١٣].

• البطء عن المؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لُّبِطٌ وَإِنَّ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٧].

هذا نعت من الله تعالى ذكره للمنافقين، نعتهم لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، ووصفهم بصفتهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون، يعني: من عدادكم وقومكم، ومن يشبهه بكم، ويظهر أنه من أهل دعوتكم وملتكم، وهو منافق يبطن من أطاعه منكم عن جهاد عدوكم، وقتالهم إذا أنتم نفرتم إليهم، ﴿فَإِنَّ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ يقول: فإن أصابتكم هزيمة أو نالكم قتل أو جراح من عدوكم ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ فيصيني جراح أو ألم أو قتل، وسره تخلفه عنكم شاة بكم؛ لأنه من أهل الشك في وعد الله الذي وعد المؤمنين على ما نالهم في سبيله من الأجر والثواب وفي وعيده، فهو غير راجح ثواباً، ولا خائف عقاباً^(١).

• الاستئذان عن الجهاد:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنْذِرْنِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿أُنْذِرْنِي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِي﴾ بالخروج معك بسبب الجوارح من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا^(٢).

• اتخاذ الأعداء عند التخلف:

قال الله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ

(١) جامع البيان (٨/ ٥٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦١).

قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿التوبة: ٩٤﴾.

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم، ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرا وشرها، ويميزكم عليها^(١).

• الاستخفاء من الناس:

قال الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقباثتهم من الناس؛ لئلا ينكروا عليهم، ويجاهروا الله بها؛ لأنه مطلع على سرائرهم، وعالم بما في ضمائرهم، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ تهديد لهم ووعد^(٢).

• الفرح بما يصيب المؤمنين من ضراء:

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوًّا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰئِنتُمْ أَوْلَاءٌ مُّجْبُوتِهِمْ وَلَا يَجِئُونَكُم بِالتَّوْبَةِ وَالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوْهَتْمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصِرُوا وَتَقَفُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٠١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٠٧).

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي: يطلعونهم على سرائرهم، وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقاتهم لا يألون المؤمنين خبالاً أي: يسعون في مخالفتهم، وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودّون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشقّ عليهم^(١).

• إذا أؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦].

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكوننّ من الصالحين، فما وفّى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عزّجَل يوم القيامة، عياداً بالله من ذلك^(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

قال ابن القيم رحمه الله: «رأس ما لهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختار، وعندهم العقل المعيشي أنّ الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾»^(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أربعٌ من كُنَّ فيه كان مُنافِقاً خالِصاً، ومَن كانت فيه خِصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانت فيه خِصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَها: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٤).

قال النووي رحمه الله: «هذا الحديث مما عدّه جماعة من العلماء مشكلاً من حيث إن هذه الخصال توجد في المسلم المصدّق الذي ليس فيه شك، فإن إخوة يوسف عليه السلام جمعوا هذه الخصال، وكذا وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كلّه، وهذا الحديث

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/١٠٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٨٣).

(٣) مدارج السالكين (١/٣٤٩).

(٤) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

ليس فيه بحمد الله تعالى إشكال، ولكن اختلف العلماء في معناه، فالذي قاله المحققون والأكثر، وهو الصحيح المختار: إن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم، فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعدته وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر، ولم يرد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدن في الدرك الأسفل من النار.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كان منافقا خالصا» معناه: شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال. قال بعض العلماء: وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبية عليه، فأما من يندر ذلك منه فليس داخلا فيه، وهذا هو المختار في معنى الحديث^(١).

• تأخير الصلاة عن وقتها:

عن العلاء بن عبد الرحمن رَجَمَهُ اللهُ: أنه دخل على أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في داره بالبصرة حين انصرف من الظهر، وداره بجانب المسجد، قال: فلما دخلنا عليه قال: أصليتم العصر؟ فقلنا له: إنما انصرفنا الساعة من الظهر، قال: فصلوا العصر، فقمنا فصلينا، فلما انصرفنا قال سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرُقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنِي الشَّيْطَانِ قَامَ فَتَقَرَّرَ أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهُ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»^(٢).

قال ابن القيم رَجَمَهُ اللهُ: «يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول إلى شَرِقِ المَوْتَى»^(٣)، فالصبح عند طلوع الشمس، والعصر عند الغروب، ويتقرونها نقر الغراب؛ إذ هي صلاة الأبدان لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفات الثعلب؛ إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب»^(٤).

(١) شرح النووي على مسلم (٢/٤٦-٤٧).

(٢) رواه مسلم (٦٢٢).

(٣) أراد أنهم يُصَلُّونَهَا ولم يَبْقَ مِنَ النَّهَارِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَبْقَى مِنْ نَفْسِ الْمُحْتَضِرِ إِذَا شَرِقَ بِرَيْقِهِ. وانظر: القاموس المحيط (ص ٨٩٧).

(٤) مدارج السالكين (١/٣٥٤).

• التخلف عن صلاة الجماعة:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَاةِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّ مَنْ سُنَنَ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَصَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحَسِّنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْبُدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحْطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتَنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومٌ النَّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»^(١).

• البذاء والبيان:

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النَّفَاقِ»^(٢).

قال الترمذي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والعِي قلة الكلام، والبذاء هو الفحش في الكلام، والبيان هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيوسعون في الكلام، ويتفصّحون فيه، من مدح الناس فيما لا يرضي الله».

وقال ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجملة أمرهم أنهم في المسلمين كالزغل في النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس، وقليل ما هم، وليس على الأديان أضرّ من هذا الضرب من الناس، وإنما تفسد الأديان من قبلهم، ولهذا جلا الله أمرهم في القرآن، وأوضح أوصافهم، وبيّن أحوالهم، وكرّر ذكرهم، لشدة المؤنة على الأمة بهم، وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم، وفرط حاجتهم إلى معرفتهم، والتحرز من مشابهمهم والإصغاء إليهم، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طرق الهدى، وسلكوا بهم سبيل الردى، وعدّوهم ومثّوهم، ولكن وعدوهم الغرور، ومثوهم الويل والشبور»^(٣).

(١) رواه مسلم (٦٥٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) طريق المهجرتين (ص ٦٠٣).

• سماع الغناء:

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الغناء ينبت النفاق في القلب»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن أساس النفاق: أن يخالف الظاهر الباطن، وصاحب الغناء بين أمرين: إما أن يتهتك فيكون فاجراً، أو يظهر النسك فيكون منافقاً، فإنه يظهر الرغبة في الله والدار الآخرة وقلبه يغلى بالشهوات، ومحبة ما يكرهه الله ورسوله من أصوات المعازف، وآلات اللهو، وما يدعو إليه الغناء ويهيجه، فقلبه بذلك معمور، وهو من محبة ما يحبه الله ورسوله وكراهة ما يكرهه كفر، وهذا محض النفاق.

وأيضاً: فإن الإيمان قول وعمل: قول الحق، وعمل بالطاعة، وهذا ينبت على الذكر، وتلاوة القرآن. والنفاق: قول الباطل، وعمل البغى، وهذا ينبت على الغناء.

وأيضاً: فمن علامات النفاق: قلة ذكر الله، والكسل عند القيام إلى الصلاة، ونقر الصلاة، وقُلَّ أن تجد مفتوناً بالغناء إلا وهذا وصفه.

وأيضاً: فإن النفاق مؤسس على الكذب، والغناء من أكذب الشعر، فإنه يحسن القبيح، ويزينه، ويأمر به، ويقبِّح الحسن، ويزهد فيه، وذلك عين النفاق.

وأيضاً: فإن النفاق غش ومكر وخداع، والغناء مؤسس على ذلك»^(٢).



(١) شعب الإيمان (٥٠٩٨).

(٢) إغاثة اللفهان (١/٢٥٠).

الوقاية من النفاق

حتى يقي المسلم نفسه من النفاق يتحتم عليه التحلي بالصفات الحسنة، والأعمال الصالحة، والتي منها:

• التكبير للصلاة، وإدراك تكبيرة الإحرام:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَلَّى لِرَبْعَيْنِ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى كُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النَّفَاقِ»^(١).
(براءةٌ مِنَ النَّارِ) أَي خَلَاصٌ وَنَجَاةٌ مِنْهَا.

يقال برأ من الدين والعيب: خَلَصَ. (وَبَرَاءَةٌ مِنَ النَّفَاقِ) قَالَ الطَّبَّيْسِيُّ: «أَي: يُؤْمَنُ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَعْمَلَ عَمَلِ الْمُنَافِقِ، وَيُؤَفِّقُهُ لِعَمَلِ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، وَفِي الْآخِرَةِ: يُؤْتَمَنُ مِمَّا يُعَذَّبُ بِهِ الْمُنَافِقُ، وَيَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ غَيْرُ مُنَافِقٍ، يَعْنِي بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى، وَحَالٌ هَذَا بِخِلَافِهِمْ»^(٢).

• حسن الخلق، والتفقه في الدين:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَصَلْتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُنَافِقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ، وَلَا فِقْهُ فِي الدِّينِ»^(٣).

(١) رواه الترمذي (٢٤١)، وحسنه الألباني، وهو حديث مختلف فيه.

(٢) تحفة الأحوذبي (٤٠/٢).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٤)، وصححه الألباني.

(حسن سمت) تحري طرق الخير، والتزّي بزّي الصالحين، مع التنزه عن المعائب الظاهرة والباطنة.

(ولا فقه في الدين) عطف بـ(لا)؛ لأن (حسن سمت) في سياق النفي، فـ(لا) لتأكيد النفي المساق^(١).

• الصدقة:

عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو: فَبَايَعُ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا، أَوْ مُؤَبِّقُهَا»^(٢).

الصدقة حجة على إيمان فاعلها؛ فإن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقدها، فمن تصدق استدل بصدقته على صدق إيمانه^(٣).

• قيام الليل:

قال قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يُقَالُ: قَلَّمَا سَاهَرَ اللَّيْلَ مَنَافِقٌ»^(٤).

وذلك لأن المنافق إنما ينشط للعمل الصالح إذا رآه الناس، فإن كان خاليا لم يكن عنده الدافع للعمل الصالح. فإذا قام العبد الليل فهو دليل على عدم نفاقه، وعلى صدقه في إيمانه.

• الجهاد في سبيل الله:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ: مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»^(٥).

(١) تحفة الأحوذى (٧/ ٣٧٨).

(٢) رواه مسلم (٢٢٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٠١).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٣٣٨).

(٥) رواه مسلم (١٩١٠).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «المراد: أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف؛ فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق، وفي هذا الحديث أن من نوى فعل عبادة فمات قبل فعلها لا يتوجه عليه من الذم ما يتوجه على من مات ولم ينوها»^(١).

• كثرة ذكر الله:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إن كثرة ذكر الله عَزَّجَلَّ أمان من النفاق؛ فإن المنافقين قليلو الذكر لله عَزَّجَلَّ، قال الله عَزَّجَلَّ في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقال كعب: «من أكثر ذكر الله عَزَّجَلَّ برئ من النفاق» ولهذا - والله أعلم - ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمُ ءَأْمُولَكُمْ وَلَا ءَأَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾.

فإن في ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عَزَّجَلَّ فوقعوا في النفاق.

وسئل بعض الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عن الخوارج: منافقون هم؟ قال: «لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً».

فهذا من علامة النفاق: قلة ذكر الله عَزَّجَلَّ، وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله عَزَّجَلَّ أكرم من أن يبتي قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عَزَّجَلَّ»^(٢).

• الدعاء:

عن جبير بن نفير: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَهُوَ فِي آخِرِ صَلَاتِهِ، وَقَدْ فَرَغَ مِنَ التَّشَهُّدِ يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ النِّفَاقِ، فَأَكْثَرَ التَّعَوَّذَ مِنْهُ.

فَقَالَ جَبْرِ: وَمَا لَكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَنْتَ وَالنِّفَاقَ؟ فَقَالَ: «دَعْنَا عَنكَ، دَعْنَا عَنكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيُغْلَبُ عَنِ دِينِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ، فَيُخْلَعُ مِنْهُ»^(٣).

(١) شرح النووي على مسلم (٥٦/١٣).

(٢) الوابل الصيب (ص ١١٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣٨٢/٦) قال الذهبي: إسناده صحيح.

• حُبُّ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ»^(١).

• حُبُّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن زر قال: قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيَّ: أَنَّهُ لَا يُحِبُّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُنِي إِلَّا مُنَافِقٌ»^(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَعْنَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: أَنَّ مَنْ عَرَفَ مَرْتَبَةَ الْأَنْصَارِ، وَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي نُصْرَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالسَّعْيِ فِي إِظْهَارِهِ، وَإِيوَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَقِيَامِهِمْ فِي مُهِمَّاتِ دِينِ الْإِسْلَامِ حَقَّ الْقِيَامِ، وَحُبِّهِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحُبِّهِ إِيَّاهُمْ، وَبَذْلِهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقِتَالِهِمْ وَمُعَادَاتِهِمْ سَائِرَ النَّاسِ؛ إِثَارًا لِلْإِسْلَامِ، وَعَرَفَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُرْبَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحُبِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ، وَمَا كَانَ مِنْهُ فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ وَسَوَابِقِهِ فِيهِ، ثُمَّ أَحَبَّ الْأَنْصَارَ وَعَلِيًّا هَذَا: كَانَ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ صِحَّةِ إِيْمَانِهِ، وَصِدْقِهِ فِي إِسْلَامِهِ؛ لِسُرُورِهِ بِظُهُورِ الْإِسْلَامِ، وَالْقِيَامِ بِمَا يُرْضِي اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ كَانَ بِضِدِّ ذَلِكَ، وَاسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى نِفَاقِهِ، وَفَسَادِ سِرِّيرَتِهِ»^(٣).



(١) رواه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤).

(٢) رواه مسلم (٧٨).

(٣) شرح صحيح مسلم (٦٤/٢)

موقف المسلم من المنافقين

يجب عدم التهاون مع المنافقين، ولا يجوز التقليل من خطرهم، والمنافقون اليوم أشد خطراً منهم على عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ الْيَوْمَ شَرُّ مَنْهُمْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا يَوْمَئِذٍ يُسْرُونَ، وَالْيَوْمَ يَجْهَرُونَ»^(١).

والموقف منهم كالتالي:

عدم طاعتهم:

قال الله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِنَبِيِّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «يقول تعالى ذكره لنبية محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَتَّيِبُهَا لِنَبِيِّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ بطاعته، وأداء فرائضه وواجب حقوقه عليك، والانتهاة عن محارمه وانتهاك حدوده، ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكُفْرِينَ﴾ الذين يقولون لك: اطرده عنك أتباعك من ضعفاء المؤمنين بك حتى نجالسك، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يظهرون لك الإيمان بالله والنصيحة لك، وهم لا يألونك وأصحابك ودينك خبالاً، فلا تقبل منهم رأياً، ولا تستشرهم مستنصحاً بهم، فإنهم لك أعداء، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يقول: إن الله ذو علم بما تضره نفوسهم، وما الذي يقصدون في إظهارهم لك النصيحة، مع الذي ينظرون لك عليه، حكيم في تدبير أمرك وأمر أصحابك ودينك، وغير ذلك من تدبير جميع خلقه»^(٢).

(١) رواه البخاري (٧١١٣).

(٢) جامع البيان (٢٠/٢٠٢).

الإعراض عنهم، وزجرهم، ووعظهم:

قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

وقال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك -يا محمد- صفتهم، ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ في احتكامهم إلى الطاغوت، وتركهم الاحتكام إليك، وصدودهم عنك، من النفاق والزيغ، وإن حلفوا بالله ما أردنا إلا إحسانا وتوفيقا، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ يقول: فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم، ولكن عظمهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم، وعقوبته أن تنزل بدارهم، وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله، ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ يقول: مرهم باتقاء الله، والتصديق به وبرسوله، ووعده ووعيده^(١).

عدم المجادلة أو الدفاع عنهم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَيْمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

يعنى بذلك جل ثناؤه: ﴿وَلَا تُجَادِلْ﴾ يا محمد فتخاصم ﴿عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: يخونون أنفسهم، يجعلونها خبونة بخيانتهم ما خانوا من أموال من خانوه ماله، يقول: لا تخاصم عنهم من يطالبهم بحقوقهم، وما خانوه فيه من أموالهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَيْمًا﴾ يقول: إن الله لا يحب من كان من صفته خيانة الناس في أموالهم، وركوب الإثم في ذلك وغيره، مما حرمه الله عليه^(٢).

النهي عن موالاتهم والركون إليهم:

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِيَدَيْهِمْ دُونَكُمْ وَلَا يَأْتُواكُمْ خَبَالًا خَدُوا

(١) جامع البيان (٨/٥١٥).

(٢) جامع البيان (٩/١٩٠).

مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ [آل عمران: ١١٨].

نزلت في قوم من المسلمين، كانوا يخالطون حلفاءهم من اليهود وأهل النفاق منهم، ويصافونهم المودة بالأسباب التي كانت بينهم في جاهليتهم قبل الإسلام، فنهاهم الله عن ذلك، وأن يستنصحوهم في شيء من أمورهم^(١).

جهادهم والغلظة عليهم:

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الْتِيَّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْطَى عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

أي: بالغ في جهادهم والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم.

وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة: فيجاهد باليد، واللسان والسيوف والبيان.

ومن كان مدعنا للإسلام بذمة أو عهد: فإنه يجاهد بالحجة والبرهان، ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر^(٢).

تحقيرهم وعدم تسويدهم:

عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدًا، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْحَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّوَجَلَّ»^(٣).

عدم الصلاة عليهم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

(١) جامع البيان (٧/ ١٤٠).

(٢) تفسير السعدي (ص ٣٤٤).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٧٧)، وصححه الألباني.

عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما تُوفي عبد الله بن أبيّ جاء ابنه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصلّ عليه، واستغفر له، فأعطاه قميصه وقال: «إِذَا فَرَّغْتَ مِنْهُ فَأَذِنَّا»، فلما فرغ أذنه به، فجاء ليصليّ عليه، فجدبه عمر، فقال: أليس قد نهاك الله أن تصليّ على المنافقين؟! فقال: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. فترك الصلاة عليهم»^(١).



(١) رواه البخاري (٥٧٩٦).

الخاتمة

تبين مما سبق ذكره: خطورة النفاق، وأنه مرض عضال، وخلق ذميم، وصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتخلق به بالعدو والخيانة والكذب والفجور؛ لأن صاحبه يُظهر خلاف ما يبطن، فهو يدعي الصدق وهو يعلم أنه كاذب، ويدعي الأمانة وهو يعلم أنه خائن، ويدعي المحافظة على العهد وهو غادر به، ويرمي خصومه بالافتراءات وهو يعلم أنه فاجر فيها، فأخلاقه كلها مبنية على التدليس والخداع، ويُحشى على من كانت هذه حاله أن يُبتلى بالنفاق الأكبر، ذلك أن النفاق العملي - وإن كان من جملة الذنوب التي لا تُخرج العبد من الملة - إلا أنه إذا استحكّم بالعبد وحول سلوكه إلى حالة من الخداع والتلون المستمر، فربما بلغ به إلى معاملة ربه بما يعامل به خلقه، فينزعه من قلبه الإيمان ويبدله نفاقاً، عقوبة منه وزجراً.

نسأل الله أن يصلح قلوبنا، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرّف النفاق في اللغة والشرع.
٢. ما هي أنواع النفاق؟
٣. ما الفرق بين النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي؟
٤. للمنافقين صفات وسمات خاصة، فما هي أبرزها؟
٥. كيف يقي المسلم نفسه من النفاق؟
٦. ما هو الموقف الشرعي من المنافقين؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. ما الفرق بين النفاق الأصلي والنفاق الطارئ؟

٢. لماذا ظهر النفاق في المدينة، ولم يظهر في مكة؟
٣. قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الغناء يثبت النفاق في القلب»،
وضح ذلك.
٤. ذكر النووي أن العلماء استشكلوا حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَوْهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»، فما المعنى الصحيح للحديث؟
٥. اذكر بعضاً من أسماء السور التي تحدثت عن النفاق والمنافقين؟



مفسات القلوب



الغفلة



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الغفلة داء عظيم، إذا سيطر على أحد؛ باء بخسارة الدارين، يقول الله سُبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

فما الغفلة؟ وما الموقف الشرعي منها؟ وما أنواعها وأقسامها؟ وما أسبابها؟ وما علاجها؟

ذلك ما ستراه مسطوراً في ثنايا هذا الفصل، وأشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة وإخراجها بالصورة المرضية.

نسأل الله أن يوقظنا من غفلتنا، وأن يغفر ذنوبنا.



تعريف الغفلة

الغفلة لغة:

مصدر غفل يغفل غفلة وغفولاً.

يقول ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: «الغين والفاء واللام أصل صحيح، يدل على ترك الشيء سهواً، وربما كان عن عمد»^(١).

وقال الفيومي رَحِمَهُ اللهُ: «الغفلة: غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكره له، وقد استعمل فيمن تركه إهمالاً وإعراضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]»^(٢).

الغفلة اصطلاحاً:

فَقَدْ الشَّعُورُ بِمَا حَقَّهُ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ^(٣).

وعرفها الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ بأنها: «سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ»^(٤)، وعرفها الجرجاني بأنها: «متابعة النفس على ما تشتهيه»^(٥).



(١) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٣١١)، مادة: غفل.

(٢) المصباح المنير (٢/ ٤٤٩).

(٣) فيض القدير (١/ ٢٦٢).

(٤) المفردات في غريب القرآن (٢/ ١٥٦).

(٥) التعريفات (ص ٢٠٩).

الموقف الشرعي من الغفلة

ذم الله تعالى الغفلة، وحذر من الغافلين، وحذر نبيه أن يكون معهم ومنهم، فقال:

﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقد نهى الله عَزَّجَلَّ عن مصاحبة الغافلين، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجَهَةً، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وذم الله أقواماً لغفلتهم، فقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

والغافلون منهم كفرون، كما قال الله عَزَّجَلَّ في كتابه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٨].

والويل كل الويل لمن غفل حتى قضي الأمر وخسر، قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وقد قرأ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية حينما ذكر لأصحابه ذبح الموت، عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُ كَبِشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا

الموتُ، قال: ويُقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال فيسريئون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموتُ، قال فيؤمرُ به فيذبحُ، قال: ثم يُقال: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت «قال: ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]، وأشار بيده إلى الدنيا^(١).



(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، واللفظ لمسلم.

أنواع الغفلة

الغفلة على نوعين:

غفلة محمودة، وغفلة مذمومة.

الغفلة المحمودة:

هي الغفلة عن المعاصي والمنكرات، وعن كل ما لا يرضاه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه هي التي وَصَفَ بِهَا سُبْحَانَهُ الْعَفِيفَاتِ مِنَ النِّسَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

والمراد بالغافلات: هن اللاتي غفلن عن الفاحشة، فلا تخطر بباهن، ولا يفتنن إليها.

الغفلة المذمومة:

هي الغفلة عن الله وطاعته وذكره، وعن الدار الآخرة والحساب والجزاء، وهي الغفلة التي نريد أن نتحدث عنها.



أقسام الغفلة المذمومة

لقد صدق الله عَزَّجَلَّ عندما وصف أكثر الخلق بأنهم غافلون، فقال سبحانه: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وللغفلة المذمومة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الغفلة العارضة:

فقد تعرَّض الغفلة للصلحين من الناس في بعض الأوقات، وهؤلاء الصالحون غفلتهم سيرة سريعة، سرعان ما يتنبهون لها، ويتذكرون الجزاء والحساب، فيتوبون منها، ويترجعون عنها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

القسم الثاني: الغفلة المتكررة:

وهي الغفلة التي يعيشها العصاة والفاسقون من المسلمين حال عصيانهم، قلت معصيتهم أم كثرت. فتراهم يغفلون أحياناً، ويستيقظون أحياناً. يكونون في حالة ينسون فيها أنفسهم، ثم يتذكرون في حالةٍ أخرى. وهؤلاء لا بُدَّ من تذكيرهم في كل حين؛ حتى يلتزموا الطريق المستقيم والصراط السوي.

القسم الثالث: الغفلة التامة:

وهي الغفلة التي يعيشها الكفار، فإنهم في غفلة تامة عن الله والدار الآخرة، حتى كأنهم بهائم لا يدرون لماذا خلقوا؟ ولا لأجل أي شيء يعيشوا؟، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

بل إنهم في غفلتهم كأنهم سكارى لا يعون ما حولهم، ولا يفقهون ما يُقال لهم، قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

وهؤلاء الكفار إخراجهم من غفلتهم يكون بدعوتهم إلى دين الإسلام، ومحاولة إدخالهم في هذه الملة.



أسباب الغفلة

• السعي خلف راحة الجسم:

كثيرٌ من الناس يسعى لإراحة جسمه في غالب نهاره وليله، ولم يعلم أن الراحة التي يبحث عنها هي سبب التعب والخسران، والراحة الحقيقية إنما تكون في إتعاب النفس بالفضائل الإيمانية، والأخلاق الإسلامية.

يا خادِمَ الجِسمِ كَم تَسْعَى لِخِدمَتِهِ
أَقْبِلْ عَلَى النَّفسِ واستكْمِلْ فضائِلَها
أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ فيما فيه خُسْرانُ
فَأَنْتَ بِالرُّوحِ لا بِالجِسمِ إنسانُ^(١)

• الحرص على لذات الحياة الدنيا:

إن الحرص على المتعة واللذة من أسباب الغفلة عن الله وعن الدار الآخرة، فبسببها تضيع الواجبات، وتتركب المحرمات.

نَهَارُكَ يا مَغْرورُ سَهُوٌ وَغَفْلَةٌ
وتعمَلُ فيما سَوَفَ تَكْرَهُ غِبَّةٌ
وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدى لَكَ لا زِمٌ
كَذَلِكَ في الدُّنيا تَعِيشُ البَهائمُ^(٢)

يحرص هؤلاء على لذات الحياة الدنيا بأنواعها وأشكالها، ويعبُّ منها ما استطاع حتى يموت قلبه، ويغفل عن ذكر الله ولقائه.

• موت الشعور بالذنب:

مات الشعور بالذنب عند الكثير من الغافلين، وذهب الإحساس بالتقصير، حتى لربما يظن بعضهم أنه على خير عظيم، ثم بعد ذلك يفاجأ عند كشف الحساب وجرده.

(١) غذاء الألباب (٢/ ٢٧٠).

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٢٢٠).

أما والله لو عَرَفَ الأَنَامُ لِمَا خَلِقُوا مَا غَفَلُوا وَانَامُوا
لَقَدْ خُلِقُوا لِمَا لَو أَبْصَرْتُهُ عُيُونُ قُلُوبِهِمْ سَاحُوا وَهَامُوا
مَمَاتُ ثُمَّ قَبْرٌ ثُمَّ حَشْرٌ وَتَوَيْخٌ وَأَهْوَالٌ عِظَامٌ^(١)

• اتباع الهوى:

إن اتباع الهوى يؤدي إلى الغفلة عن الله والدار الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وقد جعل سُبْحَانَكَ وَعَالَىٰ اتباع الهوى مضاداً للحق، وعده قسيماً له، كما في قوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ومن هنا نعلم بأن الذين يتبعون هواهم إنما يسرون في طريق الغفلة عن الله والدار الآخرة، فالإنسان مطالب باجتناّب هواه؛ حتى لا يكون من أهل الغفلة.

• العمل وطلب الرزق:

لا شك أن الرجل مأمور بالعمل والتجارة؛ لإعالة نفسه وأهله ومن أمره الله بإعالتهم. ولكن الخطأ كل الخطأ: أن يتحول هذا العمل وهذه التجارة إلى سبب من أسباب الغفلة عن الله والدار الآخرة، فيصبح العمل هو همّه الشاغل، وهدفه الأوحد.

والمؤمنون - من صفاتهم - أنهم لا يغفلون عن الله بسبب تجارة أو عمل، يقول تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

• الألعاب والرياضات:

وهي سبب كبير من أسباب الغفلة، ولذا حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الانغماس في بعض

(١) المدهش لابن الجوزي (ص ١٢٢).

الألعاب التي كانت موجودة في عصره، ويبيّن أنها سبب للغفلة، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُنَّ»^(١).

قال الحافظ ابن حجر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هو محمول على من واطب على ذلك، حتى يشغله عن غيره من المصالح الدينية وغيرها»^(٢).

فمن اشتغل بهذه الرياضة، وأصبحت همه الشاغل؛ فإن قلبه سيغفل، وسينسى الصلاة، وذكر الله، والطاعة، ولزوم الجماعة، ونحو ذلك.

فإذا كان اتباع الصيد يؤدي إلى الغفلة، مع أن الصيد فيه ما فيه من الفوائد البدنية؛ التي تبني الجسم وتقويه وتعينه على جهاد الأعداء؛ فما القول في الألعاب الإلكترونية؟!

إن الألعاب الإلكترونية في عصرنا من أكبر أسباب الغفلة؛ لأنها من أكبر الملهيّات، وما تمّ اختراعه من أنواع الألعاب كفيّل بأن يجعل القلب يعيش في غفلة زمنية طويلة.

بسبب هذه الألعاب الإلكترونية تضيع الأوقات بالساعات، ويهدر العمر إهداراً عظيماً. والشركات المنتجة لها تتنافس فيما بينها لتحتل ألعابها رفوف الأسواق، فما هي طبيعة هذه الألعاب؟! وما هي الأوقات التي تستغرقها من عمر أبنائنا وشبابنا؟!

إن الألعاب الإلكترونية الجديدة لم تعد تنتهي في ساعة أو ساعتين، بل ولا في يوم أو يومين، فبعضها يستغرق أكثر من أسبوع، وبعضها يستغرق أكثر من شهر.

والوصول إلى نهاية اللعبة لا يتحقق من ممارسة اللعبة مرة أو مرتين، بل لا بد للاعب من المواظبة الدائمة والمستمرة على اللعبة حتى يصل إلى نهايتها.

وبوصول اللاعب إلى نهاية اللعبة، يعرض صانعوها الجزء الثاني منها في الأسواق، ثم الثالث وهكذا.. كلما انتهى من جزءٍ لحقه الجزء الآخر، وكلما انتهى من لعبةٍ وجد لعبةً أخرى.

(١) رواه أبو داود (٢٨٥٩) وصححه الألباني.

(٢) فتح الباري (٩/٦٦٢).

وبسبب انهماك الناس في هذه الألعاب استغلَّت بعض القنوات الفضائية هذا الأمر، فأصبحت هناك قنوات خاصة بالألعاب الإلكترونية، تُعرض آخر الألعاب، وكيفية اللعب بها.

والسؤال المطروح: ما الذي استفاده أبناؤنا من هذه الألعاب؟

إن أبناءنا لم يستفيدوا شيئاً من هذه الألعاب سوى حرق أعصابهم، وإتلاف أصابعهم، وإضعاف أبصارهم، وشلل تفكيرهم، بالإضافة إلى العفلة الناتجة عن الجلوس أمام الشاشة لأوقات طويلة جداً.

ويا ليت الأمر اقتصر على هذا، بل إن هذه الألعاب تزرع محبة الشرك وأهله في قلوب أبنائنا.

أرادت إحدى الأمهات أن تمنع ولدها الصغير من اللعب بلعبة من هذه الألعاب الإلكترونية، فإذا بالولد يصيح ويقول: «اتركيني ألعب، ولن أدخل إلى الكنيسة مرة أخرى»!.

فوجئت الأم بهذا الكلام! فما علاقة الكنيسة باللعبة؟!

وكانت رمية من غير رامٍ؛ فلقد اكتشفت أن اللاعب في اللعبة إذا حصل له ضعفٌ أو نزل مستوى من المستويات فإنه يدخل في الكنيسة؛ ليقوي نفسه، وترجع له عافيته، فيستطيع مواصلة اللعب!.

فهل سنستهين بعد هذا كله بما فعلته هذه الألعاب بأبنائنا؟

كم أضاعت هذه الألعاب من الصلوات المتتالية عليهم؟!

وكم أذهبت من الأعمار والأوقات بغير ذكر لله، أو انشغال بطاعته؟!

ألم تشغل هذه الألعاب أبناؤنا عن حفظ القرآن؟!

ألم تشغلهم عن بر الوالدين؟!

بل إنها قد شغلتهم عن تناول الوجبات اليومية اللازمة لنموهم وسلامة صحتهم!!.

• الترفيه والتنعم:

لقد أصبح الترفيه والرفاهية في عصرنا هذا صناعة من الصناعات، وبسببه عاش الناس في غفلة عظيمة.

ذلك الترفيه المشتمل على السفر السياحي، والمطاعم الكبيرة، والبوفيهات المفتوحة، وتنوع الأطعمة، التي أصبح الناس يستهلكون أوقاتهم في تحضيرها وأكلها.

وانظر إلى الأسواق لترى مدى انشغال الناس في التحضير لوجباتهم اليومية، وذلك بشراء مستلزمات تلك الوجبات.

• الركون إلى الدنيا:

لاشك أن من أسباب الغفلة: حب الدنيا، والركون إليها؛ لأنها تؤدي إلى ترك محاسبة النفس، وتطيل أمل الإنسان، وتمنيه بالأمانى الزائفة، وتجعله مُسوّفاً في التوبة.

ولو أنه أخرج حب الدنيا من قلبه؛ لما غفل عن الله والدار الآخرة، وكَعَلِمَ أن الدنيا دار ممرّ لا دار مقرّ، ولما استرسل في شهواته وملذاته.

• مخالطة أهل الغفلة:

مخالطة البطالين من أعظم أسباب الغفلة، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

[الحشر: ١٩].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «والحرمان كل الحرمان: أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فُرُطًا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنا، لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه،

فهل يستوي مَنْ حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومَنْ غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة؟ فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون»^(١).

• كثرة المباحات:

وتحصل العفلة بكثرة الانشغال بالمباحات، لأنها تقسي القلب.

وتأمل في حال الناس اليوم، ترى أن انهماكهم في المباحات جعلهم يغفلون عن الله والدار الآخرة.

فما الذي سيحدث للشخص عندما يغيب في عمله طول النهار، ثم يخرج إلى وجبة الغذاء، ثم يتبع ذلك بالنوم، فإذا استيقظ خرج إلى استراحته، أو إلى النزهة مع أصدقائه أو أهله، حتى ينتهي يومه وهو متنقل بين هذه الأمور المباحة؟

فأي عيشة هذه؟! وماذا يُرجى من الخير لمن كان هذا برنامجه اليومي؟!!



(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٥٣).

نماذج مما يغفل عنه الناس

كثُر الغافلون من الناس في عصورنا المتأخرة، وكثُرَت الأمور التي يغفل عنها الناس، وحقُّ على المؤمن أن يُدَكِّرَ أخاه المؤمن بهذه الأمور، لعله يتذكر، ويستفيد من هذه الموعظة.

ومن الأمور التي يغفل عنها الناس:

• الغفلة عن تعلم دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

الجهل بدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سبب لارتكاب الذنوب، والذنوب تقسي القلوب، ومن ثمَّ يصاب العبد بالغفلة عن الله والدار الآخرة.

فكيف يخاف الحساب من يجهل وجود الصراط والميزان!؟

وكيف يخاف سوء الخاتمة من لا يعلم بأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء!!

وهذا الجهل هو الذي يؤدي إلى التفرق بين أهل الإسلام، ويسبب العيش في عمى وضلال، وربما أدى إلى ارتكاب الذنوب في حق الأبرياء.

روى القاضي أبو بكر ابن العربي المالكي رَحِمَهُ اللهُ حكاية تدل على ما يمكن أن يصل إليه الجهل بأصحابه، فقال:

زار الشيخ الطرطوشي أحد فقهاء عصره من أهل المشرق (الأندلس)، ودخل يصلي في مسجد أحد الثغور، وكان ابن العربي في ذلك المسجد، فصلى الشيخ الطرطوشي النافلة، وكان يرفع يديه مع تكبيرة الركوع، وعند الرفع منه، فلما فعل الشيخ الطرطوشي -وهو ممن يتبع السنة- هذا الأمر، وهو مخالفٌ للمشهور من المذهب، استنكر هذا الرفع رئيس

البحر- وكان بجانب ابن العربي ينتظر الصلاة- فأمر بعض جنوده أن يقوم إلى الشيخ الطروشى فيقتله ويرميه في البحر!!.

قال ابن العربي: فطار قلبي من بين جوارحي، وقلت: سبحان الله! هذا الطروشى فقيه الوقت!

فقالوا لي: ولم يرفع يديه؟!

فأخبرهم أن تلك سنة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي رواية عند المالكية، لكن ليست هي الرواية المشهورة في المذهب، وما زال بهم حتى سكنوا^(١).

فتأمل! كيف يمكن أن يصل الجهل بأهل الغفلة إلى أن يستبيحوا دم مسلم!! مع أنه على حق وسنة، كل هذا بسبب الجهل بدين الله تعالى.

• الغفلة عن كتاب الله تعالى:

فيغفلون عن تعلمه، وتعليمه، وحفظه، مع أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَغَّب في ذلك كله.

فالماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة.

وحافظ القرآن تُرفع درجاته يوم القيامة بحسب حفظه.

والقرآن يأتي يوم القيامة شفيحاً لأصحابه، كما أن قارئ القرآن يشفع لأهله.

وغير ذلك من الكرامات التي تنال حافظ القرآن، ومعلمه، ولكن الناس عنها غافلون.

• الغفلة عن ذكر الله تعالى:

وهو الزاد الذي يتزود به المتقون، ويتوجه إليه الصالحون.

هو قوت القلوب، وعمار الديار، به تُستدفع الآفات، وتُستكشف الكربات، وأهله

يتقلبون في رياض الجنات.

الذكر عبودية القلب واللسان، وزينة العابدين، وباب الله الأعظم، المفتوح بينه وبين عباده.

(١) تفسير القرطبي (٢٨١/١٩)، الاعتصام للشاطبي (٢٩٦/١) بتصرف.

وكم من الناس يغفل عن الأذكار المطلقة والمقيدة.

فيأتي الصباح ولا يذكر أحدنا أذكاره، وينتهي المساء ولا يذكر أذكاره.

يدخل المسجد ويخرج منه، ولا يقول شيئاً.

ويدخل بيته ويخرج منه، ولا تتحرك شفتاه بشيء من ذكر الله تعالى.

يسمع نهيق الحمير، وصياح الديكة، ولا يذكر شيئاً من الأذكار المخصصة عند سماع

هذه الأصوات ألبتة.

فمن كانت هذه حاله، كيف سيذكر الله إذا حضرت الشهوات المباحة، كشهوة الطعام

وشهوة النكاح؟

ومن غفل عن الذكر في مواضع العبادة، فأحرى به أن يغفل عنه في مواضع شهواته.

• الغفلة عن الأذكار التي تحمي الإنسان:

ينبّه الله عزّ وجلّ هؤلاء الغافلين عن الأذكار أحياناً بما يصيبهم من المصائب، فيتذكرون هذه

الأذكار، حتى يقول بعضهم: يا ليتني ذكرت هذه الأذكار!.

عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمِ السُّلَمِيَّةِ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِذَا نَزَلَ

أَحَدُكُمْ مَنْزِلاً، فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى

يَرْتَحِلَ مِنْهُ»^(١).

قال أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي رحمه الله: «هذا خبر صحيح، وقول صادق، علمنا

صدقه دليلاً وتجربةً، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت به، فلم يضرني شيء إلى أن تركته،

فلدغمتني عقرب بالمهدية ليلاً، فتفكرت في نفسي، فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات»^(٢).

وقد سمعت قصة من بعض الناس من أهل المدينة النبوية، مفادها: أنه قال هذا الذكر

في مكان قبل ذهابه إلى بلده بنحو من ٧٠ كيلو متراً، فلما وصل إلى بلده وأنزل الغطاء عن

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) المفهم (٣٦/٧).

رأسه، قال له ولده: ما هذا الشيء الأسود على رأسك يا أبت؟ فنفض رأسه، فإذا هو عقرب قد حمله من مسافة ٧٠ كيلو مترا، قال: فرجوت أن الله حفظني بهذا الذكر الذي قتلته عندما حلّ المساء، في ذلك المكان الذي كنت فيه.

• الغفلة عن إعمال النية:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى»^(١).

فالناس قد ينسون نية القيام بالواجب، ولربما أبطل ذلك العمل؛ لأن بعض الأعمال تفتقر في صحتها إلى النية.

وربما غفل الناس عن نية احتساب الأجر، فضيعت هذه الغفلة عليهم أجورا كثيرة، فإن النية إذا استحضرها العبد في المباحات صارت من محاسن القربات.

فلو احتسب الإنسان الأجر عند شراء أغراض المنزل لنال الأجر العظيم.

وكذلك حينما ينفق على أهله النفقة الواجبة أو غير الواجبة.

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُ نَفَقَةً عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا؛ كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً»^(٢).

وربما داعب الإنسان أخاه أو صاحبه مداعبة مباحة، فهي إما أن تكون له إذا نوى بها إدخال السرور على أخيه المسلم، وإما أن تكون لاله ولا عليه إذا لم ينو بها شيئا.

بل إن ملاعبة الرجل امرأته يتحصل بها على الأجر إذا نوى النية الصالحة، وما أكثر ما نغفل عن هذه النية!، عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»^(٣).

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) رواه البخاري (٥٥)، ومسلم (٥٣٥١).

(٣) رواه مسلم (١٠٠٦).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ، فَالْجَمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا نَوَى بِهِ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ، أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ، أَوْ إِعْفَافَ نَفْسِهِ، أَوْ إِعْفَافَ الزَّوْجَةِ، وَمَنْعَهَا جَمِيعاً مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ، أَوْ الْفِكْرِ فِيهِ، أَوْ اِهْتِمُّ بِهِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ»^(١).

فربَّ عمل صغير تعظمه النية، وربَّ عمل كبير تصغره النية، كما قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ^(٢).

وعن أبي بردة رَحِمَهُ اللهُ عَنهُ قَالَ: «بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا مُوسَى وَمُعَاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إِلَى الْيَمَنِ... فَقَالَ مُعَاذٌ لِأَبِي مُوسَى: كَيْفَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: قَائِماً وَقَاعِداً وَعَلَى رَاحِلَتِي، وَأَتَفَوَّهُ تَفَوُّفاً، قَالَ: أَمَا أَنَا فَأَنَا مُمْ وَأَقَوْمٌ، فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي»^(٣).

وقوله: «فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»:

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَطْلُبُ الثَّوَابَ فِي الرَّاحَةِ كَمَا يَطْلُبُهُ فِي التَّعَبِ؛ لِأَنَّ الرَّاحَةَ إِذَا قُصِدَتْ بِهَا الْإِعَانَةُ عَلَى الْعِبَادَةِ حَصَلَتِ الثَّوَابُ»^(٤).

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «مَعْنَاهُ: أَنِّي أَنَا مُ بِنِيَّةِ الْقُوَّةِ، وَإِجْمَاعِ النَّفْسِ لِلْعِبَادَةِ، وَتَنْشِيطِهَا لِلطَّاعَةِ، فَأَرْجُو فِي ذَلِكَ الْأَجْرَ، كَمَا أَرْجُو فِي قَوْمَتِي، أَيِ صَلَوَاتِي»^(٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ حاكياً حال من كان همه الله والدار الآخرة، فلا يتقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاة ربه: «وإن كان من الأفعال العادية الطبيعية، قلبه عبادة بالنية، وقصد الاستعانة به على مرضاة الرب.

وبالجملة: فيقف عند أول الداعي إلى فعله، فيفتش ويستخرج منه منفداً ومسلكاً يسلك به، فينقلب في حقه عبادة وقربة»^(٦).

(١) شرح النووي (٧/٩٢).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ١٣).

(٣) رواه البخاري (٤٣٤٥).

(٤) فتح الباري (٨/٦٢).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٢/٢٠٩).

(٦) طريق المهجرتين (ص ٣٣٢).

وختلاصة القول:

أن الإنسان يقوم بأعمال كثيرة في اليوم الواحد، يذهب إلى وظيفته، يأكل، يشرب، ينام، يمزح، يتحدث، يبيع، يشتري، يستأجر، كل هذه الأمور لا يخطر على بال أهل العفلة أن ينووا بها النية الصالحة عند قيامهم بها، أما أهل العبادة: فإنهم يقفون عند كل عمل، ويفتشون في قلوبهم عن النية الصالحة التي تُصَحِّح لهم عملهم، وتقلب العمل العادي إلى عبادة.

• ومن العفلة ما يكون عن ترتيب الأعمال، وتنزيلها منازلها:

إن العبادات الشرعية متفاوتة الأجر والثواب بعدة اعتبارات، فمنها ما هو أفضل مطلقاً، ومنها ما هو أفضل بحسب الزمان، ومنها ما هو أفضل بحسب المكان، وهكذا.

فقراءة القرآن من الأعمال الفاضلة مطلقاً، ولكن عند دخول المسجد يقدم دعاء دخول المسجد على قراءة القرآن، وكذلك عند الخروج من المسجد، وكذلك تقدم أذكار الصباح والمساء على القرآن في أوقاتها، وهكذا.

كان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يكاد أن يصوم، ويقول: «إني إذا صمت ضعفت عن الصلاة، والصلاة أحب إليّ من الصيام» فإن صام صام ثلاثاً من الشهر^(١).

والأعمال متعددة النفع، أفضل من الأعمال قاصرة النفع على وجه العموم.

فتعليم العلم النافع خير من التنفل بالصلاة أو الصيام، إن كانا يشغلانه عن التعليم والتدريس.

وقلّ من يتنبه لهذا التفاضل، فيستغل إبليس هذا الأمر، وينتصر على ابن آدم من جهة إشغاله بالعمل المفضول عن العمل الفاضل، فإن الشيطان ربما أمر بسبعين باباً من أبواب الخير؛ ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، أو ليفوّت خيراً عظيماً أعظم من تلك السبعين وأجلّ، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ^(٢).

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨٨٦٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠٤ / ٢): «رجال رجال الصحيح».

(٢) بدائع الفوائد (٤٨٥ / ٢) بتصرف يسير.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «وإن من تفضيل بعض العلماء: إثارة للتنقل بالصلاة والصوم عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع؛ لأن ذلك بذر يكثر ريعه، ويمتد زمان نفعه»^(١).

توقف ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عن درسه فجأة ذات ليلة، وهو يلقيه كعادته بعد صلاة المغرب، فأطرق الطلاب برؤوسهم، ثم قال: «وجدت بقعة من الطلاء (الدهان) على يدي، وقد توضأت، ولم أتبه لها، ثم صليت، ثم جلست للدرس، فاكتشفتها الآن».

فاستأذن الطلبة، وقام، وأزال الطلاء، ثم توضأ وأعاد صلاة المغرب فقط، ولم يتنفل بعدها، ورجع للدرس وأكمله، فسأله أحد الطلاب عن سبب عدم إعادته النافلة أيضاً، فقال: «العلم أولى بالمرعاة (لأن نفعه متعدّد)، والطلاب قد اجتمعوا، والوقت يمضي، وهذا وقت الدرس، أما النافلة: فنفعها قاصر على صاحبها».

ولو أمكن الجمع بينهما لجمع، ولكنه رأى أن الدرس أولى من التنفل.

وغفلة الناس ليست مقتصرة على هذه الأمور فقط.

بل هناك الغفلة عن تصحيح النية، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن دعوة الناس وتربيتهم، وعن النوافل المختلفة، كصلاة الضحى، والسنن الرواتب، والوتر، وعن الجلوس في المسجد بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وعن حضور الدروس العلمية والوعظية.

إلى غير ذلك من العبادات التي غفل عنها أكثر الناس.



(١) صيد الخاطر (ص ٤٢).

عقوبات الغفلة

عقوبات الغفلة كثيرة جداً، منها:

• استحقاق العذاب في الدنيا:

قال الله سبحانه تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى اذْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَلِّغُوهُ إِذَا هُم يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٦]، فأغرقهم الله بغفلتهم عن آياته.

• الصرف عن تدبر آيات الله، وفهمها، والانتفاع بها:

وهذه عقوبة خطيرة جداً، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦]، أي: لا أتركهم يتدبرونها، ولا يعتبرون بها، وتمر عليهم مروراً دون أن يستفيدوا منها. قال البيضاوي رحمه الله: «أي: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم، وعدم تدبرهم للآيات»^(١).

وهذه عقوبة بليغة، لكن أهل الغفلة لا يشعرون بها.

والله يجازي أهل الغفلة بغفلة أعظم، جزاء وفاقاً، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:

٥]، استحبوا العمى؛ فأعماهم الله عن الحق.

(١) تفسير البيضاوي (١/٣٦٠).

• الحرمان من رحمة الله عزَّجَل:

عن يُسَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - وكانت من المهاجرات - قالت: قال لنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِالتَّسْبِيحِ، وَالتَّهْلِيلِ، وَالتَّقْدِيسِ، وَاعْقُدْنَ بِالْأَنَامِلِ^(١)؛ فَإِنَّهُنَّ مَسْرُوَلَاتٍ مُسْتَنْطَقَاتٍ^(٢)، وَلَا تَغْفُلْنَ؛ فَتَنْسِينَ الرَّحْمَةَ»^(٣).

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ: «أَي: لَا تَتْرُكْنَ الذِّكْرَ، فَإِنَّكَ لَوْ تَرَكْتِ الذِّكْرَ لَحَرِمْتِ ثَوَابَهُ، فَكَأَنَّكَ تَرَكْتِ الرَّحْمَةَ»^(٤).

• رد الدعاء وعدم استجابته:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِفُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلَبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»^(٥).

فليكن يقينك بالله كبيراً حال دعائك، ولا تكن كأصحاب القلوب الغافلة، الذين يرفعون أيديهم بالدعاء، ثم لا يدرون ماذا قالوا، وبماذا دعوا!
أو كمن يؤمن خلف الإمام، وهو لا يفقه شيئاً من دعائه!
فكيف يقبل دعاء من هذا حاله!؟

• تسليط الشياطين على الغافل:

إذا دخل الرجل بيته، وغفل عن ذكر الله؛ فإن الشيطان يُسَلِّطُ عليه، ويدخل بيته، ويبيت معه.

(١) الأَنْمَلَةُ بتثنية الميم والهمزة تسع لغات: التي فيها الظُّفْرُ، والجمع: أَنْامِلٌ وَأَنْمَلَاتٌ. القاموس المحيط - فصل النون - (ص ١٠٦٥).

أي: اعقدن التسبيح بالأنامل، فعند كل تسبيحة أطبق الأصبع على الكف، واجعل الأنملة في باطن الكف، فتصبح عقدة.

(٢) مستنطقات: «بفتح الطاء، أي متكلمات، بخلق النطق فيها، فيشهدن لصاحبهن - أو عليه - بها اكتسبه». عون المعبود (٢٥٨/٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٨٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٤) مرقة المفاتيح (١٦٠٦/٤).

(٥) رواه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

وإذا أكل طعامه وغفل عن ذكر الله؛ أكل معه الشيطان. فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ. وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْعَشَاءَ»^(١).

• تتابع الغفلات:

فإن الغفلة تجر أختها، والثانية تجر الثالثة، وهكذا، حتى يقع الإنسان في مستنقع الشهوات، ولا يستطيع الخروج منه، ما لم يتداركه الله برحمته منه وفضل. وكم من صاحب معاصٍ وفسوق كانت بدايته بغفلة لم يقاومها، ولم يتب منها!

• سوء الخاتمة:

إن الغفلة تؤدي إلى الموت على ما يكرهه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا له أمثلة كثيرة، وقصص متنوعة واقعية، لأناس غفلوا عن ذكر الله، فكانت نهاياتهم شقية، وخاتمتهم سيئة في هذه الدنيا، وهذا من أعظم آفات الغفلة.

• الحسرة في الآخرة:

من أساء يوم القيامة: يوم الحسرة؛ وذلك لتحسر أهل الغفلة فيه، وندمهم على ترك الصالحات، ولكن هيهات هيهات أن ينفع الندم في ذلك الوقت.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَرَةً، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لَا يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَرَةً»^(٢). والترة: الحسرة والندامة.

• وأشد العقوبات التي تقع على أهل الغفلة: دخول النار:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

(١) رواه مسلم (٢٠١٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٥٦)، وصححه الألباني.

وقال جَلَّ شأنه: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَأِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُدْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فهؤلاء الغافلون قست قلوبهم عن الاعتبار والاتعاظ والتدبر والتفكير، وعميت بصائرهم عن إدراك الحق، وصمّت آذانهم عن سماع الحق، ولذلك كانوا كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون.

وسيقال لكل غافل في موقف الحساب يوم القيامة: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، أي: لقد كنت في غشاوة، لا ترى ما بعد الموت، ولا تحسب له حساباً، ولا تنهياً له، ولا تفكر فيه، فكشفنا عنك الغطاء بقبض روحك، ورأيت الأحوال وعابنتها، فمن شدة الخوف بصرك لا يزيغ يمنة ولا يسرة، بل هو مثبت مكانه من الهول.

إن عاقبة الغفلة ليست هيئة أبداً، بل إنها قد تعود على صاحبها بخسارة الدارين، نسأل الله السلامة والعافية.



علاج الغفلة

إن قال قائل: ما علاج الغفلة، وكيف ننجو منها؟ فنقول:

علاج الغفلة يكون بأمر عدة:

• بالذكر:

قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

إن الذكر له مفعول قوي في مواجهة الغفلة، وهو من أكبر الأسباب المخرجة للمسلم عن حيز الغفلة، وعلى قدر غفلة العبد عن الذكر يكون بعده عن الله، وعلى قدر إقباله على الذكر وانشغاله به تكون حياة قلبه وزوال غفلته.

• بالدعاء:

فالدعاء بزوال الغفلة يعين على التغلب عليها، خاصة إذا استعاذ الإنسان بالأدعية الصحيحة الواردة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الشأن.

عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَالْقَسْوَةِ، وَالْغَفْلَةِ، وَالذَّلَّةِ، وَالْمَسْكَنَةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْكَفْرِ، وَالشَّرِكِ، وَالنَّفَاقِ، وَالسُّمْعَةِ، وَالرِّيَاءِ...»^(١).

(١) رواه ابن حبان (١٠٢٣) والحاكم (١٩٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٥).

• بقيام الليل:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطِرِينَ»^(١).

• بزيارة القبور:

فزيارة القبور مما يزيل الغفلة، ويذهب الغشاوة عن الغافلين.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: نهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن زيارة القبور، ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك: «أَلَا إِنِّي قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثٍ، ثُمَّ بَدَأَ لِي فِيهِنَّ: نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنَّهَا تُرْقِي الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتَذَكِّرُ الْآخِرَةَ، فَزُورُوهَا...»^(٢).

وكان من وصية الشيخ عبد العزيز بن باز لبعض من سأله عن الغافلين: أن يصطحبهم لزيارة القبور، وعدَّ ذلك من التعاون على البر والتقوى.

• بتدبر حال الدنيا:

لأن من تدبر حال الدنيا وجد أن مسراتها يشوبها الكدر، ولذاتها منغصة.

بينما الإنسان في عز ودعة وهناء إذا بالبؤس يهجم عليه، وإذا بالشقاء يحل بساحته، فيصبح فقيراً بعد غنى، ذليلاً بعد عز.

وقد يأتيه الموت، فيخرج من الدنيا محمولاً على الأعناق، ثم يوسد التراب، ويترك لمصيره.

فما عيبت الدنيا بأكثر من فئاتها، وتقلب أحوالها، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتبدل صحتها بالسقم، ووجودها بالعدم، وشبيبتها بالهرم، ونعيمها بالبؤس، وحياتها بالموت، وعمارتها بالخراب، واجتماعها بالفراق.

(١) رواه أبو داود (١٣٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٣٩).

(٢) رواه أحمد (١٣٠٧٥) وصححه محققو المسند.

قالت هند بنت النعمان: «لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس، وأشدهم ملكاً، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس».

وسألها رجل أن تحده عن أمرها فقالت: «أصبحنا ذا صباح وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا»^(١).

فانظر كيف كان حالهم في الصباح!! وإلى ماذا صار في المساء!! إنها عبرة وعظة، فهل من معتبر؟

ودخلت عبادة أم جعفر البرمكي على أناس في يوم عيد أضحى، تستمنحهم جلد كبش تستدفع به، فسألوها عما كانت فيه من النعمة، فقالت: «لقد أصبحت في مثل هذا اليوم وإن على رأسي أربعمئة وصيفة، وأقول: إن ابني جعفر عاق لي»^(٢).

كان هذا حالها في أحد الأعياد! ثم أصبحت في يوم عيد تطلب الناس جلدًا تستدفع به. وقال بعض الصالحين: «مررت بدار من دور الكوفة غداة، فسمعت جارية تنادي من داخل الدار:

أَلَا يَا دَارُ لَا يَدْخُلُكَ حُزْنٌ وَلَا يَذْهَبُ بِسَاكِنِكَ الزَّمَانُ

ثم مررت بعد ذلك بالدار، فإذا الباب وقد علته كآبة ووحشة، فقلت: ما شأنهم؟ قالوا: مات سيدهم، مات رب الدار.

فوقفت على باب الدار، فقرعته، وقلت: إني سمعت من ههنا صوت جارية تقول:

أَلَا يَا دَارُ لَا يَدْخُلُكَ حُزْنٌ وَلَا يَذْهَبُ بِسَاكِنِكَ الزَّمَانُ

فبكت امرأة من الدار وقالت: يا عبد الله، إن الله تعالى يُعَيِّرُ وَلَا يُعَيَّرُ، والموت غاية كل مخلوق. فرجعت - والله - من عندهم باكيًا»^(٣).

(١) زاد المعاد (٤/١٧٣).

(٢) البداية والنهاية (١٠/٢١٣).

(٣) الاعتبار لابن أبي الدنيا (ص ٣٥).

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وفدني أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عشرة من العرب إلى اليمن، فبينما نحن ذات يوم نسير إذ مررنا إلى جانب قرية أعجبنا عمارتها، فقال بعض أصحابنا: لو ملنا إليها. فدخلنا، فإذا هي قرية من أحسن ما رأيت، وإذا قصر أبيض بفناءه شيب وشبان، وإذا جارية بيدها دف تضربه وتقول:

مَعَشَرَ الْحَسَادِ مَوْتُوْا كَمَدَا كَذَا نَكُونُ مَا بَقِينَا أَبَدَا

وإذا غدير من ماء، وإذا سرج ممدود، كثير المواشي والإبل والبقر والخيل والأفلاء، وإذا قصور مستديرة، فقلت لأصحابنا: لو وضعنا رحالنا، فبينما نضع رحالنا إذ أقبل قوم من قِبَلِ القصر الأبيض، على أعناقهم البُسْطُ، فسطوا لنا، ثم مالوا علينا بأطياب الطعام وألوان الأشربة، فاسترحنا وأرحنا، ثم نهضنا للرحلة، فأقبل القوم وقالوا: إن سيد هذه القرية يقرؤكم السلام، ويقول: اعذروني على تقصير إن كان مني، فإني مشغول بعرس لنا، فدعونا لهم، فعمدوا إلى ما بقي من ذلك الطعام، فملؤوا منه سفرنا، فقضيت سفري ورجعت.

فغربت برهة من الدهر، ثم وفدني معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عشرة من العرب، ليس معي أحد ممن كان في الوفد، فبينما أحدثهم بحديث القرية وأهلها إذ قال رجل منهم: أليس هذا الطريق الآخذ إليها؟ فانتهينا إليها، فإذا هي دكادك وتُلُول، وأما القصور: فخراب ما يبين منها إلا الرسوم، وأما الغدير: فليس فيه قطرة من الماء، وأما السرج: فقد عفا ودثر أمره.

فبينما نحن وقوف متعجبون إذ لاح لنا شخص من ناحية القصر الأبيض، فقلت لبعض الغلمان: انطلق حتى نستبرئ ذلك الشخص، فعاد مرعوباً، فقلت له: ما وراءك؟ فقال: أتيت ذلك الشخص، فإذا عجوز عمياء، فراعتني.

فلما سَمِعَتْ حسي قالت: أسألك بالذي بَلَغَكَ سالماً إلا أخذت على عينك، ورحت حتى دخلت في التل، ثم قالت: سل عما بدا لك.

قلت: ما فعل أبوك وقومك؟ قالت: ماتوا، وبقيت بعدهم.

قلت: هل تذكرين زماناً كان لكم فيه عرس، وإذا جارية بيدها دف تضرب به وتقول:

مَعَشَرَ الْحَسَادِ مَوْتُوْا كَمَدَا كَذَا نَكُونُ مَا بَقِينَا أَبَدَا

فشهقت، واستعبرت، وقالت: والله إني لأذكر ذلك العام والشهر واليوم والعرس، كانت أختي، وأنا صاحبة الدف!

فلم تزل تحدثنا حتى مالت، فنزعت نزحاً يسيراً، وماتت^(١).

إن حب الدنيا هو الذي عمّر النار بأهلها، والزهد فيها هو الذي عمّر الجنة بأهلها.

الدنيا خمر الشيطان، مَنْ سكر منها لا يفيق إلا في عسكر الموتى، نادماً بين الخاسرين.

ما أصبح أحد في الدنيا إلا ضعيف، ومأله عارية، فالضعيف مرتحل، والعارية مؤداة.

حب الدنيا رأس الخطايا؛ لأن حبها يقتضي تعظيمها، وهي حقيرة عند الله، والله لعنها ومقتها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرُ اللهِ، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ، أَوْ مُتَعَلِّمٌ»^(٢)، ومحبتها تضر بالآخرة.

الدنيا والآخرة ضربتان، إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، ولا بُدَّ.

محبة الدنيا تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه بالنفع في الآخرة، ولذلك فإن من الغفلة الشديدة أن يتعب الإنسان في تحصيل الدنيا، وينبني للخراب، وهو يعرف أن المصير سيكون الفناء والزوال، يقول يونس بن عبد الأعلى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما شبّهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يجب وما يكره، فبينما هو كذلك إذ انتبه»^(٣). وهذا الانتباه هو الموت.

فليحذر العبد هذه الدنيا الغرارة الخداعة، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً، ولم يضرب لها مثلاً؛ لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد بيّن لنا بأنها لا تزن عنده جناح بعوضة، أفيظن المغرور أن هذه الدنيا للبقاء؟!

• بذكر الجنة والنار:

فالجنة دار لا يموت سكّانها، ولا يخرب بنيانها، ولا يهرم شبابها، ولا يتغير حسنها وإحسانها.

(١) الاعتبار لابن أبي الدنيا (ص ٤٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه الألباني.

(٣) عدة الصابرين (ص ١٩٠).

هوأؤها النسيم، وشرابها مزاجه من تسنيم.

يتقلب أهلها في رحمة أرحم الراحمين، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه في كل حين، دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحتيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم: أن الحمد لله رب العالمين.

في نعيم الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

هذه الجنة أعدها الله تعالى لأهل طاعته، متكئين على سرر مصفوفة، ويسقون من رحيق مختوم، تعرف في وجوههم نضرة النعيم.

ماذا يشربون؟

يشربون من ماء وخمر ولبن وعسل. خمرهم لا كخمر الدنيا، بيضاء لذة للشاربين.

بأي شيء محفوفون؟

بالغلمان والولدان المخلدون.

من أزواجهم؟

الخور العين، كأنهن الياقوت والمرجان، ولم يطمثن إنس قبلهم ولا جان، أمينات من الهرم، مقصورات في الخيام.

من الذي يدخل عليهم؟

الملائكة، يدخلون عليهم طيبين من كل باب، فيسلمون عليهم.

وكيف يُقدَّر قدر دار خلقها الله بيده، وجعلها مقراً لأحبابه، وملاًها من رحمته وكرامته،

ووصف نعيمها بالفوز العظيم، ومُلكها بالملك الكبير، وطهرها من كل عيب؟!!

إن سألت عن أرضها فهو المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن،

وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجواهر، وإن سألت عن بنيانها فلبنة من فضة ولبنة

من ذهب، وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة، وإن

سألت عن ثمارها فهي ألين من الزبد وأحلى من العسل، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما

يكون من رقائق الخلل، وهكذا أنهارها لم تتغير، ونساؤها مطهرات.

جمع الله تعالى لأهلها بين نعيم البدن ونعيم النفس، فنفوسهم منعمة، وأبدانهم منعمة، وهم في هذا النعيم المقيم لا يشيبون، ولا يهرمون.

فالتأمل في نعيم الجنة يطرد الغفلة.

وكذلك تأمل ما أعد الله من العذاب والنكال لأهل النار يطرد الغفلة.

فالصخرة العظيمة تلقى من شفير جهنم تهوي فيها سبعين خريفاً!

وليتأمل العبد حال أهل النار الذين شددت أقدامهم إلى النواصي، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها، ويصيحون في نواحيها: يا مالك قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود.

فيقال لهم: هيهات هيهات، لا خروج لكم من دار الهوان، فاحسؤوا فيها ولا تكلمون.

فعند ذلك يقنطون، وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون، لا ينجيهم الندم، ولا يغنيهم الأسف، بل يكبهم في النار، فيهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور يُصب من فوق رؤوسهم الحميم، يُصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد.

تنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الحدود أحداقهم، وتسقط من الوجنات لحومها، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون.

ترمي النار بشر كالقصر، حجم الشرار منها كالقصر الكبير، فكيف بطرف اللهب؟! فكيف باللهب نفسه؟!

هذه النار سبعون ضعفاً من نار الدنيا، يتجرع الكافر ما فيها ولا يكاد يُسيغه، يتمنى الموت ويأتيه من كل مكان وما هو بميت، سرايلهم من قَطِران وتغشى وجوههم النار.

لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل.

وغير هذا العذاب الجسدي، فهناك عذاب معنوي، فكلما دخلت أمة لعنت أختها.

وتلومهم الملائكة وتقرعهم على تقصيرهم وتفريطهم في الحياة الدنيا.

الخاتمة

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين. فليتخير العبد أعجبهما إليه وأولاهما به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة»^(١).

إن زماننا هذا هو زمن الغفلة، وإذا أردت أن تتأكد من هذا فسير في أرض الله، وتأمل فيها، وفي ساكنيها، ماذا عساک أن ترى؟

سترى أمامك محلات للألعاب، ودوراً للملاهي، ودكاكين متخصصة في القنوات الفضائية والترفيه.. إلخ.

ثم بعد ذلك قارن بينها وبين أماكن العبادة، وحلقات العلم، وسترى أن ما يُلهي عن الله والدار الآخرة أكثر بكثير.

والذي يُضحّي ويترك أماكن اللهو والغفلة، ويجالس الصالحين في بيوت الله وحلقات العلم؛ سيكرمه ربه بالجزاء العظيم بسبب هذه التضحية؛ لأنه كلما كثرت الجواذب والمغريات وقاومها الإنسان كان أجره أكبر، ولذلك كان أجر الصالحين في آخر الزمان أكثر بسبب أنهم يقاومون المغريات والفتن المتنوعة.

نسأل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعيذنا من الغفلة وأسبابها وسُبلها، وأن يعيذنا من خاتمة السوء، وأن يرزقنا ذكره وشكره، وأن يعيننا على حسن عبادته، إنه سميع مجيب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.



(١) الوابل الصيب (ص ٦٥).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلوها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. اذكر تعريف الغفلة، لغة واصطلاحاً.
٢. ما هي أنواع الغفلة؟
٣. للغفلة المدمومة ثلاثة أقسام، فما هي؟
٤. ما هي أسباب الغفلة؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. مما يغفل عنه الناس (إعمال النية)، وضح ذلك.
٢. جاء في ثنايا الفصل مقولة طفل لأمه (اتركيني ألعب ولن أدخل الكنيسة مرة أخرى)، فما مناسبة هذا القول؟
٣. بماذا يعاقب الغافل في الدنيا؟
٤. بماذا يعاقب الغافل في الآخرة؟
٥. ما هو أقوى علاج للغفلة؟

مفسات القلوب



الشهوة



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فالحديث عن الشهوة وما يعترئها من أحوال: مطلب مُلِحٌّ لكل مسلم ومسلمة، لاسيما في هذا العصر الذي كثرت فيه مثيراتها، وغلب تأثيرها.

فما الشهوة؟

ولماذا خُلِقَتْ؟

وما أسباب الوقوع في الشهوة المحرمة؟

وما علاج الشهوة المحرمة؟

هذا ما سنتطرق إليه في ثنايا هذا الفصل، مع الشكر والدعاء بالتوفيق لكل من ساهم في إعداد هذه المادة وإخراجها.

اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عن سواك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.



تعريف الشهوة

الشهوة لغة:

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: «الشَّيْنُ والهَاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ الشَّهْوَةُ. يُقَالُ: رَجُلٌ شَهْوَانٌ، وَشَيْءٌ شَهِيٌّ»^(١).

وقال ابن منظور رَحِمَهُ اللهُ: «شَهِيَ الشَّيْءَ وشَهَاهُ يَشْهَاهُ شَهْوَةً واشْتَهَاهُ وتَشَهَّاهُ: أَحَبَّهُ ورَغِبَ فِيهِ»^(٢).

الشهوة اصطلاحاً:

للشهوة عدة معانٍ، أبرزها ما يلي:

- هي فطرة غريزية جسدية، جَبَلَ اللهُ عليها عباده؛ لتحقيق غايات نبيلة، وأهداف سامية.
- هي شعور الرجل والمرأة بالرغبة في المعاشرة.
- هي اشتياق النفس إلى الشيء.



(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ١٧١).

(٢) لسان العرب (١٤/ ٤٤٥).

لماذا خُلقت الشهوة؟

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إن الله خلق فينا الشهوات واللذات؛ لنستعين بها على كمال مصالحنا، فخلق فينا شهوة الأكل واللذة به، فإن ذلك في نفسه نعمة، وبه يحصل بقاء جسمنا في الدنيا، وكذلك شهوة النكاح واللذة به هو في نفسه نعمة، وبه يحصل بقاء النسل، فإذا استعِين بهذه القوى على ما أمرنا كان ذلك سعادةً لنا في الدنيا والآخرة، وكنا من الذين أنعم الله عليهم نعمةً مطلقة.

وإن استعملنا الشهوات فيما حظره علينا بأكل الخبائث في نفسها، أو كسبها كالمظالم، أو بالإسراف فيها، أو تعدينا أزواجنا، أو ما ملكت أيماننا، كنا ظالمين معتدين غير شاكرين لنعمته»^(١).

فالشهوة -إذن- ليست مذمومة في حد ذاتها، ولكنها بحسب ما تستعمل فيه: فإن استعملت فيما ينفع وما أبيض؛ فهي خيرٌ لصاحبها، وإلا، فهي شرٌّ عليه.

وفي هذا حكمة عظيمة، فبدونها لن تتحرك النفسُ لكسب الولد، ولن يتحقق كثير من مقاصد الشرع، فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعل فينا بواعث ومستحثات تثيرها لما فيه قوامنا وبقاؤنا ومصالحتنا، وإلا، لكان في استدعاء الشهوة -قسراً- كلفة عظيمة، قد تكون سبباً في الهلاك والشقاء.

ومن سنن الله في خلقه: ابتلاؤهم بما شاء لحكم وغايات نبيلة، ومن ذلك ابتلاؤهم بالشهوة؛ ليميز الله المطيع من العاصي، والخبيث من الطيب.

(١) الاستقامة (١/٣٤١-٣٤٢).

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ: «من غَلَبَ شهوة الحياة الدنيا، فذلك الذي يَفَرِّقُ الشيطان من ظله»^(١).

وقال عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ حَاجِبِ النُّعْمَانِ:
رُبَّ مَسْتُورٍ سَبَتْهُ صَبُوءَةٌ فَتَعَرَّى سِتْرَهُ فَاثْتَهَكَ
صَاحِبُ الشَّهْوَةِ عَبْدٌ فَإِذَا غَلَبَ الشَّهْوَةَ صَارَ الْمَلِكَا^(٢)

وشهوة النساء من أعظم شهوات الدنيا، ولذا قدمها الله تعالى على غيرها من الشهوات؛ لعظم فتنتها، وقوة تأثيرها على الفرد والمجتمع، قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكِعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(٤).



(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٦٥)، ذم الهوى (٢٢).

(٢) روضة المحبين (ص ٤٨٤)، ذم الهوى (ص ٣٤).

(٣) رواه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠).

(٤) رواه مسلم (٢٧٤٢).

أسباب الوقوع في الشهوة المحرمة

أولاً: ضعف الإيمان:

الإيمان سلاح المؤمن، وهو الحصن الحصين الذي يقي من الوقوع في مهاوي الرذيلة، وحينما يتعد الإنسان عن الطاعات يضعف إيمانه، ويتجرأ على الوقوع في المعصية، ولذلك قال بعضهم: «ثلاثة من أعلام التقوى: ترك الشهوة المذمومة مع الاستمكان منها، والوفاء بالصالحات مع نفور النفس منها، وردّ الأمانات إلى أهلها مع الحاجة إليها»^(١).

فهذه الأشياء الثلاثة فعلها يدل على أن في قلب فاعلها إيماناً ودينياً عظيماً؛ لأنه يجد الحرام أمامه لكنه يتركه لله، ويُرغم نفسه على العبادة والطاعة مع نفور النفس منها، ويردّ الأمانات إلى أهلها مع الحاجة إليها.

ثانياً: الرفقة السيئة:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^(٢).

كثير من المعاصي التي يقع فيها الإنسان يكون الدافع لها هو صديق السوء.

يقول شاب عمره سبعة عشر عاماً عن بداية وقوعه في المعصية: «أول مرة شاهدت فيها فيلماً محرماً كان عند زيارتي لأحد أصدقائي، وعندما كنا في غرفته، أخرج فيلماً وقام بتشغيله، فشاهدته معه، وكانت هذه البداية».

(١) حلية الأولياء (٩/٣٩٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني.

فالله تعالى حرم البذاءة ومنع من الفحش فقال: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا
مَنْ ظَلِمَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا
الْبَيْدِيِّ»^(١).

ثالثاً: إطلاق النظر:

النظر سهم مسموم من سهام إبليس، وقد حذر الله عباده المؤمنين منه، فقال: ﴿قُلْ
لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾
[النور: ٣٠].

رابعاً: الفراغ القاتل:

إن فراغ الشباب يقودهم إلى التفكير في الحرام، ويطلق عنان خيالهم للتخطيط له، حتى
يصبح همماً من همومهم، ويبدءون بممارسة العادة السيئة ونحوها من المهلكات.
والنفس إن لم تُشغَل بالطاعة شُغِلت بالمعصية.

وقد بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك؛ فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ، وَالْفَرَاغُ»^(٢).

فالفراغ مصيبة عظيمة، ومفسدة للنفس، إن لم يُستغل بالمفيد والنافع.

خامساً: التساهل في الحرام:

التساهل في النظر إلى النساء ومخالطتهن كثيراً ما يؤدي إلى وقوع المرء في الفاحشة، مع
أنه لم يكن يقصدها في البداية، ولكن التساهل في الحرام الأقل حرمة يؤدي إلى الحرام الأكثر
حرمة.

(١) رواه الترمذي (١٩٧٧)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٦٤١٢).

فكم من أهل بيت تساهلوا في ترك الخادمة مع الشاب حتى عضوا أصابع الندم بعد ذلك!.

وكم من فتاة تركها أهلها منفردة مع السائق حتى أدى الأمر إلى ما لا تحمد عقباه!.

ونحو ذلك من التساهلات التي تجر إلى كثير من البلايا والموبقات.

سادساً: القرب من مثيرات الشهوة:

إن من أسباب الوقوع في الحرام: القرب من مثيرات الشهوة، ولأجل ذلك فإن الشارع حذر من الجلوس في الطرقات؛ لأنها مظنة أن يرى الإنسان فيها ما يثير شهوته.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرِيقَاتِ»، فقالوا يا رسول الله: ما لنا بُدُّ من مجالسنا، نتحدث فيها، قال: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ»، قالوا: وما حقه؟ قال: «غَضُّ الْبَصْرِ، وَكَفُّ الْأَدْي، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(١).

وحتى في أماكن العبادة والذكر، فإن الشارع جعل صفوف النساء منفصلة عن صفوف الرجال، وأمر بتخصيص باب للنساء، وكان يتأخر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الانفتال للناس حتى ينصرف النساء؛ كل هذا ابتعاداً عن مثيرات الشهوة.

ومن المثيرات أيضاً: الموسيقى والأغاني، والأماكن المختلطة كالمطاعم والملاهي، والقنوات الفضائية الهابطة، ومواقع الشبكة العنكبوتية التي تنشر الرذيلة، والمجلات التي تحتوي على الصور الماجنة.



(١) رواه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١)، واللفظ لمسلم.

كيف تتعامل مع الشهوة؟

إذا عُرِضت الشهوة للمسلم، وتزين له الحرام بأنواع الزينة، وسهلت عليه الأمور، وتهيأت له الظروف: فكيف يتعامل مع هذه الحالة؟!
 هناك ثلاث قواعد تعين المسلم على تجاوز هذه المحنة، وتساعده على التخلص من هذا المأزق، وهي:

القاعدة الأولى: قل معاذ الله:

الإيمان بالله والخوف منه صمام الأمان، وهو العاصم للعبد من مواقعة الحرام، والانسحاق وراء الشهوات.

(معاذ الله) قالها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فأعاده الله، وصرف عنه كيد النسوة، ويقولها بعض من يستظل بظل العرش يوم لا ظل إلا ظل لإلا ظل عرش الرحمن، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ ... - وذكر منهم -: وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ»^(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والظاهر أنه يقول ذلك بلسانه؛ ليزجرها عن الفاحشة، ويحتمل أن يقولها بقلبه»^(٢)، ومواطأة القلب اللسان في هذه الحال شيء عظيم، وأثره كبير، ولا تصدر مثل هذه الكلمة: (معاذ الله)، (إني أخاف الله) في مثل ذلك الموطن، إلا من عبد راقب الله، وجعل سره وعلانيته سواء، فخاف الله في السر، كما يخافه في العلن.

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) فتح الباري (٢/١٤٥-١٤٦).

والمؤمن إذا تربي على مراقبة الله، ومطالعة آثار أسماائه في الواقع؛ فإنه سيثبت أمام الشهوات، وسينجو من مزالقتها، ومن ثم: يفوز بالجنة التي أزلفت لمن خشى الرحمن بالغيب: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ [ق: ٣١-٣٣]. أي: يخشى الرحمن إذا غاب عن أعين الناظرين.

وَإِذَا خَلَوْتَ بِرَبِّهِ فِي ظُلْمَةٍ
وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الطُّغْيَانِ
فَاسْتَحْ مِنْ نَظَرِ الْإِلَهِ وَقُلْ لَهَا
إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي^(١)

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهُ يَغْفُلُ سَاعَةً
خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا أَنْ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ^(٢)

المؤمن إذا تربي على مثل هذه المعاني وعمل بمقتضاها فإنه يصبح ذا خلق سوي، وينشأ تقياً لا تستهويه مادة، ولا تستعبده شهوة، ولا يتسلط عليه شيطان، ولا تعمل النفس الأمارة بالسوء عملها في نفسه، بل إنه يصبح إذا دعتة الشهوة المحرمة قائلاً: إني أخاف الله، معاذ الله، وإذا وسوس إليه الشيطان قال له: ليس لك علي سلطان.

وإذا زين له قرناء السوء طريق الفاحشة والمنكر أسكتهم بقوله: لا أبتغي الجاهلين.

العبد الذي يتربي على هذا حقيق بأن تؤثر فيه كلمة (اتق الله) إن قارب الحرام يوماً.

وتأمل في حال ذلك الرجل، وهو أحد الثلاثة الذين نجاهم الله من الغار عندما انطبقت عليهم الصخرة؛ بسبب أعمال صالحة كانت لهم، يقول: «اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِيهَا، فَاِمْتَنَعْتَ مِنِّي، حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السَّنِينَ، فَجَاءَتْ نَبِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ، عَلَى أَنْ تُحَيِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِيهَا، فَفَعَلْتَ، حَتَّى إِذَا قَدِرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، -وفي رواية: اتَّقِ اللهُ وَلَا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ- فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَاِنصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ

(١) صيد الأفكار (٩٣/٢).

(٢) شعب الإيمان (٧٢٩٢).

إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجِهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ»^(١).

فتأمل حال هذا العبد كيف قارب الحرام هذه المقاربة، وقعد من حبيته مقعد الرجل من أمرته، وقدر عليها، فزال عن ذلك الموقع بكلمة (اتق الله)، وقام عنها وهي أحب الناس إليه!.

إنه الإيمان الصادق بالله تعالى، الذي يثمر لصاحبه خشية الله ومراقبته في الغيب والشهادة.

القاعدة الثانية: احذر خائنة الأعين:

قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معنى خائنة الأعين: «هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسنة، أو تمر به وبهم المرأة الحسنة، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض»^(٢).

وقال سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الرجل يكون في المجلس يسترق النظر إلى المرأة تمر بهم، فإن رآوه ينظر إليها اتقاهم فلم ينظر، وإن غفلوا نظر، هذه خائنة الأعين، ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ما يجد في نفسه من الشهوة»^(٣).

وليعلم العبد أنه موقوف بين يدي الله، وسيسأله عن عمله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] فهو مسئول عن هذه النظرة، والتي هي سهم مسموم من سهام إبليس، وهي رائد الشهوة.

ولذلك كان الربط بين أول خطوات الحرام وآخرها في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصَدِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

(١) رواه البخاري (٢٢٧٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١٣٧/٧).

(٣) حلية الأولياء (٧٨/٧).

فأمر الله المؤمنين أن يغيضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، ولا ينظروا إلا لما أباح لهم، فإذا اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد؛ فليصرف بصره عنه سرياً.

لماذا قدم غض البصر على حفظ الفرج؟

السر في تقديم غض البصر على حفظ الفرج: (لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفجور)^(١). يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَالنَّظْرُ أَصْلُ عَامَّةِ الْحَوَادِثِ الَّتِي تُصِيبُ الْإِنْسَانَ، فَالنَّظْرَةُ تُؤَلِّدُ خَطْرَةً، ثُمَّ تُؤَلِّدُ الْخَطْرَةَ فِكْرَةً، ثُمَّ تُؤَلِّدُ الْفِكْرَةَ شَهْوَةً، ثُمَّ تُؤَلِّدُ الشَّهْوَةَ إِرَادَةً، ثُمَّ تَقْوَى فَتَصِيرُ عَزِيمَةً جازِمَةً، فَيَقَعُ الْفِعْلُ وَلَا بُدَّ، مَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْهُ مَانِعٌ، وَفِي هَذَا قِيلَ: الصَّبْرُ عَلَى غَضِّ الْبَصْرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى أَلْمِ مَا بَعْدَهُ.

قال الشاعر:

وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغِرِ الشَّرِّ	كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظْرِ
كَمَبْلَغِ السَّهْمِ بَيْنَ الْقَوْسِ وَالْوَتْرِ	كَمْ نَظْرَةٌ بَلَّغَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا
فِي أَعْيُنِ الْغَيْدِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطْرِ	وَالْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا طَرْفٍ يُقَلِّبُهُ
لَا مَرَحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرِّ	يَسُرُّ مُقَلَّتُهُ مَا ضَرَّ مُهَجَّتُهُ

وَمِنْ آفَاتِ النَّظْرِ: أَنَّهُ يُورِثُ الْحَسْرَاتِ وَالزَّفَرَاتِ وَالْحَرَاقَاتِ، فَيَرَى الْعَبْدُ مَا لَيْسَ قَادِرًا عَلَيْهِ وَلَا صَابِرًا عَنْهُ»^(٢).

فهؤلاء الذين يذهبون إلى الأسواق ويرون النساء وهن متبرجات؛ تقطع قلوبهم حسرة وألماً وكمداً.

وقد يقول قائل: إن أكثر هذه النظرات لا تنتهي بالزنا، ولا يذهب معها للحرام.

ولكننا نقول: إن هذه النظرات تنتهي بحسرة وألم؛ لأنه يرى أمامه فتناً لا يمكنه الوصول إليها، فيبقى متحسراً متألماً، وربما حاول ففشل، فيبقى متحيراً متأوهاً.

(١) روح المعاني للألوسي (١٨/١٣٩)، تفسير النسفي (٣/١٤٣).

(٢) الجواب الكافي (ص ١٠٦).

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعَذَابِ، أَنْ تَرَى مَا لَا صَبْرَ لَكَ عَنْ بَعْضِهِ، وَلَا قُدْرَةَ عَلَى بَعْضِهِ.

قال الشاعرُ:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعَبْتِكَ الْمُنَاطِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ

وهذا البيت يحتاج إلى شرح، ومُرَادُهُ: أَنْكَ تَرَى مَا لَا تَصْبِرُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: «لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ» نَفْيٌ لِقُدْرَتِهِ عَلَى الْكُلِّ الَّذِي لَا يَنْتَقِي إِلَّا بِنَفْيِ الْقُدْرَةِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ.

وَكَمْ مَنْ أَرْسَلَ لِحَظَاتِهِ فَمَا قَلَعَتْ إِلَّا وَهُوَ يَتَشَحَّطُ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا، كَمَا قِيلَ:

يَا نَاطِرًا مَا أَقْلَعْتَ لِحَظَاتُهُ حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا

وَلِيٍّ مِنْ أَبْيَاتِ:

مَلَّ السَّلَامَةَ فَاغْتَدَّتْ لِحَظَاتُهُ وَقَفًا عَلَى طَلَلٍ يَظُنُّ جَمِيلًا
مَا زَالَ يُتْبِعُ إِثْرَهُ لِحَظَاتِهِ حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ النَّظْرَةَ تَجْرَحُ الْقَلْبَ جُرْحًا، فَيَتْبَعُهَا جُرْحٌ عَلَى جُرْحٍ، ثُمَّ لَا يَمْنَعُهُ

أَلْمُ الْجِرَاحَةِ مِنْ اسْتِدْعَاءِ تَكَرُّرِهَا، وَلِيٍّ أَيْضًا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

مَا زِلْتَ تُتْبِعُ نَظْرَةَ فِي نَظْرَةٍ فِي إِثْرِ كُلِّ مَلِيحَةٍ وَمَلِيحٍ
وَتَظُنُّ ذَاكَ دَوَاءَ جُرْحِكَ وَهُوَ فِي الْإِل تَحْقِيقِ تَجْرِيحٍ عَلَى تَجْرِيحِ
فَدَبَحَتْ طَرْفَكَ بِاللِّحَاطِ وَالْبُكَاءِ فَالْقَلْبُ مِنْكَ ذَبِيحٌ أَيْ ذَبِيحِ

وَقَدْ قِيلَ: إِنْ حَبَسَ اللَّحَظَاتِ أَيْسَرُ مِنْ دَوَامِ الْحَسْرَاتِ^(١).

إِنَّ حَالَ مَنْ يَنْظُرُ لِلْحَرَامِ كَحَالِ الَّذِي يَشْرَبُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ، أَتَرَاهُ يَرْتَوِي؟ كَلَّا، بَلْ لَا يَزِيدُ بِالشَّرْبِ إِلَّا عَطْشًا، وَلَا تَزِيدُ بِالنَّظْرِ شَهْوَتَهُ إِلَّا تَهْيِجًا.

(١) الجواب الكافي (ص ١٠٦-١٠٧).

وتأمل في هذا الحديث الذي ربط بين خيانة العين والوقوع في الفواحش: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزَنَا الْعَيْنَ النَّظْرَ، وَزَنَا اللِّسَانَ الْمَنْطِقَ، وَالنَّفْسُ تَمْتَلِكُ وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَكْذِبُهُ»^(١).

وتأمل مدى قبح هذه النظرة الحرام حتى وصفت بالزنا، فلا شك أن نفس المؤمن تنفر من ذلك.

يقول ابن الجوزي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فاحذر يا أخي - وَفَقَكَ اللهُ - مِنْ شَرِّ النَّظْرِ، فَكَمْ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ عَابِدٍ! وَفَسَخَ عَزَمَ زَاهِدٍ!... وَتَلَمَّحَ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّظْرُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ»؛ لِأَنَّ السَّهْمَ يَسْرِي إِلَى الْقَلْبِ، فَيَعْمَلُ فِي الْبَاطِنِ قَبْلَ أَنْ يَرَى عَمَلَهُ فِي الظَّاهِرِ، فاحذر مِنَ النَّظْرِ، فَإِنَّهُ سَبَبُ الْآفَاتِ، إِلَّا أَنْ عِلَاجَهُ فِي بَدَائَتِهِ قَرِيبٌ، فَإِذَا كُرِّرَ: تَمَكَّنَ الشَّرُّ، فَصَعِبَ عِلَاجُهُ»^(٢).

إن النظرة كأس مسكر، وسكره العشق، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر؛ لأن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق أتى يفيق.

والنظر والشهوة يقودان إلى العشق، وهذا مرض آخر خطير جداً من مفسدات القلوب، فاحذر هذا السهم لأنه إن لم يقتلك جرحك، وإذا تكاثرت الجروح تحقق الهلاك.

نظر الفجأة:

عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نظر الفجأة؟ فأمرني أن أصرف بصري»^(٣).

والفجأة: أن يقع بصره على الأجنبية بغتة من غير قصد^(٤).

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) ذم الهوى (ص ٩٤)، وحديث: (النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ) حديث ضعيف، رواه الحاكم (٧٨٧٥) وغيره.

(٣) رواه مسلم (٢١٥٩).

(٤) تحفة الأحمدي (٤٩/٨).

وحكم هذا النظر: أنه لا إثم عليه في أول الأمر، ولكن يجب أن يصرف بصره في الحال، وإلا ركبه الإثم حال إدامته للنظر^(١)، عن ابن بريدة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا عَلِيُّ، لَا تُتَبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَىٰ وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ»^(٢).

أي: لا تعقبها إياها، ولا تجعلها أخرى بعد الأولى، فإن لك النظرة الأولى إذا كانت من غير قصد، وليست لك الآخرة لأنها تمت باختيارك.

وهذا يظهر لك فساد قول بعض الهازلين الذين يقولون بجواز استدامة النظرة الأولى، ما لم تغمض العين!

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظُرٌ كَيْفَ نَصْرَفُ الْأَيَاتِ لِمَنْ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦] فالبصر نعمة من الرب، ينبغي على العبد أن يخشى عليه أن يذهب الله بسبب معاصيه.

ولغض البصر عن الحرام فوائد كثيرة، منها:

١. امتثال أوامر الرب، وفي ذلك سعادة وأجر.
٢. سلامة القلب من أثر السهم المسموم.
٣. يورث القلب أنساً بالله واجتماعاً عليه، ولا يجد ذلك من أطلقه في الحرام؛ لأن قلبه يتشتت، فلا يمكن أن يجتمع على الله ومحبه.
٤. يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويجزئه.
٥. يُكسب القلب نوراً، كما أن إطلاق البصر يكسبه ظلمةً.
٦. يورث العبد بصيرة وفراصة صادقة يميز بها بين الحق والباطل، والصدق والكذب، وهذا يفيد في سائر تعاملاته مع الناس، ويعينه على اتخاذ القرارات السديدة، والمواقف الرائدة.

(١) تحفة الأحوذى (٤٩/٨).

(٢) رواه أبو داود (٢١٤٩) والترمذي (٢٧٧٧) وحسنه الألباني.

٧. يورث القلب شجاعة وثباتاً، فيجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة، وسلطان القدرة والقوة.

٨. يسدّ على الشيطان مدخلاً؛ لأن النظر بوابة القلب الكبرى.

٩. يُفَرِّغ القلب للفكرة الصالحة والاشتغال بها؛ لأن الواحد إذا صار قلبه مشغولاً بصور النساء والمردان والعشق فكيف يتدبر في آية؟ وكيف يفهم استنباطاً من حديث؟ وكيف يفقه قولاً من أقوال الفقهاء؟ وكيف يتفكر في السماوات والأرض؟

١٠. صلاح القلب؛ لأن العين والقلب بينهما منفذ وطريق متصل يوجب انفعال أحدهما بالآخر، وتأثر هذا بهذا، فيصلح بصلاحه ويفسد بفساده، فإذا صلحت منظورات العبد صلح قلبه، وإن فسدت فسد قلبه؛ لذلك قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اضْمَنْتُوا لِي سِتّاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أُؤْتِمْتُمْ، واحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ»^(١).

القاعدة الثالثة: دافع الخاطرة:

إن الخواطر السيئة تمرض القلب، ومتى انساق العبد معها ولم يدافعها تطورت فإذا هي فكرة، فهمٌّ، فإرادة، فعزيمة، فإقدام، ففعل وارتكاب للحرام... فحذارٍ من الاسترسال مع الخطرات.

الخطرات شأنها صعب، فمبدأ الخير والشر خاطرة، فإذا دافعت الخاطرة من أول الطريق ملكت زمام نفسك وقهرت هواك، وإذا غلبتك خواطر الحرام فإنك ستنزلق في الهاوية.

ولا تزال الخواطر تتردد على القلب حتى يُشْرَبَهَا، فإذا تشربها صارت مُنَى باطلة ﴿كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩].

وأردأ الناس همةً من رضي بالأمانى الكاذبة وتحلى بها؛ لأنها رؤوس أموال المفاليس،

(١) رواه الإمام أحمد (٢٢٢٥١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠١٨).

وهي رأس مال البطالين، وأضر شيء على الإنسان لأنها تُنبت العجز والكسل والتفريط. ومتى ما استرسل العبد مع الخواطر وقع في الحرام، وليس هناك علاج بعد ذلك إلا استفراغ الخبث من النفس بالتوبة النصوح.

ولو تأمل العبد بين لذة الذنب ولذة العفة، وبين لذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو، وبين لذة الذنب ولذة إرغام الشيطان ورده خاسئاً؛ لاختار ما يكون سبباً لصلاح ظاهره وباطنه.

واعلم أن النفس لها خواطر رحمانية من الرحمن، وخواطر شيطانية من الشيطان، وخواطر نفسانية من النفس.

والنفس أمارة بالسوء، ليس من شيء عملي إلا ويسبقه شيء نظري، فلا تصدق أن شيئاً عملياً حصل في الواقع فجأة دون مقدمات نظرية في النفس وفي العقل وفي الذهن وفي القلب، لا بد أن يكون هناك تصورات مسبقة.

وكلما كان الإصلاح في مرحلة مبكرة كانت القضية أهون وأسهل، وكلما بادر الإنسان كان الإصلاح أسرع.

والإنسان لا يمكن أن يميّت خواطره؛ لأن الخواطر تهجم هجوماً على الإنسان، ولا يمكنه أن يتحكم فيها.

وقد كان الشيطان يوقع في نفوس بعض الصحابة أشياء سيئة جداً عن الله تعالى، فردّ الله كيده؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء ناس من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟»، قالوا: نعم، قال: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(١).

وعن ابن عباس، قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسول الله، إن أحدنا يجِدُ في نفسه، يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ، لَأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فقال: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَاسَةِ»^(٢).

(١) رواه مسلم (١٣٢).

(٢) رواه أبو داود (٥١١٢)، وصححه الألباني.

أي: الحمد لله أن الشيطان لم يستطع أن يأخذ منكم وينال إلا هذه الخاطرة والوسوسة التي أنتم تكرهونها، فكراهيتكم لها تدل على إيمانكم الصريح.

وهذه الخواطر لا بد أن تعالج، فكيف يفعل المسلم إذا هجمت عليه؟

١. يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

٢. يحاول أن يستبدل الخواطر الشيطانية بخواطر إيمانية؛ لأن النفس مثل الرحي لا بُدَّ لها من شيء تطحنه، فَمَنْ جعل في رِحاءه حباً خرج الطَّحْن دقيقاً، ومن جعل في رِحاءه رملاً وتبناً خرج الناتج كذلك.

ومن الخواطر الطيبة التي تفيد في طرد الخواطر الشيطانية:

- التفكير في عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وفي خلق السموات والأرض.
- العلم الشرعي، وهو من أعظم ما يشغل الإنسان به نفسه.
- التفكير في الآخرة وأهوالها، كالموت، والقبر، والحوض، والشفاعة، والميزان، والصراط، والجنة، والنار.
- التفكير في الكسب الحلال، كالتجارة، والوظيفة، واستثمار أوقات الفراغ في شيء يعود عليه بالنفع الدنيوي الحلال.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وجماع إصلاح ذلك: أن تشغل فكرك في باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده، إلى الدخول إلى الجنة أو النار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها، وفي باب الإرادات والعزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك إرادته، وطرح إرادة ما يضرك إرادته، وعند العارفين: أن تمنى الخيانة وإشغال الفكر والقلب بها أضرم على القلب من نفس الخيانة»^(١).

فما دامت القضية تبدأ بالخواطر، والخواطرة تتحول إلى إرادة فعزيمة فهِمٌّ، فلا بد من إشغال النفس في كل مرحلة من هذه المراحل، وليس فقط في مرحلة الخواطر، فعلىنا معالجة الخواطر وما بعدها.

(١) الفوائد (ص ١٧٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة، فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها»^(١).

ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد.

فإن قلت: ما الذي يُعيني على طرد هذه الوسوس وعدم الاسترسال معها؟

نقول: يعين على ذلك أمور، يترتب بعضها على بعض:

- الإيمان والعلم الجازم أن الرب مطلع على ما في الخواطر ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] ﴿يَعْلَمُ الْسِرَّ وَآخْفَى﴾ [طه: ٧]

فإذا استحي العبد من أن ينظر ربه إلى ما في نفسه فيرى هذه الخواطر المشينة حاول العبد أن يتعد عنها، وهذه قضية جديرة بالاهتمام.

- التأمل: إذا هجمت على قلبك الوسوس السيئة والأفكار المشينة؛ فتأمل في عظمة الخالق سبحانه، واستحضر أسماؤه وصفاته وأنه: عظيم، جبار، قهار، شديد العقاب، كبير، متعال.

- الاستحياء: إذا علمت قدرة الله واطلاعه على ما في الخواطر فاستح منه، وحاول الابتعاد عن هذه الخواطر والأفكار. وتأمل حالك إذا دخل عليك أحد معارفك أو أصدقائك وأنت تفعل فعلاً مشيناً، ماذا تراك صانع؟! فالله أولى أن يُستحي منه.
- إجلال الله سبحانه وتعالى.

- الخوف من أن تسقط بتلك الخواطر من نظر الرب سبحانه، وتصبح لا قيمة لك عنده.

- الغيرة على القلب، فتحاول أن لا يسكنه غير محبة الله سبحانه.

(١) الفوائد (ص ٣١).

- أن تخشى من تلك الخواطر أن تستعر؛ فتأكل الإيمان الباقي في القلب.
- أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحب للطائر، يُلقيه الشيطان ليصيد به الإنسان، فكل خاطرة منها هي فخّ منصوب.
- أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان.
- أن تعلم أن الخواطر بحور خيال لا ساحل لها ولا آخر، من دخل فيها غرق.



كيف نعالج الشهوة؟

من رحمة الله بعباده: أنه لم يخلقهم سدًى، ولم يتركهم هملاً، بل أنزل لهم ديناً قيماً، فيه علاج وإصلاح لكل ما اعوج من شئون حياتهم، ومن ذلك الشهوة المحرمة، فقد جعل الله لها علاجات عدة تسكن ثورانها، وتكبح جماحها، ومنها:

الزواج:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج»^(١).
الباءة: هي القدرة على الجماع ومؤنة النكاح، فإذا استطاع الإنسان النكاح وتاقت نفسه إليه، فعليه به.

إن الزواج من السبل التي يقضي بها الإنسان على شهوات نفسه بالمصرف الحلال الذي شرعه الله له، وهي سنة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، قال صلى الله عليه وسلم لمن حرم على نفسه الحلال: «لكي أضي وأنام وأصوم وأفطر وأنزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النكاح من سنتي، فمن لم يعمل بسنتي فليس مني، ونزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ومن كان ذا طول فليتكح، ومن لم يجد فعليه بالصيام؛ فإن الصوم له وجاء»^(٣).

(١) رواه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠).

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣) رواه ابن ماجه (١٨٤٦)، وصححه الألباني.

وبالزواج يحفظ الإنسان دينه وإيمانه، وبالزنا يُنزع عنه النور الذي كان يتحلى به.

وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِعَبِيدِهِ: «تَزَوَّجُوا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا زَنَى نُزِعَ مِنْهُ نُورُ الْإِيمَانِ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بَعْدُ، أَوْ أَمْسَكَهُ»^(١).

وعن طاووسٍ، قَالَ: «لَا يَتِمُّ نُسُكُ الشَّابِّ حَتَّى يَتَزَوَّجَ»^(٢)، أي: لا يكتمل دين الشاب إلا بالزواج، فلا يزال الأعراب في دينه ناقص، من جهة احتمال ما يطرأ عليه من الوقوع في هذه المحرمات.

والزواج لمن خاف على نفسه الوقوع في الحرام أو جب من الحج المفروض، والذي هو ركن من أركان الإسلام، فمن لم يستطع الجمع بين الحج والزواج، وخاف على نفسه، فعليه أن يقدم الزواج على الحج.

والمرأة الصالحة معينة على شطر الدين:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ امْرَأَةً صَالِحَةً فَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى شَطْرِ دِينِهِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي»^(٣).

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: «لأن أعظم البلاء الفادح في الدين: شهوة البطن، وشهوة الفرج، وبالمرأة الصالحة تحصل العفة عن الزنا وهو الشطر الأول، فيبقى الشطر الثاني وهو شهوة البطن، فأوصاه بالتقوى فيه؛ لتكتمل ديانته وتحصل استقامته... وقيّد المرأة بالصالحة؛ لأن غيرها وإن كانت تعفه عن الزنا؛ لكن ربما تحمله على التورط في المهالك، وكسب الحطام من الحرام»^(٤).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «فَعَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا لَمْ يَصْبِرْ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ ذَاتِ الدِّينِ؛ لِيَسْلَمَ لَهُ الدِّينُ»^(٥).

(١) شعب الإيمان (٥٣٦٨).

(٢) حلية الأولياء (٦/٤).

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٢٦٨١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأعله غير واحد، وقالوا: الصحيح أنه من قول طاووس..

(٤) فيض القدير (١٧٧/٦).

(٥) تفسير القرطبي (٢٩/٤).

أجرٌ في النكاح، ووزرٌ في السفاح:

ومن المصالح الخاصة في النكاح: الحصول على الأجر من هذه الشهوة، ففي الحديث: «وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قالوا: يا رسول الله، يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»^(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ، فَالْجَمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا نَوَى بِهِ قِضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ، أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ، أَوْ إِعْفَافَ نَفْسِهِ، أَوْ إِعْفَافَ الزَّوْجَةِ، وَمَنْعَهَا جَمِيعاً مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ، أَوْ الْفِكْرِ فِيهِ، أَوْ الْهَمِّ بِهِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ»^(٢).

فالزواج من أهم الأمور التي تنقذ الشباب من تفكيرهم في هذه الشهوة؛ لأنه يحمي من الهمِّ بالحرام والتفكير فيه.

معونة الله للناكح طالب العفاف:

قد وعد الله على لسان رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمعونة للناكح الذي يريد العفاف؛ لأن الله يريد من العبد أن يهذب غريزته، وأن يوجه شهوته للأمر المباحة التي أحلها، وليس الانفلات في الحرام.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ حَقُّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمُ: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْمُكَاتِبُ»^(٣) الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعِفَافَ»^(٤). والمقصود بالعفاف: العفة عن الزنا.

وإذا لم تندفع الشهوة بزوجة واحدة، وخاف المسلم على نفسه الوقوع في الحرام؛ وجب عليه أن يتزوج بأخرى؛ طلباً للعفاف.

(١) رواه مسلم (١٠٠٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (٩٢/٧).

(٣) المُكَاتِبُ: بضم الميم وفتح التاء اسم مفعول من كاتب، وهو الرقيق الذي تم عقد بينه وبين سيده على أن يدفع له مبلغاً من المال نجومًا ليصير حراً. معجم لغة الفقهاء (ص ٤٥٥).

(٤) رواه الترمذي (١٦٥٥)، وحسنه. وحسنه الألباني.

الصوم:

إن الصيام يحفظ الشباب ويميمهم من الوقوع في فاحشة الزنا، ولذلك أرشدهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا العلاج.

فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فأرشدهم إلى الدواء الشافي الذي وُضِعَ لهذا الأمر - وهو الزواج -، ثم نقلهم عنه عند العجز إلى البدل، وهو الصوم؛ فإنه يكسر شهوة النفس، ويضيق عليها مجاري الشهوة، فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته، فكمية الغذاء وكيفيته يزيدان في توليدها، والصوم يضيق عليها ذلك، فيصير بمنزلة وجاء الفحل، وقلَّ من أدمن الصوم إلا وماتت شهوته، أو ضعفت»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّجَلَّ: «... وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ»^(٣).
جُنَّة: أي وقاية وستر، فالصيام يقي النفس من انبعاث الشهوة وثورانها، ووقوعها في المحرمات؛ لأن الأكل يقوي الشهوة. أقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «كلما قلَّ الأكل؛ ضعفت الشهوة، وكلما ضعفت الشهوة؛ قلت المعاصي»^(٤).

استهلاك طاقة الجسم فيما ينفع:

على الشباب أن يستغلوا طاقات أجسامهم، ويستهلكوا أوقاتهم، في الأعمال الصالحة المتنوعة، وخاصة الأعمال الاجتماعية والدعوية التي يكون فيها خلطة مع الآخرين؛ كالدعوة إلى الله، وإعانة المحتاجين، والمشى في حوائج المسلمين، وتنظيم المشروعات الخيرية، وغير ذلك مما فيه مجهود وعمل دؤوب.

(١) رواه البخاري (١٩٠٥) ومسلم (١٤٠٠).

(٢) روضة المحبين (ص ٢١٩).

(٣) رواه البخاري (٧٤٩٢).

(٤) تفسير القرطبي (٢/ ٢٧٥).

منع إثارها بأسباب الفتن:

إن العصر الذي نعيش فيه اليوم هو عصر شهوات، وتبرج، وسفور، وانحلال، وتصوير، وتجميل الصور، ومكياج، وزينة، ودور أزياء، وملابس مغرية: شفافة وقصيرة وضيقة، والإنسان يرى في هذا العصر ما لم يره أجدادنا في العصور السابقة.

لقد وجدت في هذا العصر الدراسات النفسية في تصميم الأزياء، وكيف تصبح الملابس مثيرة للشهوات، وفرغت لها عقولٌ متخصصة في هذا المجال؛ لإيقاع الناس في غمرة هذه الشهوات.

وقد سمعنا غير مرة من يقول - عندما يرى بعض النساء المتبرجات -: لو كانت عارية لما ظهرت بهذا الجمال؛ لأن اللباس أظهرها بشكل أجمل مما هي عليه.

ومن سُبل الفتنة: ذلك البرقع الذي يبرز جمالاً في المرأة غير حقيقي، بحيث لو كشفت عن وجهها لذهب هذا الجمال، ولكنها تضع هذا البرقع وتضع الكحل حتى تفتن الشباب بمنظرها.

لقد أنشأ اليهود دوراً لعرض الأزياء وتصميمها، وأطلقوا قنوات شبه إباحية لعرض هذه الأزياء، وأصبح الناس يطلبون تلك الأزياء بمتابعتهم هذه القنوات، وما تنتجه تلك الدور، وأصبحت المصانع تضخّ للناس وتصنع لهم هذه الموضات والأزياء الحديثة، فلا تكاد تجد في السوق لباساً محتشماً، بل أكثر الملابس مصممة بتصاميم مُغرية.

إتيان أهله إذا رأى امرأة أعجبتة:

إن الشهوات في هذا العصر ليست خاصة بغير المتزوجين، بل هي متعددة إلى المتزوجين أيضاً، وقد يكون المتزوج أكثر افتتاناً بهذه الشهوات من غير المتزوج؛ لأنه قد جرب النساء وعاشهن، ومن عرف طعم الشيء ليس كمن لم يعرفه.

لذلك كان على المتزوجين أن يراعوا هذا الأمر في أنفسهم، فإذا وقعت في نفس أحدهم الشهوة بسبب صورة محرمة، أو امرأة متبرجة، فعليه أن يسارع إلى إتيان امرأته؛ لقضاء وطره، والتنفيس عن رغبته.

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً، فَأَتَى امْرَأَتَهُ زَيْنَبَ وَهِيَ تَمْعَسُ مَنِيئَةً لَهَا، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبَلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»^(١). وفي رواية: «فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا»^(٢).

(رأى امرأة): هذا محمول على نظرة الفجأة، أو أنه كان قبل نزول آية الحجاب.

(تمعس منيئة): أصل المعس المعك والدلك للجلد بعد إدخاله في الدبغ، ومعسه معساً ذلكه ذلكاً شديداً.. والمنيئة المدبغة^(٣).

أي: أن زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تدلك الجلد؛ تمهيداً لدبغه.

وعن أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا فِي أَصْحَابِهِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ وَقَدْ اغْتَسَلَ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ كَانَ شَيْءٌ؟ قَالَ: «أَجَلٌ، مَرَّتْ بِي فُلَانَةٌ فَوَقَعَ فِي قَلْبِي شَهْوَةٌ النِّسَاءِ، فَأَتَيْتُ بَعْضَ أَزْوَاجِي فَأَصَبْتُهَا، فَكَذَلِكَ فَافْعَلُوا؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَمَاثِلِ أَعْمَالِكُمْ إِيْتَانِ الْحَلَالِ»^(٤).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يستحب لمن رأى امرأة فتحركت شهوته أن يأتي امرأته فليواقعها؛ ليدفع شهوته، وتسكن نفسه، ويجمع قلبه على ما هو بصدده.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبَلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ» قال العلماء: معناه الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها، لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء والالتذاذ بنظرهن وما يتعلق بهن، فهي شبيهة بالشيطان، في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له، ويستنبط من هذا: أنه ينبغي لها أن لا تخرج بين الرجال إلا لضرورة، وأنه ينبغي للرجل الغض عن ثيابها، والإعراض عنها مطلقاً^(٥).

(١) رواه مسلم (١٤٠٣).

(٢) رواه الترمذي (١١٥٨)، وصححه الألباني.

(٣) لسان العرب، مادة: معس (٢١٩/٦).

(٤) رواه أحمد (١٧٥٦٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣٥).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٧٨/٩).

وقد يستغرب البعض من هذه الصراحة الموجودة في الحديثين، وإذا عُرف السبب بطل العجب؛ فإن المسألة خطيرة، وقد صرح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصنيعه لأهميته، وليتعلم المسلمون منه.

منع النساء من الخروج، إلا للضرورة:

إن المرأة إذا خرجت استشر فيها الشيطان، ورَيْنَهَا في أعين الناظرين، وجعل الناس يرونها أجهل مما هي عليه حقيقة؛ ليوقعهم في مصائد الشهوات والفواحش.

لذلك: على أولياء الأمور أن يمنعوا مؤلياتهم من الخروج إلى الشوارع والأماكن العامة إلا للضرورة؛ حفاظاً على شرفها وعفتها، وكبحاً للشهوات المستعرة في هذا الزمان.

الإكثار من العبادات المنزلية:

لا تجعل بيتك قبراً لا ذكر فيه ولا دعاء، ولا عبادة ولا طاعة، بل عمِّره بطاعة الله تعالى، واجعل فيه موضعاً مخصصاً لأداء الصلاة، ومصحفاً للتلاوة، وآلة لسماع القرآن، ومكتبة عامرة بعلوم الكتاب والسنة، وما فيه نفع للأسرة في دينها ودنياها. فإن ذلك يجعل الإنسان مقبلاً على ربه، ويخفف نداء الشهوة لديه.

الدعاء:

الدعاء هو السلاح الذي لا يخون في النوائب والملمات، السلاح الناجع الذي ينبغي على المؤمن أن يستعمله في كل وقت وحين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ الشُّؤْمِ مِثْلَهَا؛ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمٍ». فقال رجل من القوم: إذا نكثرت. قال: «الله أكثر»^(١).

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٣)، وصححه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

وتأمل حال نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ماذا دعا في حال الشهوة والدعوة إلى المحرم؟
 ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾
 ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[يوسف: ٣٣-٣٤].

وقد كان من هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعليم الصحابة أدعية لمواجهة الشهوات، فعن
 شَكَل بن حميد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قلت: يا رسول الله، علمني دعاء، قال: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ
 بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيَّ»^(١).

فاستعاذ من شرِّ المنِّي، والمقصود به: شرِّ الشهوة.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتُّقَى، وَالعِفَافَ، وَالعِغَى»^(٢)، فكان
 يسأله العفاف المطلوب لعلاج الشهوة.

فإياك والاعتزاز بنفسك، فتبتعد عن الدعاء وتؤمن المكر؛ فإن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام ما آمن على
 نفسه عبادة الأصنام، بل دعا ربه قائلاً: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فلم يسأل الله الوقاية من الصغائر فحسب، بل سأله الوقاية من الشرك الأكبر.

فلا تقل: أنا شاب متدين، أنا إمام، أنا خطيب، أنا داعية، أنا واعظ، أنا طالب علم...،
 فكل واحد يُحشى عليه من الفتنة، وما دمنا نخشى على أنفسنا: فلا بد أن نلجأ إلى ربنا بالدعاء.

﴿وَلَوْلَا أَن تَبُنَّتْكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِّنَ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأَوْلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ^(٣)

التأمل في خطورة الانسياق وراء الشهوات المحرمة:

قال يحيى بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من أرضى الجوارح في اللذات؛ فقد غرس لنفسه شجر
 الندامات»^(٤).

(١) رواه أبو داود (١٥٥١)، والترمذي (٣٤٩٢)، وحسنه، والنسائي (٥٤٥٦)، والحاكم (١٩٥٣)، وصححه،
 وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٣) نفع الطيب (١٧٧/٦).

(٤) ذم الهوى (ص ٢٧).

وقال عبد الصمد الزاهد رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الشَّهَوَاتِ فُخُوحٌ فَهُوَ لَعَابٌ»^(١).
فإذا تأمل الإنسان مفسدات الزنا والفاحشة في الدنيا والآخرة؛ أدرك خطورة الانسياق
وراء الشهوات المحرمة.



(١) ذم الهوى (ص ٣١).

من قصص أهل العفاف

لقد حفل التاريخ بأناس ماتوا، ولكنهم أحياء بسيرهم وقصصهم النافعة، إنهم أولئك الذين صبروا عن شهواتهم لله عَزَّوَجَلَّ؛ فخلد الله ذكرهم، ونشر سيرهم. ومن هؤلاء:

يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

نبي الله الكريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي تَعَرَّضَ في بيت الملك للفتنة، وقد تيسرت له كل السبل لفعلها، كما ذكره الله في كتابه العزيز: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأُتْرُبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل تستمر المطاردة ويزيد الطلب، حتى استبقا الباب؛ هارباً منها، وقطعت قميصه من دُبُرٍ، وعندما جاء زوجها عزيز مصر كذبت على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفاوضته على عدم دخول السجن مقابل فعله الفاحشة.

فأبى، ودخل السجن، وتحمل ألمه وأذاه، هرباً من الشهوة المحرمة.

والناظر في هذه القصة يرى توفر جميع الدواعي التي تسهل لنبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الفاحشة، فقد كان عزباً، والعزب ليس له مصرف يصرف فيه شهوته!، وغريباً، والغريب لا يستحي مما يستحي منه ابن البلد، ولا يخشى الفضيحة؛ لغربته.

وكانت المرأة ذات منصب وجمال، وكان خادمها، ولها عليه الأمر والنهي، ولم يكن دخوله إلى البيت مريباً، بل يستطيع دخوله متى شاء! وكان الرقيب (زوجها) غائباً! وكان الزوج قليل الغيرة، فعندما سمع بالخبر لم يتخذ الإجراءات المتوقعة، بل اكتفى بأمر يوسف بالإعراض، وأمر زوجته بالاستغفار!.

وكانت الدعوة منها؛ مما أسقط الحواجز النفسية، وسهل الأمر عليه، مع مطاردتها له وتهديده بالسجن، واستعاتتها بكيد النسوة، ومع ذلك كله: صبر وصابر واعتصم بربه ومولاه. فانظر كيف قاوم الفتنة، فأعقبه الله عَزَّجَلَّ الدرجة العالية، فاستخلصه واصطفاه، وجعله من المحسنين المخلصين.

فما الأسباب والمقومات التي كانت عند يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى صبر؟
أولاً: خوفه من الله سبحانه.

ثانياً: إعانة الله وتوفيقه له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أبلغ من: (لنصرفه عن السوء والفحشاء)؛ لأن الآية تدل على أن السوء والفحشاء قد صرفا عنه، بحيث لو أراد هو أن يقع فيهما لم يستطع؛ لأنه لا يجدهما.

ثالثاً: فراره من سبب المعصية، لم يقل: إني أخاف الله رب العالمين، وقعد في البيت. بل قالها وهرب منها، وحاول الخروج من باب البيت.

إن مغادرة مكان المعصية تعين على النجاة من الشهوة المحرمة، والبقاء بين أطرافها يشجع على الحرام، ويغري به، فاهرب بدينك من أماكن الحرام.

رابعاً: استعانتته بالدعاء ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

خامساً: كونه صالحاً تقياً ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

سادساً: اختياره الأذى على فعل الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

إن في هذه القصة من العبر والعظات ما يوجب على المسلم -خاصة الشباب- أخذ العبرة، والاستفادة من دروسها، والأمر عليها مرور المستعلم المستكشف فحسب، بل المتعلم المستفيد.

قصة جريج العابد:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... كَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: لَأَفْتِنَنَّ جُرَيْجًا. فَتَعَرَّضْتُ لَهُ فَكَلَّمْتُهُ، فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمَكَّتَهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلَامًا، فَقَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ. فَأَتَوْهُ وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ، فَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ؟ قَالَ: الرَّاعِي...»^(١).

فانظر كيف أنطق الله الغلام؛ تكريماً ورفعة لشأن جريج؛ حيث ترك هذه المرأة، مع قدرته عليها قدرة تامة؛ خشية من الله.

قصة السري بن دينار رَحِمَهُ اللهُ:

نزل السري بن دينار في درب بمصر، وكانت فيه امرأة جميلة فنتت الناس بجماها، فعلمت به المرأة، فقالت: لأفتننه، فلما دخلت من باب الدار تكشفت وأظهرت نفسها، فقال: مالك؟ فقالت: هل لك في فراش وطيء وعيش رخي، فقال:

وَمَاتَ فَخَلَّاهَا وَذَاقَ الدَّوَاهِيَا	وَكَمْ ذِي مَعَاصِرٍ نَالَ مِنْهُنَّ لُدَّةً
وَتَبَقَى تِبَاعَاثُ الْمَعَاصِي كَمَا هِيََا	تَصَرَّمُ لُدَّاتُ الْمَعَاصِي وَتَنْقُضِي
لِعَبْدٍ بَعَيْنِ اللَّهِ يَغْشَى الْمَعَاصِيَا ^(٢)	فِيَا سَوَاتِنَا وَاللَّهِ رَاءٍ وَسَامِعٌ

قصة أبي بكر المسكيني رَحِمَهُ اللهُ:

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «قِيلَ لِأَبِي بَكْرِ الْمَسْكِينِي: إِنَّا لَنَشْمُ مِنْكَ رَائِحَةَ الْمَسْكِ مَعَ الدَّوَامِ، فَمَا سَبَبُهُ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لِي سَنِينَ عَدِيدَةٌ لَمْ أَسْتَعْمَلِ الْمَسْكَ، وَلَكِنْ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ امْرَأَةً احْتَالَتْ عَلَيَّ حَتَّى أَدْخَلْتَنِي دَارَهَا، وَأَعْلَقَتْ دُونِي الْأَبْوَابَ، وَرَاوَدْتَنِي عَنِ نَفْسِي، فَتَحِيرْتُ فِي أَمْرِي، فَضَاقَتْ بِي الْحَيْلُ، فَقُلْتُ لَهَا: لِي حَاجَةٌ إِلَى الطَّهَارَةِ، فَأَمَرْتُ جَارِيَةَ لَهَا أَنْ تَمْضِي بِي إِلَى بَيْتِ الرَّاحَةِ، فَفَعَلْتُ، فَلَمَّا دَخَلْتُ بَيْتَ الرَّاحَةِ أَخَذْتُ الْعَدْرَةَ، وَأَلْقَيْتَهَا عَلَى جَمِيعِ جَسَدِي، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَيْهَا وَأَنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، فَلَمَّا رَأَتْنِي دَهَشَتْ، ثُمَّ أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِي، فَمَضَيْتُ وَاغْتَسَلْتُ.»

(١) رواه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠).

(٢) ذم الهوى (ص ٢٥٣)، روضة المحبين (ص ٣٣٩).

فلما كانت تلك الليلة، رأيت في المنام من يقول لي: فعلت ما لم يفعله غيرك، لأطيبن ريحك في الدنيا والآخرة. فأصبحتُ والمسك يفوح مني، واستمر ذلك إلى الآن»^(١).

ومن قصص النساء:

بينما عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطوف ببيوت المسلمين يتفقد أحوالهم، إذ سمع امرأة وهي تقول:

تطاول هذا الليل واسودَّ جانبه وأرّقني أن لا حبيب ألاعبه
فلولا الذي فوق السموات عرشه لزُرع من هذا السريرِ جوانبه

فأصبح عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأرسل إليها، فقال: «أنت القائلة كذا وكذا؟» قالت: نعم، قال: «ولم؟» قالت: أجهزت زوجي في هذه البعوث، فسأل عمر حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كم تصبر المرأة من زوجها؟» فقالت: ستة أشهر، فكان عمر بعد ذلك يُقفل [يُرْجَع] بعوثه لسته أشهر^(٢).



(١) المواعظ والمجالس (ص ٢٢٤).

(٢) مصنف عبدالرزاق (١٥٢/٧)، سنن البيهقي (٢٩/٩).

من قصص الساقطين في مستنقع الشهوات

على نقيض هؤلاء الصابرين حفل التاريخ بقصص أناس سقطوا في مستنقع الشهوات:

- فهذا رجل كان ممن يجاهد في بلاد الروم، فلما كان في بعض الغزوات والمسلمون يحاصرون بلدة من بلاد الروم؛ إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن، فهويها فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصر وتصعد إليّ.

فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غمًا شديدًا، وشق عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان، ما فعل قرآنك؟! ما فعل علمك؟! ما فعل صيامك؟! ما فعل جهادك؟! ما فعلت صلاتك!؟

فقال: اعلموا أني أنسيت القرآن كله، إلا قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٤﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ [الحجر: ٢-٣].^(١)

- وَيُرَوَّى أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ رَجُلٌ يَلْزِمُ مَسْجِدًا لِلْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ، وَعَلَيْهِ بَهَاءُ الطَّاعَةِ وَأَنْوَارُ الْعِبَادَةِ، فَرَقِيَ يَوْمًا الْمَنَارَةَ عَلَى عَادَتِهِ لِلْأَذَانِ، وَكَانَ تَحْتَ الْمَنَارَةِ دَارٌ لِنَصْرَانِيٍّ، فَاطَّلَعَ فِيهَا، فَرَأَى ابْنَةَ صَاحِبِ الدَّارِ فَافْتِنَ بِهَا، فَتَرَكَ الْأَذَانَ، وَنَزَلَ إِلَيْهَا، وَدَخَلَ الدَّارَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ وَمَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُكَ، فَقَالَتْ: لِمَاذَا؟ قَالَ: قَدْ سَبَّيْتُ لُبِّي، وَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَلْبِي، قَالَتْ: لَا أَجِيبُكَ إِلَى رِيَّةٍ أَبَدًا، وَقَالَ: أَتَزَوَّجُكَ؟ قَالَتْ: أَنْتَ

(١) البداية والنهاية (١١/٧٤).

مُسْلِمٌ، وَأَنَا نَصْرَانِيَّةٌ، وَأَبِي لَا يُزَوِّجُنِي مِنْكَ، قَالَ: أَتَنْصَرُّ، قَالَتْ: إِنْ فَعَلْتَ أَفْعُلُ، فَتَنْصَرَ الرَّجُلُ لِيَتَزَوَّجَهَا، وَأَقَامَ مَعَهُمْ فِي الدَّارِ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، رَقِيَ إِلَى سَطْحٍ كَانَ فِي الدَّارِ، فَسَقَطَ مِنْهُ فَمَاتَ، فَلَمْ يَظْفَرْ بِهَا، وَفَاتَهُ دِينُهُ^(١).

نسأل الله الثبات!



(١) الجواب الكافي (ص ١١٨).

الخاتمة

إن الشهوة التي يعاني منها الشباب والفتاة لم تخلق لأهل الفساد وحدهم، فالصالحون والصالحات الذين يعيشون حالة التسامي والعفة، والذين يشتغلون بالدعوة وطلب العلم وتعليم الخلق ونشر الخير، تدعوهم أنفسهم إلى مقارفة الشهوات، بل ربما كانت الشهوة لدى بعضهم أقوى مما لدى المعرضين، ولكنهم كبحوا جماح شهوتهم؛ طاعة لربهم، ورغبة في ثوابه.

فمن عاين بعين بصيرته هذه الدنيا نال خيرها ونجا من شرها، ومن لم ير العواقب غلب عليه الحسّ فعاد عليه بالألم.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل بيننا وبين الحرام برزخاً وحجراً محجوراً، وأن يجعلنا من الذين إذا أسأوا استغفروا، وإذا أحسنوا استبشروا، وأن يجعل هواناً فيما يحب ويرضى. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.



اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. ما المقصود بالشهوة؟
٢. اذكر ثلاثة أسباب تؤدي للوقوع في الشهوة المحرمة.
٣. لغض البصر فوائد كثيرة، اذكر أبرزها.
٤. كيف نعالج الشهوة المحرمة؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. لماذا خلقت الشهوة؟
٢. إذا تعرضت لك شهوة محرمة، فكيف تتعامل معها؟

٣. لماذا قُدِّمَ غضُّ البصر على حفظ الفرج؟

٤. كيف تتعامل مع الخواطر السيئة؟

٥. ماذا نستفيد من قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع امرأة العزيز؟



مفسدات القلوب



اتباع الهوى



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله،
وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن اتباع الهوى عن الخير صاّد، وللعقل مضادّ؛ لأنه يُنتج من الأخلاق قبائحها، ويُظهر
من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً، ومدخل الشر مسلوکاً.

الهوى مطية الفتنة، والدنيا دار المحنة، فانزِل عن الهوى تسلم، وأعرض عن الدنيا تغنم،
ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي، ولا تفتننك الدنيا بحسن العواري، فمدة اللهو تنقطع،
وعارية الدهر تُرتجع، ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم، وتكتسبه من المآثم.

الهوى هو العدو الأعظم الذي يجب على الإنسان أن يقاتله ويحاربه أشد مما يحارب أي
عدو، يقول أبو حازم رَحِمَهُ اللهُ: «قاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك»^(١).

الهوى هو أساس كل فتنة، وسبب كل بلية.

يا نَفْسُ تُوبِي فَإِنَّ السَّمَوْتَ قَدْ حَانَا واعصِ الهَوَى فَالهَوَى ما زالَ فِتَانَا

ولما كان هذا شأن الهوى؛ وجب الحديث عنه حتى نبتعد عن هذا المرض الخطير، والشر
المستطير.

(١) حلية الأولياء (٣/ ٢٣١).

وستتطرق في هذا الفصل إلى تعريف الهوى، وأضراره، وفوائده مخالفته، وأسباب اتباعه، وطرق علاجه، والفرق بين المحمود منه والمذموم.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة وإخراجها بالصورة المرضية. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.



تعريف الهوى

الهوى في اللغة:

مصدر (هَوَيْه) إذا أَحَبَّه واشتَهاه^(١).

الهوى في الاصطلاح:

هو: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع^(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل خُلِقَ في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحث له لما يريد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه»^(٣).



(١) المغرب في ترتيب المعرب (٢/ ٣٩٢).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص ٣٢٠).

(٣) روضة المحيين (ص ٤٦٩).

النهي عن اتباع الهوى

تواطأت الأدلة الشرعية على النهي عن اتباع الهوى، وقد نهجت هذه الأدلة أكثر من منهج وطريق لأجل ذلك:

فتارة يأتي الدليل في النهي عن الهوى مطلقاً:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَوَىَّ بَعْضِهِمْ غَرَبَتِ الصُّلُوحُ فَكَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَدَّعُونَ﴾ [النساء: ٢٦].

وتارة يأتي الدليل في النهي عن اتباع أهواء أهل الكفر والضلال:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وأمر سبحانه نبيه أن يقول للكفار: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَذَلِّكَ فَأَدْعُ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فأضاف الله عز وجل الهوى إلى الكفار والمشركين؛ لأن أهواءهم ضالة عن الحق، بخلاف المؤمن، فإن الكافر هو اهواه كله باطل، والمؤمن قد يرتقي هواه حتى يصير موافقاً لما أمر به سبحانه، وتابعاً لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا مال إلى شيء كان ذلك الشيء سنة وطاعة، وعلى أدنى الأحوال قد يكون مباحاً. قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤].

وتارة يرد الدليل بدم الهوى المضاف إلى النفس الأمانة بالسوء:

عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العاجز من أتبع نفسه هواها»^(١).

وقد يرد الدليل بدم الهوى المضاف إلى القلب:

عن حذيفة رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نَكِتَ فِيهِ نَكِتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نَكِتَ فِيهِ نَكِتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ»^(٢).

فأضاف الهوى إلى القلب.



(١) رواه ابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم (٧٦٣٩)، وصححه، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه.

(٢) رواه مسلم (١٤٤).

متى يُعاقب الإنسان على هواه؟

الهوى شيء ملازم للإنسان، لا يستطيع مفارقتة ولا تركه، فالله جبل النفس البشرية على ذلك، فهل يعاقب الإنسان على هواه وشهوته كلما هوى واشتهى؟! وهل الإنسان مطالبٌ باستخراج الهوى من نفسه وقلبه، ونبذه خارجاً عنه؟! أم أن لذلك ضوابط وحدوداً؟!

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «نفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه، بل على اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها؛ كان نهيه عبادة لله، وعملاً صالحاً»^(١).

فهذه هي حال المسلم الصادق؛ لا تزال نفسه تأمره بكذا وكذا، وهو يجاهدها وينهاها عن مساوئ شهواتها، ويخاف ربه في تلك المقامات التي تأمره بها، ومن كانت هذه حاله فله الجزاء الحسن، قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

فالهوى لا يعاقب عليه إلا عند العمل به، فالرجل قد يهوى المعصية ويتمناها، فإذا صدق ذلك بالعمل حوسب على هواه وعمله.

عن أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كُتِبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّانَا، مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ: فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظْرُ، والأذُنَانِ زِنَاهُمَا الإِسْتِجَاعُ، واللِّسَانُ زِنَاهُ الكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا البَطْشُ، والرَّجْلُ زِنَاهَا الخَطَا، والقلبُ يهوى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الفَرْجُ وَيُكَدِّبُهُ»^(٢).



(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٣٥).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧). واللفظ لمسلم.

أسباب اتباع الهوى

إن اتباع الهوى له أسباب عدة، تدعو الناس إليه، فلماذا يتبع الناس أهواءهم؟، ولماذا يعرضون عن الحق واتباع الصراط المستقيم؟
لذلك عدة أسباب، منها:

أولاً: عدم التعود على ضبط الهوى من الصغر:

قد يلقى الطفل في صغره من أبويه حباً مفرطاً، وحناناً زائداً، حيث يلبيان له جميع رغباته، ويأتيانه بكل ما يشتهيهِ ويتمناه، لا يفرقان بين حرام وحلال، أو بين ممنوع ومسموح.
فإذا نام عن صلاة الفجر تركه والداه وقالوا: مرهق نعسان، وإذا أراد لعبةً من الألعاب أتياه بها وتغاضيا عما فيها من الموسيقى، أو المناظر الخليعة، وله سائق خاص، يذهب به حيث يريد.

فينشأ الطفل على اتباع هواه، كلما أراد شيئاً حصَّله وفعله، لا يردعه رادع، ولا يمنعه وازع، حتى إذا بلغ مبلغ التكليف انطلق هواه شرقاً وغرباً، وركضت جوارحه خلف هواه لتحقيق تلك الأمانى والأحلام، خاصةً مع فترة المراهقة، فيفعل الجرائم العظام، والأمور الكبار، وليس من سبيلٍ لدفعه عن ذلك ولا منعه.

وقد عمل الصحابة رضي الله عنهم في تربية أبنائهم على اعتياد ضبط النفس منذ الصغر، فكانوا يحاولون معهم في الصيام، والصلاة، والحج، وغير ذلك من الأمور الشرعية.

عن الرُّبَيْع بنت معوذ رضي الله عنها قالت: أرسل النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: «مَنْ أَصْبَحَ مُفْطِراً فَلْيُتِمِّمْ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ، وَمَنْ أَصْبَحَ صَائِماً فَلْيَصُمْ»، قالت: فَكُنَّا

نَصُومُهُ بَعْدُ، وَنُصُومٌ صَبِيانَنَا، وَنَجْعَلُ لَهُمُ اللَّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ، فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ
أَعْطَيْنَاهُ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ الْإِفْطَارِ^(١).

وتربية الطفل على نيل ما يتمناه لا تعود عليه بالضرر الديني فقط، بل هي ضارة له في
دنياه أيضاً، فقد يصيب الأهل شيئاً من مصائب الدنيا وجوائحها، فيذهب عنهم ما لهم،
وتضيق عليهم معيشتهم، أو قد يتوفى معيل الأسرة، ففي ذلك الوقت كيف ستُلبى لهذا
الطفل رغباته؟! وكيف سينال أمانيه وأحلامه!؟

ثم بعد ذلك إذا خاض غمار الحياة ومعتزكها سيجد أن أهله ليسوا قادرين على إعطائه
كل ما يتمناه، خاصةً إذا دخل مرحلة الاستقلال بالنفس، وبناء بيت الزوجية، فسيتمنى أن
يعمل عملاً معيناً، ولا يستطيع الوصول إليه.

وكذلك الفتاة التي تعودت على الدلال والرفاهية، قد تتزوج شخصاً ليس في مستوى
أهلها المالي، فتتبرم من ذلك وتتأفف، وقد تعير زوجها بأنه فقير، وتدخل حياتها في دوامة
من الصراعات والنزاعات التي تفسد عليها استقرارها النفسي، وراحتها مع زوجها.

ثانياً: مجالسة أهل الأهواء ومصاحبتهم:

إن العواطف والدوافع تنمو بالمجالسة وطول الصحبة، فمن لازم مجالسة أهل الهوى
وأدام صحبتهم فلا بد أن يتأثر بهم، لاسيما إن كان ضعيف الشخصية، وعنده قابلية للتأثر
بمن حوله.

ولذلك كان السلف ينهون عن مجالسة أهل البدع والأهواء، قال أبو قلابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا
تُجَالِسُوا أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ»، أو قَالَ «أَصْحَابَ الْخُصُومَاتِ؛ فَإِنِّي لَا أَمْنُ أَنْ يَغْمِسُوكُمْ فِي
ضَلَالَتِهِمْ، أَوْ يَلْبِسُوا عَلَيْكُمْ بَعْضَ مَا تَعْرِفُونَ»^(٢).

وقال البغوي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَعَلِمَاءُ السَّنَةِ مُتَّفِقُونَ عَلَى مُعَادَاةِ أَهْلِ الْبِدْعَةِ، وَمُهَاجَرَتِهِمْ»^(٣).

(١) رواه البخاري (١٩٦٠)، ومسلم (١١٣٦).

(٢) السنة لعبد الله بن أحمد (٩٩).

(٣) شرح السنة (١/٢٢٧).

ثالثاً: ضعف المعرفة الحقة بالله، والدار الآخرة:

الذي لا يقدر ربّه حق قدره؛ لا يبالي إذا أغضبه، أو عصاه، ليس في قلبه توقيّر لله ولا تعظيم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

رابعاً: عدم قيام الآخرين بما يجب عليهم نحو صاحب الهوى:

تقصير الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ يؤدي إلى تمادي صاحب الهوى في هواه، ومضيه في طريقه بلا مبالاة، حتى يتمكن الهوى من قلبه، ويسيطر على سلوكياته وتصرفاته.

ولذلك جاء الإسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال جل شأنه: ﴿وَعَظَّمْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

فإذا تعود الناس كافةً على إنكار المنكر؛ كان رادعاً لأصحاب الهوى عن التماذي في طريقهم.

خامساً: حب الدنيا والركون إليها:

من أحب الدنيا، وركن إليها، ونسي الآخرة؛ تولّد عنده سعي حثيث لتلبية كل ما يفرضه هذا الحب، وذلك الركون، حتى وإن كان مخالفاً لمنهج الله، وذلك بعينه هو اتباع الهوى.

وقد لفت المولى النظر إلى هذا السبب، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

سادساً: المسارعة في الحصول على ما تشتهي النفس من المباحات:

الإنسان متى ما دعت نفسه إلى شيءٍ من المباحات أسرع إلى إيجابتها، وقد كان أهل العلم يربّون طلابهم على مخالفة ما تهواه أنفسهم من المباحات.

دخل خَلْف بن خليفة على سليمان بن حبيب بن المهلب رَحِمَهُمُ اللهُ بالأهواز، وعند سليمان جارية له يقال لها: البدر، من أحسن الجوارى وجهاً وأكمله، فقال سليمان لخلف: كيف ترى هذه الجارية؟ فقال: أصلح الله الأمير، ما رأيت عيناى جارية قط أحسن منها، فقال: خُذْ بيدها. فقال خلف: ما كنتُ لأفعل، ولا أسلبها الأمير، وقد عرفتُ عَجْبَهُ بها. فقال: خُذْها - ويحك - على عجبى بها؛ ليعلم هَوَايَ أَنِي غالب.

فَأَخَذَ بيدها وخرج وهو يقول:

لَقَدْ حَبَانِي وَأَعْطَانِي وَفَضَّلَنِي عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ مِنِّي سُلَيْمَانُ
أَعْطَانِي الْبَدْرَ خَوْدًا فِي مَجَاسِدِهَا وَالْبَدْرُ لَمْ يُعْطَهُ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ!!^(١)

فحرمان النفس من بعض المباحات؛ لأجل التعويد على الصبر، يعود عليها بالنفع، خاصة إذا واجهت شهواتها وأمانيتها المحرمة، ولكن إذا كانت قد عودت على نيل المباحات، فإنها تضعف أمام المحرمات.

سابعاً: الجهل بالعواقب المترتبة على اتباع الهوى:

الجهل بعاقبة الشيء دأب إلى ممارسته، وللهوى أضرار ومفاسد قد تدفع صاحب الهوى إلى ترك هواه إذا علمها.

أنشد أحمد بن القاسم الطبراني:

سَاحِذَرُ مَا يُخَافُ عَلَيَّ مِنْهُ وَأَتْرُكُ مَا هَوَيْتُ لِمَا خَشِيتُ^(٢)



(١) ذم الهوى (ص ٢٦).

(٢) تاريخ دمشق (٧/٣٧٢).

أضرار اتباع الهوى

الهوى له أضراره الكثيرة، العاجلة والآجلة، والتي تمنع الإنسان من التلذذ به، وتنسيه ما كان قد تنعم به.

وقد قيل: «إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم؛ فإن عاجلها ذميم، وأجلها وخيم، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب، فسوفها بالتأميل والإرغاب، فإن الرغبة والرغبة إذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت»^(١).

فما هي أضرار اتباع الهوى؟

خسران الآخرة:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

قال الشعبي رحمه الله: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْهَوَىٰ لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ»^(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «مَنْ كَانَ الْأَجُوفَانَ هَمًّا؛ خَسِرَ مِيزَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣)، ويقصد بالأجوفين: شهوة البطن، وشهوة الفرج.

وصاحب الهوى تراه في ذلك اليوم متخبطاً بسبب هواه، ويصرع عن النهوض يوم القيامة، والسعي مع الناجين، كما صرّع في الدنيا بمرافقته لأهل الأهواء، قال محمد بن أبي

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٢١).

(٢) سنن الدارمي (٣٩٥).

(٣) الزهد لابن المبارك (١/٢١٧).

الورد رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ يَوْمًا لَا يَنْجُو مِنْ شَرِّهِ مَنْقَادَ لِهَوَاهُ، وَإِنْ أَبْطَأَ الصَّرْعَى نَهْضَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرِيحُ الشَّهْوَةِ»^(١).

وقال ابن عطاء رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ غَلَبَ هَوَاهُ عَقْلُهُ وَجَزَعُهُ صَبْرُهُ افْتَضِحَ»^(٢). أي: افتضح يوم الدين الفضيحة الكبرى، بخسرانه الآخرة ودخوله النار.

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللهُ: «الهُوَى يُرِدِي، وَخَوْفُ اللَّهِ يَشْفِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا يُزِيلُ عَن قَلْبِكَ هَوَاكَ إِذَا خِفْتَ مَنْ تَعَلَّمَ أَنَّهُ يَرَاكَ»^(٣).

الهوى يقود إلى الضلال:

أصل كل ضلال اتباع الظن والهوى، قال سبحانه في أصحاب الضلال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]؛ فلأجل اتباعهم الظن وهوى النفس وقعوا في الضلال.

ولا يكتفي الهوى بإضلال صاحبه؛ بل يتعداه إلى إضلال الآخرين وإبعادهم عن الطريق، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩] أي: يضلون غيرهم بسبب هواهم.

عدم الانتفاع بالقرآن والمواظب:

الهوى يصد عن فهم القرآن، والانتفاع بمواعظه وأحكامه، وقد كان أصحاب الأهواء يستمعون القرآن من في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة، ومع ذلك لم يكونوا ينتفعون به، يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

فعدم الاستجابة لأوامر القرآن والسنة هي دليل اتباع الهوى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

(١) صفة الصفوة (٢/ ٣٩٥).

(٢) ذم الهوى (ص ٢٧).

(٣) حلية الأولياء (٨/ ١٨).

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنَّمَا أَحَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَتَيْنِ: طُولَ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعَ الْهَوَى، فَإِنَّ طُولَ الْأَمَلِ يُنْسِي الْأَجْرَةَ، وَإِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَرَحَّلَتْ مُدْبِرَةً، وَإِنَّ الْأَجْرَةَ مُقْبِلَةٌ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْأَجْرَةِ، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»^(١).

الهوى يُفسد القلب ويجول بينه وبين السلامة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الشَّرِكِ، وَالغُلِّ، وَالْحَقْدِ، وَالْحَسَدِ، وَالشُّحِّ، وَالْكِبْرِ، وَحُبِّ الدُّنْيَا، وَالرِّيَاسَةِ، فَسَلِمَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ اللَّهِ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبْرَهُ، وَمِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ تُعَارِضُ أَمْرَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ إِرَادَةٍ تُزَاحِمُ مُرَادَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُ عَنِ اللَّهِ، فَهَذَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ فِي جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَفِي جَنَّةٍ فِي الْبَرَزَخِ، وَفِي جَنَّةٍ يَوْمَ الْمَعَادِ. وَلَا تَبِمَّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقًا حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ شَرِكٍ يُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ، وَبِدْعَةٍ تُخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تُخَالِفُ الْأَمْرَ، وَعَقْلَةٍ تُنَاقِضُ الذِّكْرَ، وَهَوَى يُنَاقِضُ التَّجْرِيدَ وَالْإِخْلَاصَ. وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ حُجُبٌ عَنِ اللَّهِ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، تَتَضَمَّنُ أَفْرَادًا لَا تَنْحَصِرُ؛ وَلِذَلِكَ اشْتَدَّتْ حَاجَةُ الْعَبْدِ، بَلْ ضُرُّ وَرْتُهُ، إِلَى أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحْوَجَ مِنْهُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا»^(٢).

سبب لذهاب العقل والعلم:

قال المعتصم يوماً لأبي إسحاق الموصلي: «يا أبا إسحاق، إِذَا نُصِرَ الْهَوَى ذَهَبَ الرَّأْيُ»^(٣). وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِشَيْخِنَا ابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا خَانَ الرَّجُلُ فِي نَقْدِ الدَّرَاهِمِ سَلَبَهُ اللَّهُ مَعْرِفَةَ النَّقْدِ أَوْ نَسِيَهُ، فَقَالَ الشَّيْخُ: هَكَذَا مِنْ خَانَ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولَهُ فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ»^(٤).

فمن اتبع هواه فيها فإن الله عزَّ وجلَّ يسلبه العقل والعلم.

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٤٩٥).

(٢) الجواب الكافي (ص ٥٨-٥٩).

(٣) تاريخ بغداد (٢/٣١١).

(٤) روضة المحبين (ص ٤٨٠).

الانسلاخ من الإيمان دون الشعور بذلك:

قال تعالى: ﴿وَأْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَأَنْسَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكُفِرَ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرِكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

قال بعض العلماء: «الكفر في أربعة أشياء: في الغضبِ والشهوةِ، والرغبةِ، والرهبيةِ» ثم قال: «رأيت منه اثنتين: رجلاً غضبَ فقتلَ أمه، ورأيتُ رجلاً عشقَ فتنصَّرَ»^(١).

وكان أحدهم يطوف بالبيت، فنظر إلى امرأة جميلة، فمشى إلى جانبها، ثم قال:
 أهوى هوى الدين واللذات تُعجِبني فكيف لي بهوى اللذات والدين
 فقالت: «دع أحدهما تنل الآخر»^(٢).
 فلا يمكن الجمع بين الهوى والدين.

الهوى مهلك من المهلكات:

عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوَى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»^(٣).

وعن وهب بن منبه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «أعوان الأخلاق على الدين: الزهادة في الدنيا، وأوشكها ردَى: اتباع الهوى، ومن اتباع الهوى: الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة في الدنيا: حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف: استحلال المحارم، ومن استحلال المحارم يَغضب الله، وغضب الله الداء الذي لا دواء له إلا رضوان الله، ورضوان الله دواء لا يضر معه داء، ومن يريد أن يرضي ربه: يسخط نفسه، ومن لا يسخط نفسه لا يرضي ربه، إن كان كلما ثقل على الإنسان شيء من دينه تركه، أو شك أن لا يبقى معه شيء»^(٤).

(١) ذم الهوى (ص ٢٤).

(٢) روضة المحبين (ص ٤٧٩).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٩).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥١٦٨).

يُغلق على العبد أبواب التوفيق:

قال الفضيل بن عياض: «من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات؛ انقطعت عنه موارد التوفيق»^(١).

فصاحب الهوى يتخبط في طريقه، ولا يوفق إلى الطريق المستقيم؛ لأنه أعرض عن مصدر الهداية والتوفيق، وصار متبعاً لهواه، لا للكتاب والسنة، فكيف يوفق للطريق الصحيح!، قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مَن بَعَدَ اللَّهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

الهوى سبب لتلاشي الطاعة وانعدامها:

لأن صاحب الهوى يعز عليه ويكبر في نفسه أن يطيع غيره، حتى لو كان خالقه، وبعض الناس ما أوقعهم في الكفر إلا هذا؛ لأن الهوى تمكن من قلبه ومملك عليه أقطار نفسه، فصار له أسيراً، وصار هواه موقعاً له في الغرور، والإنسان ليس له قلبان في جوفه، فإما أن يطيع ربه، وإما أن يطيع نفسه وهواه وشيطانه.

سبب للاستهانة بالذنوب والآثام:

فإن المتبع للهوى يقسو قلبه، وإذا قسا القلب استهان بالذنوب والآثام، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَىٰ أُنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»^(٢).

سبب للابتداع في الدين:

قال حماد بن سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حدثني شيخ للرافضة تاب، قال: كنا إذا اجتمعنا واستحسننا شيئاً جعلناه حديثاً»^(٣).

(١) روضة المحبين (ص ٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٨).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي (١/١٣٨).

سبب لضيق المعيشة وعداوة الناس:

إن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه؛ فاستراح وأراح، ومن أطاع هواه عاش عيشة مظلمة، وكره الناس وكرهوه.

وقال الحسن: «حادثوا هذه القلوب بذكر الله، فإنها سريعة الدثور، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلاعة، وإنما تنزع إلى شر غاية، وإنكم إن تطيعوها في كل ما تنزع إليه، لا تبقي لكم شيئاً»^(١).

وقال أبو بكر الوراق رَحِمَهُ اللهُ: «إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق، وإذا أبغضه الخلق أبغضهم»^(٢).

ثم إذا كبر الإنسان وبلغ مبلغ الشيخوخة وجد مساوئ اتباعه لهواه، قال الشاعر:

مَآرِبُ كَانَتْ فِي الشَّبَابِ لِأَهْلِهَا عِذَاباً فَصَارَتْ فِي الْمَشِيْبِ عِذَاباً^(٣)

أي: مآرب وحاجات كانت عذبة وجميلة للمرء عندما كان شاباً؛ انقلبت عليه عذاباً في مشيبيه.

سبب تمكين الإنسان لعدوه منه:

فإن أعدى عدو للمرء شيطانه، وأصدق صديق له عقله الناصح له، والمملك الذي يلهمه الخير، فإذا اتبع هواه أعطى نفسه بيده لعدوه واستأسر له، وهذا بعينه جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشهامة الأعداء.

وكان يقال: «إذا غلب عليك عقلك فهو لك، وإذا غلب هواك فهو لعدوك»^(٤).

(١) الزهد لابن المبارك (١/ ٩١).

(٢) ذم الهوى (ص ٢٩).

(٣) الفوائد (ص ٤٦).

(٤) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص ١٧٢).

سبب لنيل ذم الناس:

يقال: إن هشام بن عبد الملك لم يقل بيت شعر قط، إلا هذا البيت:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالٌ^(١)

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «لو قال: إلى كل ما فيه عليك مقال؛ كان أبلغ وأحسن»^(٢). وللشافعي:

إِذَا حَارَ وَهْمُكَ فِي مَعْنِيَيْنِ

وَأَعْيَاكَ حَيْثُ الْهَوَى وَالصَّوَابِ

فَدَعِ مَا هَوَيْتَ فَإِنَّ الْهَوَى

يُقُودُ النَّفْسَ إِلَى مَا يُعَابُ^(٣)

سبب للذل والهوان:

قال ابن المبارك:

وَمَنْ الْبَلَاءِ وَاللِّبَاءِ عِلْمَةٌ

أَنْ لَا تَرَى لَكَ عَنْ هَوَاكَ نُزُوعٌ

الْعَبْدُ عَبْدُ النَّفْسِ فِي شَهَوَاتِهَا

وَالْحُرُّ يَشْبَعُ مَرَّةً وَيَجُوعُ^(٤)

وسئل أحد الحكماء عن الهوى، فقال: «هوانٌ سُرقت نونه». وقد أخذ ذلك المعنى أحد الشعراء، فصاغه بقوله:

نُونُ الْهَوَانِ مِنَ الْهَوَى مَسْرُوقَةٌ

فَإِذَا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقَيْتَ هَوَانًا^(٥)

(١) البداية والنهاية (٩/٣٥٢).

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص ١٧١).

(٣) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص ١٧١).

(٤) تاريخ دمشق (٣٢/٤٦٨).

(٥) تفسير القرطبي (١٦/١٦٨).

وقال الشاعر:

وَلَقَدَرَأَيْتُ مَعَاشِرًا جَمَحَتْ بِهِم
 تَهْوَى نُفُوسُهُمْ هَوَىٰ أَجْسَامِهِمْ
 تَبْعُوا الْهَوَىٰ فَهَوَىٰ بِهِمْ وَكَذَا الْهَوَىٰ
 فَانظُرْ بَعَيْنَ الْحَقِّ لَا عَيْنَ الْهَوَىٰ
 قَادَ الْهَوَىٰ الْفُجَّارَ فَانْقَادُوا لَهُ
 تِلْكَ الطَّبِيعَةُ نَحَوَ كُلِّ تَبَارٍ
 شُغْلًا بِكُلِّ دَنَاءَةٍ وَصَغَارٍ
 مِنْهُ الْهَوَانُ بِأَهْلِهِ فَحَذَارٍ
 فَالْحَقُّ لِلْعَيْنِ الْجَلِيلَةِ عَارِي^(١)
 وَأَبَتْ عَلَيْهِ مَقَادَةُ الْأَبْرَارِ^(٢)



(١) عاري: واضح، ليس عليه غطاء يستره ويخفيه.

(٢) التبصرة لابن الجوزي (١/١٥٥).

فوائد مخالفة الهوى

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «أفضل الجهاد: جهاد الهوى»^(١).
وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «أشجع الناس: أشدهم من الهوى امتناعاً، ومن المُحَقَّرَاتِ تُسَجُّ الموبقات»^(٢).

والعلاج الحقيقي لأدواء القلوب في مخالفة الهوى، يقول سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: «هواك داؤك، فإن خالفته فداؤك»^(٣). فما هي الفوائد المترتبة على مخالفة الإنسان لهوى نفسه؟

نيل الجنة:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

فَمَنْ جاهد نفسه وصابرها على مخالفة هواها نال أفضل الجزاء يوم القيامة، وذلك بدخول الجنة، والعيش الهنيء والحسن، وذلك جزاء الصبر على الهوى، قال تعالى: ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي: بما صبروا عن الشهوات»^(٤).

وَأَفَّةَ الْعَقْلِ الْهَوَى فَمَنْ عَلَا عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا^(٥)

(١) الآداب الشرعية (٣/ ٢٥١).

(٢) الآداب الشرعية (٣/ ٢٥١).

(٣) تفسير القرطبي (١٦/ ١٤٤).

(٤) حلية الأولياء (٩/ ٢٦٨).

(٥) الاستذكار (٢/ ٣٦٤).

النجاة من أهوال يوم المحشر:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهُ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا؛ حَتَّى لَا تَعْلَمَ سِوَالَهُ مَا تُنْفِقُ بِيَمِينِهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهُ خَالِيًا، ففَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا تأملت السبعة الذين يظلمهم الله عَزَّجَلَّ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى؛ فإن الإمام المسلط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه، والشاب المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك، والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حملة على ذلك مخالفة الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات، والمتصدق المخفي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك، والذي دعت المرأة الجميلة الشريفة فخاف الله عَزَّجَلَّ وخالف هواه، والذي ذكر الله عَزَّجَلَّ خالياً ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه، فلم يكن لِحَرِّ الموقف وعَرَقِهِ وشدته سبيل عليهم يوم القيامة، وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحرّ والعرق كل مبلغ، وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى»^(٢).

الشرف والعلو:

قال معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «المروءة: ترك الشهوات وعصيان الهوى، فاتباع الهوى يُزمن^(٣) المروءة، ومخالفته تنعشها»^(٤).

وقيل للمهلب بن أبي صفرة رَحِمَهُ اللهُ: «بِمَ نلت ما نلت من شرف العلو والمكانة؟ قال: بطاعة الحزم، وعصيان الهوى»^(٥).

(١) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) روضة المحبين (ص ٤٨٥-٤٨٦).

(٣) أي: يصيبها بمرض مُزمن، وهو المرض الذي يدوم زمناً طويلاً.

(٤) روضة المحبين (ص ٤٧٧-٤٧٨).

(٥) العقل وفضله لابن أبي الدنيا (٩٢).

وقال بعضهم: «أشرف العلماء: من هرب بدينه من الدنيا، واستصعب قياده على الهوى»^(١).

وقال أبو علي الدقاق رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ مَلَكَ شَهْوَتَهُ فِي حَالِ شَيْبَتِهِ؛ أَعَزَّهُ اللهُ تَعَالَى فِي حَالِ كِهَوْلَتِهِ»^(٢).

قال ابن عبد القوي رَحِمَهُ اللهُ:

أَكَبَّ عَلَى اللَّذَاتِ عَصَّ عَلَى الْيَدِ	فَمَنْ هَجَرَ اللَّذَاتِ نَالَ الْمُنَى وَمَنْ
وَفِي نَيْلِهَا مَا تَشْتَهِي ذُلُّ سَرْمَدِ	وَفِي قَمْعِ أَهْوَاءِ النَّفْسِ اعْتِزَاظُهَا
وَلَا تُرْضِ النَّفْسَ النَّفِيسَةَ بِالرَّذِيِّ	وَلَا تَشْتَغِلْ إِلَّا بِمَا يُكْسِبُ الْعُلَا
وَيَسْلَمْ دِينَ السَّمْرِ عِنْدَ التَّوْحِيدِ	وَفِي خَلْوَةِ الْإِنْسَانِ بِالْعِلْمِ أَنْسُهُ
جَلِيسٍ وَمِنْ وَاشٍ بَغِيضٍ وَحُسْدِ	وَيَسْلَمْ مِنْ قَيْلٍ وَقَالَ وَمِنْ أَدَى
وَحِرْزُ الْفَتَى عَنِ كُلِّ غَاوٍ وَمُفْسِدِ	فَكُنْ جَلِيسَ بَيْتٍ فَهَوِ سِتْرَ لِعَوْرَةٍ
عُلُومًا وَأَدَابًا وَعَقْلًا مُؤَيَّدِ ^(٣)	وَخَيْرُ جَلِيسِ السَّمْرِ كُتُبُ تَفِيدُهُ

تقوية العزائم:

اتباع الهوى يجل العزائم ويوهنها، ومخالفة الهوى تشد العزائم وتقويها، والعزيمة هي مركب العبد إلى الله والدار الآخرة، فمتى تعطل المركوب تعطل المسافر.

قيل ليحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ: «من أصح الناس عزماً؟ قال: الغالب لهواه»^(٤).

حفظ الصحة:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «كان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة، وهو ممتع بقوته وعقله، فوثب يوماً وثبة شديدة، فعوتب في ذلك، فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في

(١) ذم الهوى (ص ٢٧).

(٢) روضة المحبين (ص ٤٨٣).

(٣) الآداب الشرعية (٣/٣٠٣-٣٠٤).

(٤) ذم الهوى (ص ٢٦).

الصغر؛ فحفظها الله علينا في الكبر. وعكس هذا: أن بعض السلف رأى شيخاً يسأل الناس فقال: إن هذا ضعيف، ضيع الله في صغره؛ فضيعه الله في كبره»^(١).

الحفظ من بلاء الدنيا:

قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللهُ: «أَشَدُّ الْجِهَادِ: جِهَادُ الْهَوَى، مَنْ مَنَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا فَقَدِ اسْتَرَاخَ مِنَ الدُّنْيَا وَبَلَائِهَا، وَكَانَ مَحْفُوظًا مُعَانِيًا مِنْ أَذَاهَا»^(٢).



(١) جامع العلوم والحكم (ص ١٨٦).

(٢) الزهد الكبير لليهقي (ص ٣٢٠).

علاج الهوى

مَنْ وقع في الهوى يحتاج إلى طرق لعلاج نفسه من هواها؛ لعل الله أن يرحمه ويلحقه بالصالحين.

ومن أهم الأدوية النافعة في علاج الهوى:

أولاً: الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، ودعاؤه عَزَّجَلَّ أن يقبض شر هذه الأهواء، وقد كان هذا دأب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسلف الصالح.

فعن قطبة بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ»^(١).

وقال عمر بن عبد العزيز لخالد بن صفوان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عظمي وأوجز، فقال: «يا أمير المؤمنين، إن أقواماً غرهم ستر الله، وفتنهم حسن الثناء، فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين، وبثناء الناس مسرورين، وعمّا افترض الله علينا متخلفين ومقصرين، وإلى الأهواء مائلين». فبكى، ثم قال: «أعاذنا الله وإياك من اتباع الهوى»^(٢).

وكان إبراهيم التيمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يدعو ويقول: «اللهم اعصمني بكتابك، وسنة نبيك محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من اختلاف في الحق، ومن اتباع الهوى بغير هدى منك، ومن سبيل الضلال، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ، واللبس، والخصومات»^(٣).

(١) رواه الترمذي (٣٥٩١)، وحسنه، وصححه الألباني.

(٢) حلية الأولياء (١٨/٨).

(٣) حلية الأولياء (٢١٢/٤).

ثانياً: ملء القلب بما يضاد الهوى:

وذلك بملئه بمحبة الله عَزَّوَجَلَّ، والقرب منه، حتى يخرج الهوى بالكلية من هذا القلب.

ثالثاً: مخالطة العلماء وأهل الصلاح:

قال ابن عبد القوي رَحِمَهُ اللهُ:

وَخَالِطِ إِذَا خَالَطْتَ كُلَّ مُؤَفَّقٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَهْلِ التُّقَى وَالتَّسَدُّدِ
يُفِيدُكَ مِنْ عِلْمٍ وَيَنْهَاكَ عَنْ هَوَى فَصَاحِبُهُ تُهَدِّ مِنْ هُدَاهُ وَتَرْشُدِ
وَإِيَّاكَ وَالْهَمَّازَ إِنْ قُمْتَ عَنْهُ وَال بَدِيٍّ فَإِنَّ السَّمْرَ بِالسَّمْرِ يَقْتَدِي
وَلَا تَصْحَبِ الْحَمَقَى فذُو الْجَهْلِ إِنْ يَرُم صَاحِحاً لَشَيْءٍ يَا أَخَا الْحَزْمِ يُفْسِدُ^(١)

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ جملةً من الأمور التي يمكن للمرء أن يتخلص من الهوى بالاستعانة بها - بعد عون الله له - فقال: «فإن قيل: فكيف يتخلص من هذا من قد وقع فيه؟

قيل: يمكنه التخلص - بعون الله وتوفيقه له - بأمر نذكر منها:

أحدها: عزيمة حُرِّ يغار لنفسه، وعليها.

الثاني: جرعة صبر، يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.

الثالث: قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة، والشجاعة كلها صبر ساعة، وخير عيش أدركه العبد بصبره.

الرابع: ملاحظته حسن موقع العاقبة، والشفاء بتلك الجرعة.

الخامس: ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه.

السادس: إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى، وفي قلوب عباده، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى.

السابع: إيثاره لذة العفة وعزتها وحلاوتها، على لذة المعصية.

الثامن: فرحه بغلبة عدوه، وقهره له، ورده خاسئاً بغيظه وغمه وهمه، حيث لم ينل منه أمنيته، والله تعالى يجب من عبده أن يراغم عدوه ويغيظه. كما قال الله تعالى في كتابه العزيز:

(١) الآداب الشرعية (٣/ ٣٠٤).

﴿وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]. وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم.

التاسع: معرفة أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة، وتذله في الظاهر وفي الباطن^(١).



(١) انظر: روضة المحبين (ص ٤٧١-٤٨٥).

الهوى المحمود والهوى المذموم

لا ينبغي ذم الهوى مطلقاً، ولا مدحه مطلقاً، وإنما يذم الإفراط فيه، فما زاد على جلب المنافع ودفع المضار: أصبح مذموماً.

وهناك هوى محمود، يحبه الله ورسوله، وذلك عندما تصبح النفس تهوى ما يحبه الله ورسوله.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَشَأٍ مِّنْهُنَّ وَتُؤَيَّىٰ إِلَيْكَ مِنْ نَشَأٍ مِّنْ أُمَّةٍ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأحزاب: ٥١] قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»^(١).

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يهوى بعض الأمور، وكان سبحانه وتعالى يُنزل القرآن موافقاً لهواه؛ مما يدل على أن مما تهواه النفس ما هو محمود وممدوح.

ومن الأمور التي كان يهواها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن تنتقل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وسبب ذلك - كما ذكره العلماء - أنه كان يهوى اتباع قبلة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام^(٢).

وعن أبي برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ: شَهَوَاتِ الْغِيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضَلَّاتِ الْهُوَىٰ»^(٣).

(١) رواه البخاري (٤٧٨٨).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/٢).

(٣) رواه أحمد (١٩٧٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٢).

فلم يخش النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته جميع الهوى؛ بل خشي عليهم مضلات الهوى، فالهوى قد يكون مضلاً وهو الذي يتصور منه إفساد العقل والدين، وأما الهوى غير المضل: فليس بذلك؛ لأجل هذا لم يحذر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه.

ولكن الهوى المذموم أكثر، ولأجل ذلك نجد كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار عن السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم تدم الهوى، وإنما يُراد بتلك النصوص: الهوى المذموم، لا مطلق الهوى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به؛ أطلق ذم الهوى والشهوة؛ لعموم غلبة الضرر، ولأنه يندر من يقصد العدل في ذلك، ويقف عنده؛ فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه، وكذلك في السنة، لم يجيء إلا مذموماً، إلا ما جاء منه مقيداً»^(١).

ومما ورد في السنة من الهوى الذي لا يذم: حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا السابق.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»^(٢).

فدلَّ الحديث على أن هناك من الهوى ما يكون محموداً، وهو الهوى الذي يكون تبعاً لما جاءت به الشريعة السمحاء.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - في قصة أسارى بدر - قال: لَمَّا أَسْرُوا الْأَسَارَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «مَا تَرُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً؛ فَتَكُونَ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَابِ؟» قَالَ عُمَرُ: قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلَيْنَا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِي مِنْ فُلَانٍ - نَسِيْباً لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؛ فَإِنَّ

(١) روضة المحبين (ص ٤٦٩) بتصرف.

(٢) رواه النسوي في كتاب الأربعين (٨)، وفي إسناده ضعف.

هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت...^(١).

فهذا نبي الرحمة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مال إلى قول الصديق وهويه؛ لأنه رأى فيه مصلحة الإسلام، فهو هوئى محمود؛ لأنه عن اجتهاد مبني على علم، مع أن القرآن نزل مصوباً لرأي عمر بعد ذلك.



(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

الخاتمة

إن مجاهدة الهوى أمرٌ شديد، وشاق على النفس، وعلى الجسد، ولكن نتيجته حسنة، وثمرته لذيدة، لا يتخلى عنها إلا أصحاب الهمم الضعيفة السقيمة، يقول أبو العتاهية:

أَشَدُّ الْجِهَادِ جِهَادُ الْهَوَى وَمَا كَرَّمَ الْمَرْءَ إِلَّا التَّقَى^(١)

وقال الشاعر:

صَبَرْتُ عَنِ اللَّذَاتِ حَتَّى تَوَلَّيْتُ وَالزَّمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ
وَكَانَتْ عَلَى الْأَيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً فَلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي عَلَى الذُّلِّ ذَلَّتْ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى فَإِنْ أُطِمِعَتْ تَأَقَّتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ^(٢)

وأكبر علامات عدم اتباع الهوى: هو الابتعاد عن زينة الحياة الدنيا وزخرفها، يقول مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ تَبَاعَدَ مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَذَلِكَ الْغَالِبُ لِهَوَاهُ»^(٣).

والهوى يدخل على جميع الناس، وليس مختصاً بالجهال، أو بالصغار، بل يدخل قلوب العلماء، ويدخل قلوب أصحاب العقل والرأي والمشورة، ويدخل قلوب الكبار والصغار، والرجال والنساء.

قال بعض الحكماء: «إننا نحتاج اللبيب ذو الرأي والتجربة إلى المشاورة؛ ليتجرد له رأيه من هواه»^(٤).

(١) مجمع الحكم والأمثال (١٠/٤٩٦).

(٢) ذم الهوى (ص ١٤٣).

(٣) حلية الأولياء (٢/٣٦٤).

(٤) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص ١٧١).

فليس لأحدٍ أن يقول: إن النهي عن اتباع الهوى لا ينالني؛ لأنني لا أتبع هواي.

قال منصور الفقيه رَحِمَهُ اللهُ:

إِنَّ الْمَرَائِيَّ لَا تُرِيكَ خُدُوشَ وَجْهِكَ فِي صَدَاهَا

وَكَذَلِكَ نَفْسُكَ لَا تُرِيكَ عُيُوبَ نَفْسِكَ فِي هَوَاهَا^(١)

بل قد يدخل الهوى قلوب أعدل الرجال، وأكثرهم تديناً وعلماً.

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يكفيننا دواعي الهوى، وأن يصرف عنا سبل الردى، وأن

يجعل التوفيق لنا رائداً.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.



(١) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد البكري (ص ٢٧٥).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلوها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرّف الهوى في اللغة والاصطلاح.
٢. لاتباع الهوى أسباب، اذكر أبرزها.
٣. لاتباع الهوى مفسد وأضرار متعددة، فما هي؟
٤. اتباع الهوى داء، فما دواؤه؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. متى يعاقب الإنسان على اتباع الهوى؟
٢. لمخالفة الهوى فوائد متعددة، اذكر ما تيسر منها.
٣. ما القاسم المشترك بين السبعة الذين يظلمهم الله تحت ظل عرشه يوم القيامة؟ وضح ذلك.
٤. ما هي أكبر علامة على عدم اتباعك للهوى؟

مفسات القلوب



حب الرثاسة



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله،
وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن مما يُفسد إخلاص القلب وتوحيده، ويزيد تعلقه بالدنيا، وإعراضه عن الآخرة:
حب الرئاسة، فهو مرض عضال؛ تُنْفَق في سبيله الأموال، وتُراق له الدماء، وتَنشأ بسببه
العداوة والبغضاء بين الأخ وأخيه، بل الابن وأبيه؛ ولذا سُمي هذا المرض: بالشهوة الخفية.
وستتناول هذا الموضوع الخطير بشيء من التفصيل، وذلك ببيان الأصل في تسمية حب
الرئاسة بالشهوة الخفية، ثم بيان أهمية الولايات، وحاجة الناس إليها، وموقف المسلم منها،
ثم نذكر صورته، ومظاهره، وأسبابه، وعلاجه.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية.

والله نَسألُ للجميع العلم النافع، والعمل الصالح.



تسمية حب الرئاسة بالشهوة الخفية

أصل هذه التسمية جاءت عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الزهري: تسجى شداد بن أوس بثوب، ثم بكى، وبكى، فقال له قائل: ما يبكيك يا أبا يعلى؟ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية، والرياء الظاهر، إنكم لن تؤتوا إلا من قبل رؤوسكم، إنكم لن تؤتوا إلا من قبل رؤوسكم، إنكم لن تؤتوا إلا من قبل رؤوسكم، إنكم لن تؤتوا إلا من قبل رؤوسكم، الذين إن أمروا بخير أطيعوا، وإن أمروا بشر أطيعوا، وما المنافق؟ إنما المنافق كالجمل، اختنق، فمات في ريقه، لن يعدو شره نفسه»^(١).

وفسر الإمام أبو داود السجستاني رَحِمَهُ اللَّهُ الشهوة الخفية بحب الرئاسة، فقد سئل: ما الشهوة الخفية؟ فقال: «حب الرئاسة»^(٢).

والظاهر - والله أعلم - أن هذا من باب التفسير بالمثال، قال أبو عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشهوة الخفية قد اختلف الناس فيها: فذهب بعضهم إلى شهوة النساء، وغير ذلك من الشهوات، وهو عندي ليس بمخصوص بشيء واحد، ولكنه في كل شيء من المعاصي، يضمه صاحبه ويصر عليه، وإنما هو الإصرار، وإن لم يعمل»^(٣).

وقد اشتهر عند أهل العلم تفسير أبي داود للشهوة الخفية بحب الرئاسة، فصار علماً عليها، إلا لقرينة تبين خلاف ذلك.

(١) الزهد لابن المبارك (١٦/٢).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢١٥/١٠).

(٣) غريب الحديث (١٧١/٤).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «مما يبين أن الإنسان قد يخفى عليه كثير من أحوال نفسه فلا يشعر بها: أن كثيراً من الناس يكون في نفسه حب الرئاسة كامناً لا يشعر به، بل إنه مخلص في عبادته، وقد خفيت عليه عيوبه، وكلام الناس في هذا كثير مشهور؛ ولهذا سميت هذه: الشهوة الخفية»^(١).



(١) مجموع الفتاوى (١٦/٣٤٦).

حاجة الناس إلى الولاية

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين والدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»^(١).

فأوجب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر؛ تنيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد، والعدل، وإقامة الحج، والجمع، والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود، لا تتم إلا بالقوة والإمارة... ويقال: ستون سنة من إمام جائر، أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان. والتجربة تُبَيِّنُ ذلك»^(٢).

فالناس -إذن- محتاجون في كل أمر من أمورهم العامة إلى من يدير هذا الأمر، ويرأس شؤونه، ويتحمل مسؤولياته، وتبعاته.

موقف المسلم من الولاية:

عن عبد الرحمن بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكِلْتَا إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيَتْهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا»^(٣).

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٨)، وحسنه الألباني.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٩٠ / ٢٨).

(٣) رواه البخاري (٧١٤٧)، ومسلم (١٦٥٢).

قال أبو موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أقبلت إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعني رجلان من الأشعرين، أحدهما عن يميني، والآخر عن يساري، فكلاهما سألت العمل، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستاك، فقال: «يا أبا موسى -أو يا عبد الله بن قيس-»، قال: فقلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل! قال: وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته، وقد قلصت، فقال: «لن -أو لا- نَسْتَعْمِلَ عَلَى عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَهُ، وَلَكِنْ إِذْهَبْ أَنْتَ يَا أبا مُوسَى -أو يا عبد الله بن قيس-» فبعثه على اليمن^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَتَسْتَكُونُونَ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعِمَّتِ الْمَرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ»^(٢).

قال ابن حجر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «نِعَمَ الْمَرْضِعَةُ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ حُصُولِ الْجَاهِ، وَالْمَالِ، وَنَفَازِ الْكَلِمَةِ، وَتَحْصِيلِ اللَّذَاتِ الْحَسِيَّةِ وَالْوَهْمِيَّةِ حَالَ حُصُولِهَا، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ، عِنْدَ الْإِنْفِصَالِ عَنْهَا بِمَوْتِ، أَوْ غَيْرِهِ، وَمَا يَتْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ التَّبَعَاتِ فِي الْآخِرَةِ»^(٣).

قال السعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الْإِمَارَةُ وَغَيْرُهَا مِنَ الْوَلَايَاتِ عَلَى الْخَلْقِ، لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَسْأَلَهَا وَيَتَعَرَّضَ لَهَا، بَلْ يَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي هَلْ تَكُونُ الْوَلَايَةُ خَيْرًا لَهُ أَوْ شَرًّا؟ وَلَا يَدْرِي هَلْ يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِهَا أَمْ لَا؟ فَإِذَا سَأَلَهَا وَحَرَّصَ عَلَيْهَا؛ وَكَلَّ إِلَى نَفْسِهِ، وَمَتَى وَكَلَّ الْعَبْدُ إِلَى نَفْسِهِ؛ لَمْ يَوْفُقْ، وَلَمْ يَسُدِّدْ فِي أُمُورِهِ، وَلَمْ يُعْنَ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ سَوْأَهَا يَنْبَغِي عَنْ مَحْذُورِينَ:

الأول: الحرص على الدنيا، والرئاسة، والحرص يحمل على الريبة في التخوض في مال الله، والعلو على عباد الله.

والثاني: فيه نوع اتكال على النفس، وانقطاع عن الاستعانة بالله.

وأما من لم يحرص عليها ولم يستشرف لها، بل أتته من غير مسألة، ورأى من نفسه عدم قدرته عليها: فإن الله يُعِينُهُ عَلَيْهَا، وَلَا يَكِلُهُ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِلْبَلَاءِ، وَمَنْ جَاءَ

(١) رواه البخاري (٦٩٢٣)، ومسلم (١٧٣٣).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٨).

(٣) فتح الباري (١٣/١٢٦).

البلاء بغير اختياره حمل عنه، ووفق للقيام بوظيفته، وفي هذه الحال يقوى توكله على الله تعالى، ومتى قام العبد بالسبب متوكلاً على الله نجح.

وفي قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعِنْتَ عَلَيَّهَا» دليل على أن الإمارة وغيرها من الولايات الدنيوية جامعة للأمرين: للدين، والدنيا، فإن المقصود من الولايات كلها إصلاح دين الناس، ودنياهم.

ولهذا يتعلق بها الأمر، والنهي، والإلزام بالواجبات، والردع عن المحرمات، والإلزام بأداء الحقوق، وكذلك السياسة، والجهاد، فهي لمن أخلص فيها لله، وقام بالواجب من أفضل العبادات، ولمن لم يكن كذلك من أعظم الأخطار، ولهذا كانت من فروض الكفايات؛ لتوقف كثير من الواجبات عليها^(١).

ولذا ففي أحوال خاصة يجوز طلب الولاية، كما في قوله تعالى -مخبراً عن قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لملك مصر-: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «طلبها لهذه المصلحة التي لا يقوم بها غيره، من الحفظ الكامل، والعلم بجميع الجهات المتعلقة بهذه الخزائن، من حسن الاستخراج، وحسن التصريف، وإقامة العدل الكامل، فهو لما رأى الملك استخلصه لنفسه، وجعله مقدماً عليه، وفي المحل العالي، وجب عليه أيضاً النصيحة التامة للملك، والرعية، وهي متعينة في ولايته، ولهذا لما تولى خزائن الأرض سعى في تقوية الزراعة جداً»^(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والفرق بين حب الرئاسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو: الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له، وتعظيم النفس والسعي في حظها، فإن الناصح لله المعظم له المحب له يجب أن يطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممثلين أو امره مجتنبين نواهيهم، فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله، فهو يجب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً، يقتدي به المتقون، كما اقتدى هو بالمتقين، ... وهذا بخلاف طلب الرئاسة، فإن طلابها

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ١٠٥-١٠٦).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (ص ١٠٦).

يسعون في تحصيلها؛ لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض، وتعبيد القلوب لهم، وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم، قاهرين لهم، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله، من البغي، والحسد، والطغيان، والحقْد، والظلم، والفتنة، والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقره الله، واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرئاسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تنال إلا به، وبأضعافه من المفاسد»^(١).



(١) الروح (ص ٢٥٢-٢٥٣).

صور وأحوال حب الرئاسة

للرئاسة صورتان باعتبار الأمر المترأس فيه:

الصورة الأولى: الرئاسة الدنيوية.

والصورة الثانية: الرئاسة العلمية الدينية.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «والحرص على الشرف على قسمين: أحدهما: طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال، وهذا خطر جداً، وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزّها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ بَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِبِينَ﴾ [القصص: ٨٣]»^(١).

ثم قال: «القسم الثاني: طلب الشرف والعلو على الناس بالأموال الدينية، كالعلم، والعمل، والزهد، فهذا أفحش من الأول وأقبح، وأشدّ فساداً وخطراً؛ فإن العلم، والعمل، والزهد، إنما يطلب به ما عند الله من الدرجات العلى، والنعيم المقيم، والقرب منه، والزلفى لديه.

قال الشوري: إنما فُضِّلَ العلم لأنه يُتَّقَى به الله، وإلا كان كسائر الأشياء.

فإذا طُلِبَ بشيء من هذا عَرَضَ الدنيا الفاني، فهو أيضاً نوعان:

أحدهما: أن يُطلب به المال، فهذا من نوع الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرمة.

النوع الثاني: من يطلب بالعلم والعمل والزهد الرئاسة على الخلق والتعاضم عليهم، وأن ينقاد الخلق ويخضعون له ويصرفون وجوههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على

(١) شرح حديث ما ذُبحان جائعان (ص ٢٩).

العلماء ليعلو به عليهم، ونحو ذلك، فهذا موعده النار؛ لأن قصد التكبر على الخلق محرم في نفسه، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان.

عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُبَارِيَ بِهِ السُّهْمَاءَ، أَوْ يُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ وَجْهَهُ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(١) (٢).

وَلِحُبِّ الرِّئَاسَةِ حَالَانُ:

الحالة الأولى: قبل تولي الرئاسة:

فمن الناس من يكون حريصاً على الرئاسة، وتبدو عليه مظاهرها وآثارها، ثم قد يتولى، وقد لا يتولى، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ، فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

والحالة الثانية: بعد تولي الرئاسة:

فالإنسان قد يكون زاهداً في الرئاسة، فإذا تولاها تعلق بها قلبه، وقد يكون متشوقاً لها قبل التولي، ثم يزداد تعلقه بها بعد التولي؛ لأنه يجمع بين التعلق، وخوف زوالها. قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أن الحرص على الشرف يستلزم ضرراً عظيماً قبل وقوعه في السعي في أسبابه، وبعد وقوعه بالحرص العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية، من الظلم، والتكبر، وغير ذلك من المفاصد»^(٣).



(١) رواه الترمذي (٢٦٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) شرح حديث ما ذُبان جائعان (ص ٤٧-٥٣)، بتصرف يسير.

(٣) شرح حديث ما ذُبان جائعان (ص ٣٢).

مظاهر حب الرئاسة

لحب الرئاسة مظاهر كثيرة، ومن أبرزها ما يأتي:

١. منازعة الله عَزَّجَلَّ في صفات جلاله، ونعوت كماله:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فأعظم السيئات: جحود الخالق، والشرك به، وطلب النفس أن تكون شريكة، وندأله، أو أن تكون إلها من دونه، وكلا هذين وقع، فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وقال لموسى: ﴿لَئِنْ أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] واستخف قومه فأطاعوه.

وإبليس يطلب أن يُعبد ويُطاع من دون الله، فيريد أن يُعبد ويُطاع هو، ولا يعبد الله ولا يطاع.

وهذا الذي في فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل.

وفي نفوس سائر الإنس والجن شعبة من هذا وهذا، إن لم يُعين الله العبد ويهديه، وإلا وقع في بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب الإمكان»^(١).

٢. فقدان الإخلاص في العمل:

فطالب الرئاسة غايته الوصول إليها والمحافظة عليها، فيكون لاؤه وبرأؤه، ومنعه وعطاؤه، وحبه وبغضه، من أجلها؛ فيفقد الإخلاص في العمل، فيكون من الهالكين.

(١) مجموع الفتاوى (١٤ / ٣٢٣).

٣. لا يعمل إذا لم يُصدَّر:

فإذا لم يصدر ترك العمل، وبخل بالمشورة المفيدة، بل ربما ترك غيره يفشل؛ ليتصدر هو ويصبح مكانه.

٤. ذكّر الناس بالعيوب، والطعن فيهم:

ما أحب أحد الرياسة إلا أحب ذكر الناس بالنقائص والعيوب؛ ليميز هو بالكمال، ويكره أن يذكّر الناس أحداً عنده بخير، ومن عشق الرياسة فقد تودّع من صلاحه.

٥. ألا يدل على من هو أفضل منه في الدين أو العلم:

فيحجب فضائل الآخرين، ويكتم أخبارهم؛ حتى لا يستدل الناس عليهم؛ فيتركوه ويذهبوا إلى الأفضل، أو يخشى أن يقارن الناس بينه وبين الأفضل؛ فتتزل مرتبته عندهم.

٦. الحسرة إذا زالت أو أخذت منه:

فمن كان ذلك همه وهجّيراه تقطعت نفسه كمدأ وحسرة عندما تزول رئاسته، وتنتقل لغيره.

٧. التكبر على الخلق وسوء معاملتهم:

قال ابن حبان رَحِمَهُ اللهُ: «الواجب على من يغشى السلطان وامتحن بصحبته: أن لا يعد شتمه شتماً، ولا إغلاظه إغلاظاً، ولا التقصير في حقه ذنباً، لأن ريح العزة بسطت لسانه ويده بالغلظة»^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرئاسة الأخلاق التي كان يعاملها بها قبل الرئاسة، فلا يصادفها فينتقض ما بينها من المودة، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي، وذلك غلط؛ فإن للرياسة سكرة كسكرة الخمر أو أشد، ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية، فسكرتها فوق سكرة القهوة بكثير، ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحي وطبعه، ولهذا أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٢٧٦).

بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعا وعقلا وعرفا، ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه»^(١).

٨. عدم التوفيق في الولاية التي يتولاها:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَلَّ مَنْ يَحْرُصُ عَلَى رِيَاةِ الدُّنْيَا بِطَلْبِ الْوِلَايَاتِ فَيُؤَفِّقُ، بَلْ يُوَكَّلُ إِلَى نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُوْتِيْتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِّلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوْتِيْتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا»^(٢).

وكان يزيد بن عبد الله بن موهب من قضاة العدل والصالحين، وكان يقول: «من أحب المال والشرف وخاف الدوائر لم يعدل فيها».

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِضُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعِمَّتِ الْمَرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ»^{(٣) (٤)}.

٩. موالاة الكفار والمشركين:

وهذا أمر معلوم في التاريخ، فقد كان يفعل ملوك الطوائف في الأندلس، وكذلك تجد في هذه الأزمان بعض الناس يوالي الكفار؛ لينال منصبا في منظمة من منظماتهم، أو يحصل على شهادة من إحدى جامعاتهم، أو جائزة من جوائزهم العالمية.

١٠. عدم قبول الحق والرجوع إليه، مما يوقع في البدعة والضلال:

قال أبو العتاهية:

أُخِيَّ مَنْ عَشَقَ الرِّيَاةَ خَفْتُ أَنْ يَطْغَى وَيَحْدِثَ بَدْعَةً وَضَلَالًا

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الرئاسة والمأكلة من جملة الأسباب المانعة لهم من الدخول في

(١) بدائع الفوائد (٣/٦٥٢).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٧)، ومسلم (١٦٥٢).

(٣) رواه البخاري (٧١٤٨).

(٤) شرح حديث ما ذُبان جائعان (ص ٢٩).

الدين، وقد ناظرنا نحن وغيرنا جماعة منهم، فلما تبين لبعضهم فساد ما هم عليه قالوا: لو دخلنا في الإسلام لكننا من أقل المسلمين، لا يؤبه لنا، ونحن متحكمون في أهل ملتنا، في أموالهم ومناصبهم، ولنا بينهم أعظم الجاه، وهل منع فرعون وقومه من اتباع موسى إلا ذلك؟!»^(١).

وقال أيضاً: «ولم يزل في الناس من يختار الباطل، ومنهم من يختاره جهلاً وتقليداً لمن يحسن الظن به، ومنهم من يختاره مع علمه بطلانه كبرا وعلواً، ومنهم من يختاره طمعا ورغبة في مآكل أو جاه أو رياسة، ومنهم من يختاره حسداً وبغياً، ومنهم من يختاره محبة في صورة وعشقا، ومنهم من يختاره خشية، ومنهم من يختاره راحة ودعة، فلم تنحصر أسباب اختيار الكفر في حب الرئاسة والمأكلة»^(٢).

١١ . التقرب إلى السلاطين ومجالستهم:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «ومن أعظم ما يُخشى على من دخل على الملوك الظلمة: أن يُصدَّقَهُمْ بكذبهم، ويعينهم على ظلمهم، ولو بالسكوت عن الإنكار عليهم، فإن من يريد بدخوله عليهم الشرف والرياسة وهو حريص عليهما لا يُقدِّم على الإنكار عليهم، بل ربما حَسَنَ لهم بعض أفعالهم القبيحة تقرباً إليهم؛ ليحسن موقفه عندهم، ويساعده على غرضه.

عن كعب بن عجرة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضِ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُعْنَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ فَهُوَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضِ»^(٣).

وكان كثير من السلف ينهون عن الدخول على الملوك، لمن أراد أمرهم بالمعروف ونهيبهم عن المنكر أيضاً.

(١) هداية الحيارى (١/٢٤٤).

(٢) هداية الحيارى (١/٢٥٦) بتصرف يسير.

(٣) رواه الترمذي (٢٢٥٩) وقال: هذا حديث صحيح غريب، وصححه الألباني.

ومن نهى عن ذلك: عمر بن عبد العزيز، وابن المبارك، والثوري، وغيرهم من الأئمة. وقال ابن المبارك: «ليس الأمر الناهي عندنا من دخل عليهم فأمرهم ونهاهم، إنما الأمر الناهي من اعتزلهم».

وسبب هذا: ما يُحشى من فتنة الدخول عليهم، فإنَّ النفس قد تخيل للإنسان إذا كان بعيداً أنه يأمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم، فإذا شاهدهم قريباً مالت النفس إليهم، لأنَّ محبة الشرف كامنة في النفس، ولذلك يداهنهم ويلاطفهم، وربما مال إليهم وأحبهم، ولا سيما إن لاطفوه وأكرموه وقَبِل ذلك منهم، وقد جرى ذلك لعبد الله بن طاووس مع بعض الأمراء بحضرة أبيه طاووس، فَوَبَّخَهُ طاووس على فعله ذلك.

وكتب سفيان الثوري إلى عَبَّاد بن عَبَّاد رحمهما الله، وكان في كتابه: «إياك والأمراء أن تدنو منهم، أو تخالطهم في شيء من الأشياء، وإياك أن تُخدع، ويقال لك لتشفع، وتدرأ عن مظلوم، أو ترد مظلمة، فإن ذلك خديعة إبليس، وإنَّما اتخذها فُجَّارُ القراء سُلماً، وما كفيت عن المسألة والفتيا فاعتنم ذلك ولا تنافسهم، وإياك أن تكون ممن يجب أن يُعمَلَ بقوله، أو يُنْشَرَ قوله، أو يُسْمَعَ قوله، فإذا تُرِكَ ذلك منه عُرِفَ فيه، وإياك وحبَّ الرئاسة، فإنَّ الرجل يكون حب الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فَتَفَقَّدَ بقلب، واعمل بنية، واعلم أنه قد دنا من الناس أمرٌ يشتهي الرجل أن يموت، والسلام»^(١).

وقال وهب بن منبه رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ جمع المال وغشيان السلطان لا يبقيان من حسنات المرء إلا كما يُبْقِي ذئبان جائعان ضاريان سقطا في حظار فيه غنم، فباتا يجوسان حتى أصبحا»^(٢).

وقال أبو حازم رَحِمَهُ اللهُ: «العلماء كانوا يفرُّون من السلطان ويطلبهم، وإنهم اليوم يأتون أبواب السلطان، والسلطان يفر منهم»^(٣).

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص ٦٤-٦٨).

(٢) جامع بيان العلم (١/٢٠٢).

(٣) جامع بيان العلم (١/١٩٩).

١٢. حب الشهرة:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «ومن هذا الباب أيضاً: [يعني: من يطلب الرئاسة بالعلم والعمل] كراهة أن يُشهرَ الإنسان نفسه بالعلم والزهد والدين، أو بإظهار الأعمال والأقوال والكرامات؛ ليزار، وتلمس بركته، ودعاؤه، وتقبل يده، وهو محب لذلك، ويقيم عليه، ويفرح به، ويسعى في أسبابه.

ومن هنا كان السلف الصالح يكرهون الشهرة غاية الكراهة، منهم أيوب، والنخعي، وسفيان، وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين، وكذلك الفضيل، وداود الطائي، وغيرهما من الزهاد والعارفين، وكانوا يذُمون أنفسهم غاية الذم، ويسترون أعمالهم غاية الستر^(١).

١٣. محبة مدح الناس وثناؤهم:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «ومن هذا الباب أيضاً: أن يحب ذو الشرف والولاية أن يحمد على أفعاله، ويشئ عليه بها، ويطلب من الناس ذلك، ويتسبب في أذى من لا يجيبه إليه، وربما كان ذلك الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح، وربما أظهر أمراً حسناً في الظاهر، وأحب المدح عليه، وقصد به في الباطن شراً، وفرح بتمويه ذلك وترويجه على الخلق، وهذا يدخل في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

فإن هذه الآية إنما أنزلت فيمن هذه صفاته، وهذا الوصف - أعني طلب المدح من الخلق، ومحبته، والعقوبة على تركه - لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له، ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم، وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإنَّ النعم كلها منه.

وكان عمر بن عبد العزيز شديد العناية بذلك، وكتب مرة إلى أهل الموسم كتاباً يُقرأ عليهم، وفيه الأمر بالإحسان إليهم، وإزالة المظالم التي كانت عليهم، وفي الكتاب: «ولا تحمدوا على ذلك كله إلا الله، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري».

(١) شرح حديث ما ذُبان جائعان (ص ٦٨).

وحكايته مع المرأة التي طلبت منه أن يفرض لبناتها اليتامى مشهورة، فإنها كانت لها أربع بنات، ففرض لاثنتين منهن، وهي تحمد الله، ثم فرض للثالثة، فشكرته، فقال: «إنما كنا نفرض لهن حيث كنت تولين الحمد أهله، فمُرِّي هؤلاء الثلاث يواسين الرابعة»، أراد أن يُعرَف أن ذا الولاية إنها هو مُنتَصِبٌ لتنفيذ أمر الله، وأمرُ العباد بطاعته تعالى، وناهٍ لهم عن محارم الله، ناصح لعباد الله بدعائهم إلى الله، فهو يقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون العزة لله، وهو مع ذلك خائف من التقصير في حقوق الله تعالى أيضاً^(١).

١٤. الكذب والقول على الله بغير علم:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها؛ فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، وفي خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرئاسة والذين يتبعون الشهوات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرا، فإذا كان العالم والحاكم مُجَبِّينَ للرياسة مُتَّبِعِينَ للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاذه من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهرا لا خفاء به، ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته، وقال: لي مخرج بالتوبة! وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩]، وقال تعالى فيهم أيضاً: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى حَيْرٌ لِلَّذِينَ إِن يَقُولُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون: هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون

(١) شرح حديث ماذنجان جائعان (ص ٤١-٤٣).

على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه، وأما الذين يتقون: فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرئاسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة، وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها.

وهؤلاء لابد أن يتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران، فإن اتبع الهوى يعمى عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه، فيرى البدعة سنة والسنة بدعة، فهذه آفة العلماء، إذا آثروا الدنيا، واتبعوا الرياسات والشهوات، وهذه الآيات فيهم إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦] فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه^(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وتعمد الكذب له أسباب: ...» وذكر منها: حب الرئاسة^(٢).

١٥. قسوة القلب، وتعلقه بغير الله، والانشغال عن ذكره:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأقل ما في حبها -يعني الدنيا-: أنه يلهي عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين، وإذا لها القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان، وصرفه حيث أراد»^(٣).

١٦. الشحناء وتفرق الصف:

حيث إن كل راغب في الرئاسة يتهم الآخر بأنه عاجز وقاصر، ويسعى لإقصائه وإبعاده، فيقع التنازع، فيحصل الفشل ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُوتُ وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].



(١) الفوائد (ص ١٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٦/١٨).

(٣) عدة الصابرين (ص ١٨٦).

أسباب حب الرئاسة

من حكمة الله تعالى وتدبيره أنه ربط المسببات بأسبابها، فما من سلوك إلا وله سبب، علمه من علمه، وجهله من جهله، ومن ذلك مرض حب الرئاسة، ومن أبرز مسبباته ما يلي:

١ . التحرر من سلطة الآخرين:

فالساعي للرئاسة لا يريد أن يكون فوقه أحد، بل يرغب أن يكون وحده الأمر والنهي للجميع، ولذا تراه يوجه الصغير والكبير، والشريف والوضيع، والذكر والأنثى، ويتدخل في كل صغيرة وكبيرة، مما لا شأن له به.

٢ . موافقتها لرغبة النفس وشهوتها التي جُبلت عليها:

فالإنسان يجب أن يكون أمرنا هيا، لا مأمورا منها، ويجب أن يعلو على الناس، وأن يُثنى عليه، وغير ذلك من الأمور التي تلتصق بالرئاسة.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإن نوزع الرئاسة حامى عليها وعادى»^(١).

وقال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ اللهُ: «الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا»^(٢).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «النفس مشحونة بحب العلو والرئاسة بحسب إمكانها»^(٣).

(١) حلية الأولياء (٧/٣٩).

(٢) حلية الأولياء (٨/٢٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/٢١٨).

قال ابن حبان رَحِمَهُ اللهُ: وأنشدني المتصر بن بلال:

بلاءُ الناسِ مُذْ كانوا إلى أن تَأْتِيَ السَّاعَةُ
بِحُبِّ الأَمْرِ والنَّهْيِ وَحُبِّ السَّمْعِ والطَّاعَةِ^(١)

٣. ضعف الإيمان:

فراغ القلب من الإيمان أو ضعفه سبب للتطلع لشهوات الدنيا، والتي من أعظمها الرياسة، وأما من امتلأ قلبه بالإيمان أو قارب فإنه معرض عن عرض الدنيا الفاني، وليس له هم ولا شغل إلا في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم، وعلى الحق»^(٢).

٤. عدم استشعار خطورة حمل الأمانة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

عن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشْرَةِ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَغْلُوبًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَكُهُ بَرُّهُ، أَوْ أَوْبَقُهُ إِثْمُهُ، أَوْ لَهَا مَلَامَةٌ، وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ، وَآخِرُهَا خِزْيٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

٥. الشعور باللذة الوهمية:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ومن السكر أيضاً: ما يكون بحب الرئاسة، والمال، أو شفاء الغيظ، فإنه إذا قوى ذلك أوجب سكراً، وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب سكراً لأن

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٢٧٣).

(٢) تفسير السعدي (ص ٦٢٤).

(٣) رواه أحمد (٢١٧٩٧)، وقال الألباني: «إسناده جيد» كما في السلسلة الصحيحة (٣٤٩).

السكر شبيه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل، وسبب اللذة إدراك المحبوب، فإذا كانت المحبة قوية، وإدراك المحب قويا، والعقل والتمييز ضعيفا؛ كان ذلك سببا للسكر، لكن ضعف العقل تارة يكون من ضعف نفس الإنسان المحب، وتارة يكون من قوة السبب الوارد، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر، ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك، وتمكن فيه»^(١).

٦. حب الدنيا:

قال عبد الله بن أبي صالح: قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا معشر القراء والعلماء! كيف تضلون بعد علمكم، أو تعملون بعد بصركم، من أجل دنيا دنية، وشهوة ردية؟ فلکم الويل منها، ولها الويل منكم»^(٢).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وأصل محبة المال والشرف: حب الدنيا، وأصل حب الدنيا: اتباع الهوى.

قال وهب بن منبه: «من اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة فيها حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم».

... وإنما تحصل الرغبة في الدنيا من اتباع المال والهوى؛ لأن الهوى داع إلى الرغبة في الدنيا وحب المال والشرف فيها، والتقوى تمنع من اتباع الهوى، وتردع عن حب الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

وقد وصف الله تعالى أهل النار بالمال والسلطان في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بَلِّغْ لِي رَأْسَ كِتَابِي ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَدْرِمَ مَا حَسْبِيهِ ﴿٤٦﴾ بَلِّغْهَا كَأَنْتَ الْقَاضِيَةُ ﴿٤٧﴾ مَا أَعْنَى عَنِّي مَالِيهِ ﴿٤٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩]^(٣).

(١) الاستقامة (٢/١٤٦).

(٢) جامع بيان العلم (١/٢٣٣).

(٣) شرح حديث ما ذُبان جائعان (ص ٧١).

وقال إسحاق بن خلف رَحِمَهُ اللهُ: «الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرئاسة أشد منه في الذهب والفضة؛ لأنها يبذلان في طلب الرئاسة»^(١).

٧. العجب بالنفس:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُنَجِّياتٌ، وَثَلَاثٌ كَفَّارَاتٌ، وَثَلَاثٌ دَرَجَاتٌ، فَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحُّ مَطَاعٍ، وَهَوَى مُتَّبِعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ. وَأَمَّا الْمُنَجِّياتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وللقلب أمراض أُخر، من الرياء، والكبر، والعجب، والحسد، والفخر، والخيلاء، وحب الرئاسة، والعلو في الأرض، وهذا المرض مركب من مرض الشبهة، والشهوة، فإنه لا بد فيه من تخيل فاسد، وإرادة باطلة، كالعجب، والفخر، والخيلاء، والكبر المركب من تخيل عظمته، وفضله، وإرادة تعظيم الخلق له، ومحمدتهم، فلا يخرج مرضه عن شهوة، أو شبهة، أو مركب منها، وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل، ودواؤها العلم»^(٣).



(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٢).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٥٧٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٤٥).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١١١).

علاج حب الرئاسة

من عظيم رحمة الله تعالى بعباده: أنه ما أنزل من داء إلا وأنزل له دواءً، ومن ذلك: مرض حب الرئاسة، ومن أعظم أدويته ما يأتي:

١. العناية بتحقيق الإخلاص:

قال ابن رجب رَحْمَةُ اللَّهِ: «كتب وهب بن منبه إلى مكحول: «أما بعد: فإنك أصبت بظاهر علمك عند الناس شرفاً ومنزلةً، فاطلب بباطن علمك عند الله منزلةً وزلفى، واعلم أن إحدى المنزلتين تمنع من الأخرى».

ومعنى هذا: أن العلم الظاهر من تَعَلُّمِ الشرائع، والأحكام، والفتاوى، والقصص، والوعظ، ونحو ذلك مما يظهر للناس؛ يحصل به لصاحبه عندهم منزلةً، وشرفاً، والعلم الباطن المودع في القلوب، من معرفة الله، وخشيته، ومحبته، ومراقبته، والأنس به، والشوق إلى لقاءه، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والإعراض عن عرض الدنيا الفاني، والإقبال على جوهر الآخرة الباقي، كل هذا يوجب لصاحبه عند الله منزلةً، وزلفى، وإحدى المنزلتين تمنع من الأخرى، فمن وقف مع منزلته عند الخلق، واشتغل بما حصل له عندهم بالعلم الظاهر من شرف الدنيا، وكان همه حفظ هذه المنزلة عند الخلق، وملازمتها، وتربيتها، والخوف من زوالها: كان ذلك حظه من الله تعالى، وانقطع به عنه، فهو كما قال بعضهم: ويل لمن كان حظه من الله الدنيا»^(١).

(١) شرح حديث ما ذُبحان جائعان (ص ٨٠).

٢. أن يُمنع منها إذا طلبها:

عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله، أمّرنا على بعض ما ولاك الله عَزَّجَلَّ، وقال الآخر مثل ذلك، فقال: «إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤَيِّ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ»^(١).

٣. الاستشارة:

وتنفع الاستشارة هاهنا في موضعين:

الموضع الأول: عند عرض الولاية على العبد أو تكليفه بها، فيستشير أهل النصح والصدق، هل هو أهل لها، أم لا؟

وقد جاء عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»^(٢).

وفي رواية قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»^(٣).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَهَى أَبَا ذَرٍّ عَنِ الْإِمَارَةِ وَالْوَلَايَةِ؛ لِأَنَّهُ رَأَى ضَعِيفًا، مَعَ أَنَّهُ قَدْ رَوَى: «مَا أَظَلَّتِ الْخُضْرَاءُ، وَلَا أَقَلَّتِ الْغُبْرَاءُ، أَصْدَقُ لَهْجَةٍ مِنْ أَبِي ذَرٍّ»^(٤)^(٥).

الموضع الثاني: الاستشارة بعد تولي الولاية؛ لئلا يستبدّ بالأمر؛ وليصقل رأيه، قال تعالى:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) رواه البخاري (٧١٤٩)، ومسلم (٣٤٠٢).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٥).

(٣) رواه مسلم (١٨٢٦).

(٤) رواه الترمذي (٣٨٠١)، وصححه الألباني.

(٥) السياسة الشرعية (ص ١٦).

٤. تذكر الآثار السيئة التي تترتب على الرئاسة:

قال ابن حبان رَحِمَهُ اللهُ: «رؤساء القوم أعظمهم هموماً، وأدومهم غموماً، وأشغلهم قلوباً، وأشهرهم عيوباً، وأكثرهم عدواً، وأشدّهم أحزاناً، وأنكاهم أشجاناً، وأكثرهم في القيامة حساباً، وأشدّهم - إن لم يعف الله عنهم - عذاباً»^(١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وأما العلو الفاني المنقطع الذي يعقب صاحبه غداً حسرةً وندامةً وذلةً وهواناً وصغاراً، فهو الذي يُشرع الزهد فيه والإعراض عنه.

وللزهد فيه أسباب عديدة، فمنها: نظرُ العبد إلى سوء عاقبة الشرف في الدنيا، بالولاية والإمارة لمن لا يؤدي حقها في الآخرة، ومنها نظر العبد إلى عقوبة الظالمين والمتكبرين، ومن ينازع الله رداء الكبرياء.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَعْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيَسْأَقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عَصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةَ الْخَبَالِ»^(٢).

واستأذن رجل عمر رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ في القصص على الناس فقال له: إني أخاف أن تقص عليهم فتترفع عليهم في نفسك، حتى يضعك الله تحت أرجلهم يوم القيامة»^(٣).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض، قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبدل لهم الأموال والولايات، ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم.

والتحقيق: أن كلاهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله، وإذا كان

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٢٧٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٢) وقال: حسن صحيح.

(٣) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص ٧٣-٧٥).

تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق، كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة، أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه، يستعبده الآخر»^(١).

٥. المداومة على محاسبة النفس، والتوبة، والاستغفار:

قال ابن حبان رَحِمَهُ اللهُ: «الواجب على من ملك أمور المسلمين الرجوع إلى الله عَزَّجَلَّ في كل لحظة وطرفة؛ لئلا يطغيه ما هو فيه من تسلطه، بل يذكر عظمة الله وقدرته وسلطانه، وأنه هو المنتقم ممن ظلم، والمجازي لمن أحسن، فيلزم في إمرته السلوك الذي يؤديه إلى اكتساب الخير في الدارين، وليعتبر بمن كان قبله من أشكاله، فإنه لا محالة مسئول عن شكر ما هو فيه، كما هو لا محالة مسئول عن حسابه»^(٢).

٦. الاشتغال بالعلم، وعدم الانقطاع عنه:

عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «تفقهوا قبل أن تُسودُّوا»، قال البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «وبعد أن تسودوا، وقد تعلم أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كبر سنهم»^(٣).
وقال حسن بن منصور الجصاص رَحِمَهُ اللهُ: قلت لأحمد بن حنبل: إلى متى يكتب الرجل؟ قال: «حتى يموت»^(٤).

٧. الزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة، والمنافسة فيها:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها، ومن هنا نشأ الكبر والحسد، ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي، الذي فيه رضوان الله، وقربه، وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل، الذي يعقبه غضب الله، وسخطه، وانحطاط العبد وسفوله، وبُعدِهِ عن الله، وطرده عنه، فهذا هو العلو الثاني الذي يُدَمُّ، وهو العتو والتكبر في الأرض بغير حق.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٨٩).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٢٧٧).

(٣) صحيح البخاري (١/٣٩).

(٤) طبقات الحنابلة (١/١٤٠).

وأما العلو الأول والحرص عليه: فهو محمود، قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] (١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وأما الدنيا: فأمرها حقير، وكبيرها صغير، وغاية أمرها يعود إلى الرئاسة والمال، وغاية ذي الرئاسة أن يكون كفرعون الذي أغرقه الله في اليم انتقاماً منه، وغاية ذي المال أن يكون كقارون الذي خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» (٢).

٨. التفكير فيما يعوض الله عَزَّجَلَّ به العبد في الدنيا من اللذة والنعيم إذا عرض عنها:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «ومنها - وليس هو في قدرة العبد، ولكنه من فضل الله ورحمته - ما يُعَوِّضُ الله عباده العارفين به الزاهدين فيما يفني من المال والشرف، مما يجعله الله لهم في الدنيا من شرف التقوى، وهيبة الخلق لهم في الظاهر، ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن، وهي الحياة الطيبة التي وعداها الله لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا، ولا أهل الرئاسات والحرص على الشرف، كما قال إبراهيم بن أدهم: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف» (٣).

٩. أن يكون هم الإنسان خدمة الدين، ونفع الخلق، من أي موقع يكون فيه:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهِمِ، وَعَبْدُ الْحَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رِضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشَعَتْ رَأْسُهُ، مُغْبِرَةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ» (٤).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ» التقدير: إن كان المهم في الحراسة كان فيها، ... وقال ابن الجوزي: المعنى أنه حامل

(١) شرح حديث ما ذُبحان جاثعان (ص ٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٦١٥/٢٨).

(٣) شرح حديث ما ذُبحان جاثعان (ص ٧٦).

(٤) رواه البخاري (٢٨٨٧).

الذكر، لا يقصد السمو، فإن اتفق له السير سار، فكأنه قال: إن كان في الحراسة استمر فيها، وإن كان في الساقية استمر فيها.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ اسْتَأْذَنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ» فيه ترك حب الرياسة والشهرة، وفضل الخمول والتواضع^(١).

١٠. استشعار قدر مسؤولية الولاية، فهي تكليف، لا تشریف:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَسْتَرْعِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدًا رَعِيَّةً، قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ، إِلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَقَامَ فِيهِمْ أَمْرَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْ أَضَاعَهُ؟ حَتَّى يَسْأَلَهُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ خَاصَّةً»^(٢).

وعن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنْ شِئْتُمْ أَنْبَاءَكُمْ عَنِ الْإِمَارَةِ قَالُوا: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: «أَوْلَاهَا مَلَامَةٌ، وَثَانِيهَا نَدَامَةٌ، وَثَالِثُهَا عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ عَدَلَ»^(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ وُلُّوا هَذَا الْأَمْرَ، أَنَّهُمْ خَرُّوا مِنَ الثَّرِيَّا، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَلُوا شَيْئًا»^(٤).

١١. أن يعرف المرء قدر نفسه:

فيعرف هل يستطيع القيام بهذا العمل، وتلك المسؤولية، أم لا؟

فإذا عرف من نفسه أنه لا يقدر عليها: فلا يُقَدِّم.

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ! إِيَّيَّ أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِيَّيَّ أَحَبُّ لَكَ مَا أَحَبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»^(٥).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيُّ ضَعِيفًا عَنِ الْقِيَامِ بِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَى الْأَمِيرِ مِنْ مِرَاعَاةِ مَصَالِحِ رَعِيَّتِهِ

(١) فتح الباري (٨٣/٦).

(٢) رواه أحمد (٤٦٢٣)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦٧٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٤٢٠).

(٤) رواه أحمد (١٠٣٥٩)، وحسنه محققو المسند.

(٥) رواه مسلم (١٨٢٦).

الدينية والدينية؛ ووجه ضعفه عن ذلك: أن الغالب عليه كان الزهد واحتقار الدنيا، ومن هذا حاله لا يعتني بمصالح الدنيا ولا أموالها، اللذين بمراعاتهما تنتظم مصالح الدين، ويتم أمره... فلما علم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه هذه الحالة نصحه ونهاه عن الإمارة، وعن ولاية مال الأيتام^(١).

١٢. أن يكثر من حمد الله عَزَّوَجَلَّ، والثناء عليه، ويأمر غيره بذلك:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «كان خلفاء الرسل وأتباعهم من أمراء العدل وقضاتهم لا يدعون إلى تعظيم نفوسهم ألبتة، بل إلى تعظيم الله وحده، وإفراجه بالعبودية والإلهية، ومنهم من كان لا يريد الولاية إلا للاستعانة بها على الدعوة إلى الله وحده.

وكان بعض الصالحين يتولى القضاء، ويقول: ألا أتولاه لأستعين به على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟!»

ولهذا كانت الرسل وأتباعهم يصبرون على الأذى في الدعوة إلى الله، ويتحملون في تنفيذ أوامر الله من الخلق غاية المشقة، وهم صابرون، بل راضون بذلك، فإنَّ المحب ربما يتلذذ بما يصيبه من الأذى في رضى محبوبه، كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز يقول لأبيه في خلافته إذا حرص على تنفيذ الحق وإقامة العدل: يا أبت! لوددت أني غلّت بي وبك القدور في الله عَزَّوَجَلَّ^(٢).

١٣. أن يبذل جاهه للناس:

وذلك بالشفاعة للمحتاجين، والسعي في قضاء حوائجهم، قال ابن أبي يعلى رَحِمَهُ اللهُ: «وقال أبو مزاحم موسى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان: حدثني أبي عن أبيه قال: حضرت الحسن بن سهل، وجاءه رجل يستشفع به في حاجة، ففضاها، فأقبل الرجل يشكره، فقال له الحسن بن سهل: علام تشكرنا؟ نحن نرى أن للجاه زكاة، كما أن للمال زكاة، ثم أنشأ يقول:

فرضت علي زكاة ما ملكت يدي وزكاة جاهي أن أعين وأشفعا
فإذا ملكت فجهد، فإن لم تستطع فاجهد بوسعك كله أن تنفعا^(٣)

(١) حاشية السيوطي على سنن النسائي (٦/٢٥٥).

(٢) شرح حديث ما ذُبان جائعان (ص ٤٥-٤٦).

(٣) طبقات الحنابلة (١/٢٠٤).

١٤. أن يصرف العبد ما جعله الله في قلبه من حب الجاه، في المصرف الصحيح:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولقوة حب الجاه مصرف، وهو استعماله في تنفيذ أوامره، وإقامة دينه، ونصر المظلوم، وإغاثة الضعيف، وقمع أعداء الله، فمحببة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة»^(١).

١٥. القراءة والتأمل في سير السلف الصالح:

فعن عامر بن سعد قال: «كان سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في إبله، فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك، وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟! فضرب سعد في صدره فقال: اسكت، سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»^(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «المراد بالغنى غنى النفس، هذا هو الغنى المحبوب لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»... وأما «الْخَفِيُّ» فمعناه: الخامل، المنقطع إلى العبادة والاشتغال بأمور نفسه»^(٣).

وقد يعزل أحدهم نفسه، ويتنازل لغيره؛ لمصلحة أعظم، ومن هذا:

ما فعله الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من تنازله عن الخلافة لمعاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومدحه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك.

فعن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر والحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرة، وعليه أخرى، ويقول: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(٤).

قال المباركفوري رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه معجزة عظيمة من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث أخبر بهذا، فوقع مثل ما أخبر»^(٥).

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص ٢٥٩).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٥).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٨/١٠٠).

(٤) رواه البخاري (٢٧٠٤).

(٥) تحفة الأحوذى (١٠/١٨٩).

وكان أحدهم يتمتع غاية الامتناع عن الولاية، إذا كان هناك من هو أحق منه بها:

كما في قصة تولية أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومبايعة الصحابة له، فهي أعظم شاهد على ذلك، فعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «تكلّم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: ... - فذكر الحديث، وفيه-: وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيها شئتم. فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم، أحب إليّ من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر»^(١).

ومن ذلك أيضاً:

لما ولي عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة، جاءه صاحب الشرطة؛ ليسير بين يديه بالحربة -على عادته مع الخلفاء قبله-، فقال له عمر: «ما لي ولك؟ تنح عني، إنما أنا رجل من المسلمين!» ثم سار وساروا معه، حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع الناس إليه، فقال:

«أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبه له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاخترتوا لأنفسكم ولأمركم من تريدون» فصاح المسلمون صيحة واحدة: قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا، ورضينا كلنا بك، فقام وخطبهم^(٢).

وعن فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز، أنها دخلت عليه، فإذا هو في مصلاه، يده على خده، سائلة دموعه، فقالت: يا أمير المؤمنين ألي شيء حدث؟ قال: «يا فاطمة، إني تقلدت أمر أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعمري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير وذو العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمهم دونهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخشيت ألا تثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي، فبكيت»^(٣).

(١) رواه البخاري (٦٨٣٠).

(٢) البداية والنهاية (٩/٢٣٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/١٣١).

١٦. الدعاء:

عن معقل بن يسار • قال: انطلقت مع أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لِلشَّرْكِ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَهَلِ الشَّرْكَ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِلشَّرْكِ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟» قَالَ: «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»^(١).

هذا، والله نسأل أن يوفقنا لأرشد أمرنا، وأن يجعلنا ممن يعمل بطاعته؛ ابتغاء مرضاته، والحمد لله رب العالمين.



(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

الخاتمة

من المؤسف حقاً أن نرى كثيراً من الناس يتناحرون فيما بينهم؛ للوصول للرئاسة، ونيل المناصب الرفيعة، والجاه العريض، حتى أصبح الهُمُّ المسيطر على المرء أن يكون هو القائد، أو الإمام، أو الرئيس، بطرق تؤدي غالباً إلى الشقاق بين صفوف المسلمين، وإثارة الفتن والقلاقل بينهم.

وانتشار مرض حب الرئاسة يؤدي بلا شك إلى إهدار الطاقات، وتوسيع دائرة الخلافات، والسعي للمصالح الشخصية، والمنافع الذاتية، وعدم القيام بالدين، وكفى بهذا شراً عظيماً، وفساداً كبيراً، للفرد، والمجتمع، والأمة.

والعصمة من الزلل: في الرجوع الصادق إلى كتاب الله تعالى، وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسير على نهج السابقين الأولين.

هذا، ونسأل الله تعالى الهدى والسداد، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.



اختبر فهمك

بين يديك مستويان من الأسئلة، أسئلة مباشرة، وأخرى تحتاج منك إلى تأمل، وإمعان نظر.

أسئلة المستوى الأول المباشرة:

١. ما هي فوائد الولاية والإمارة؟.
٢. حب الرئاسة داء عُضال، فما هي أبرز مظاهره؟.
٣. ما هي أسباب حب الرئاسة؟.
٤. لكل داء دواء، فما دواء مرض حب الرئاسة؟.

أسئلة المستوى الثاني الاستنباطية:

١. لماذا سُمِّي حب الرئاسة بالشهوة الخفية؟.
٢. عن كعب بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما ذُئبانِ جائِعانِ أُرْسِلا في غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرءِ عَلَى المَالِ والشَّرَفِ لِدينِهِ»، ما المقصود بهذا الحديث؟.

٣. كيف يكون حب الرئاسة والدنيا مفسداً للدين؟.
٤. ماذا تفهم من قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لعزيز مصر - كما ذكر الله ذلك عنه في القرآن -: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [يوسف: ٥٥].
٥. متى يُعان الإنسان على الولاية والإمارة؟ مع ذكر الدليل.
٦. متى يكون طلب الرئاسة عبادة، يثاب المرء عليها؟



مفسات القلوب



العشق



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن القلب السليم لا تكون له لذة تامة، ولا سرور حقيقي، إلا في محبة الله سبحانه، والتقرب إليه بما يجب، والإعراض عن كل محبوب سواه.

وهذه المحبة هي حقيقة شهادة التوحيد: «لا إله إلا الله»، وهي ملة الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسنة خاتم المرسلين محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإن من أعظم ما يُفسد القلب ويُبعده عن الله عَزَّجَلَّ: داء العشق.

فهو مرض يُردي صاحبه في المهالك، ويبعده عن خير المسالك، ويجعله في الغواية، ويضلُّه بعد الهداية.

وهو ذلٌّ في النفس، ورأى على القلب، وهوان في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

هو الداء الذي تذوب معه الأرواح، ولا يقع معه الارتياح، بل هو بحر هائج، من ركبه غرق؛ لأنه لا ساحل له.

فما العشق؟ وما أنواعه؟ وهل هو اختياري، أم اضطراري؟

تساؤلات كثيرة، أحببنا أن نجيب عنها، وعن غيرها من خلال هذا الفصل.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية.

نسأل الله أن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح، وأن يسد خطانا لطريق الصواب والفلاح،

إنه على كل شيء قدير.



تعريف العشق

العشق في اللغة:

(العين، والشين، والقاف) هذه المادة تدل في معناها اللغوي على تجاوز حد المحبة^(١). قال ابن منظور رَحِمَهُ اللهُ: «العشق: فرط الحب، وقيل: هو عَجَب المحب بالمحبيب»^(٢). وسُمِّي العشق عشقاً؛ لذبول القلب من شدة الهوى، كما تدبّل العَشَقَةُ إذا قُطعت، وهي شجرة تخضر، ثم تدق، ثم تصفر.

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «المعروف من استعمال هذا اللفظ في اللغة إنما هو في محبة جنس النكاح، مثل حب آدمي مثله ممن يستمتع به، من امرأة، أو صبي، فلا يكاد يُستعمل هذا اللفظ في محبة الإنسان لولده وأقاربه ووطنه وماله ودينه وغير ذلك، ولا في محبة آدمي لغير صورته، مثل محبة آدمي لعلمه ودينه وشجاعته وكرمه وإحسانه ونحو ذلك.

بل المشهور من لفظ العشق: هو محبة النكاح ومقدماته، فالعاشق يريد الاستمتاع بالنظر إلى المعشوق، وسماع كلامه، أو مباشرته بالقبلة والحس والمعانقة أو الوطء»^(٣).

وفي هذا الكلام فائدتان:

الفائدة الأولى: أن العلاقة بين العبد والرب لا يجوز أن يطلق عليها عشق أبداً، كما أطلق المنحرفون من الصوفية والملاحدة - كابن عربي وابن سبعين وغيرهما - ذلك على الله عَزَّجَلَّ،

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٢٦٢).

(٢) لسان العرب (١٠/ ٢٥١).

(٣) قاعدة في المحبة (ص ٥٤-٥٥).

فقالوا: إن العشق والعاشق والمعشوق شيء واحد، وقالوا بأن الله سبحانه وتعالى قد اتَّحد في خلقه، فصار هؤلاء شيئاً واحداً! تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

الفائدة الثانية: لا يقال: فلان عشق عالماً، ولا عشقتُ في فلان علمه وخلقه ودينه، فهذه عبارات غير مستعملة؛ لأن العشق مرتبط بالشهوة والعلاقات الشهوانية.



أنواع العشق

العشق يقع بين طرفين: عاشق ومعشوق، قد يكون كل منهما عاشقاً لصاحبه، وقد يكون العشق من طرف واحد.

وهناك أمثلة كثيرة في التاريخ على العشق من طرفين، كعنترة وعبلة، وقيس وليلى، وجميل وبثينة، وكثير وعزة، وغيرهم ممن كانت حرارة العشق ولوعته موجودة عند كلا الطرفين، كما في قول الشاعر:

عَيْنَاكِ شَاهِدَاتَانِ أَنْكِ مِنْ حَرِّ الْهَوَى تَجِدِينَ مَا أَجْدُ
بِكِ مَا بِنَا لَكِنْ عَلَى مَضْضٍ تَتَجَلَّدِينَ وَمَا بِنَا جَلْدُ^(١)

والعشق الذي يكون من طرف واحد قد ورد له مثال في السنة النبوية، وذلك في قصة بريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مع زوجها مُغِيثَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فإن بريرة كانت أمة، فلما عتقت خيرها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أن تبقى مع زوجها أو فراقه وفسخ نكاحه، فاختارت الفراق، وللمرأة الحق شرعاً في ذلك، إن عتقت وزوجها عبد، وكان مغيث يحب بريرة حباً عظيماً، فلما اختارت الانفصال، تأثر لفراقها كثيراً.

عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَغِيثٍ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي، وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لَحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يَا عَبَّاسُ، أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مَغِيثٍ بِرَبْرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا؟». فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ رَاجَعْتَهُ». قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ». قالت: لا حاجة لي فيه^(٢).

(١) روضة المحبين (ص ٧٨).

(٢) رواه البخاري (٥٢٨٣).

فهذا العشق وقع بين اثنين يباح بينهما الحب؛ لأنهما زوجان، وقد يقع العشق بين طرفين لا يباح بينهما ذلك، كما هو الحال في كثير من علاقات الحب والعشق المحرمة.

والعشق أربعة أنواع، باعتبار أطرافه:

النوع الأول: عشق الرجال للنساء، وهو الأعم الأغلب.

وإذا قلنا إن فيه نوعاً مباحاً، فهو علاقة النكاح بين الرجل وزوجته، أو علاقة التسري بين السيد والأمة، فإذا لم يصل إلى درجة تمس العبودية، أو ارتكب لأجله المحرمات، أو ترك لأجله الطاعات؛ فإنه يبقى في دائرة المباح.

النوع الثاني: عشق النساء للرجال، وهو كسابقه له حالات جائزة، وله حالات محرمة، ومن الحالات المحرمة: ما أخبرنا الله سبحانه وتعالى به في كتابه عن قصة امرأة العزيز مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان منه عفة وصبر وتقوى، وكان منها العشق والمطاردة والحرص على إيقاعه في الحرام.

وقد كان الداعي لديه قوياً، وثبتته الله عَزَّجَلَّ، فقد كان فيه ميل طبيعي إلى المرأة بما ركبه الله في طبعه كرجل من الميل إلى النساء، وكان شاباً، عزباً، في بلاد غربة، وكانت المرأة ذات منصب وجمال، وغير آبية ولا ممتنعة، بل هي الداعية له، وأسقطت الحواجز النفسية، وهو في دارها، وتحت سلطانها، وهو عبد عندها فلا يخشى على نفسه التهمة، بل يدخل ويخرج دارها بحكم عمله عندها، واستعانت عليه بمن حولها من نساء بلدها، وتوعدته بالسجن والصَّغار، إن لم يلبَّ طلبها.

بالرغم من هذا كله فإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد آثر مرضاة الله تعالى، واختار السجن على الزنا، وقال: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، وصرَّف الله تعالى عنه كيدها وكيدهن، وكانت في تلك الواقعة عبيراً عظيمة، وفوائد كثيرة.

النوع الثالث: عشق الرجال للرجال، وهو ممقوت عند الله، وجالب لغضبه وسخطه، وهو من أضرَّ الأمور على العاشق والمعشوق، في الدين والدنيا والآخرة.

ومن هذا النوع: عشق الرجال للمردان، وعمل قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذين جلبوا لأنفسهم نقمة الله وعذابه، بما فعلوا من هذه الجريمة العظيمة المتولدة من عشق الذكران، حتى وصف الله تعالى عشقهم بأنه سَكْرٌ؛ فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. إنه انتكاس للفتنة، وانحراف للطبع.

النوع الرابع: عشق النساء للنساء، وهذا النوع كسابقه في الجرم والمقت والذناب والخسة، وكشفت إحدى الدراسات أن السبب الرئيس في انتشاره هو التعلق والإعجاب، وهو مؤذن بفساد مريع، وتدهور أخلاقي شنيع.

وهناك مظاهر تدل على العشق، منها:

١. محاولة إخفاء العلاقة، والإسرار بها.
٢. إطالة الجلوس مع المعشوق.
٣. احتفاظ كل من الطرفين بأسراره عند الآخر.
٤. التلغظ بعبارات تدل على الحب والغلو في هذه العلاقة.
٥. التصريح بالغيرة عليه.
٦. تقبُّل كل ما يصدر منه، حتى لو كان فيه إساءة أو معصية.
٧. كثرة مخالطته، ومحبة الانفراد به.



هل العشق اختياري أم اضطراري؟

نسمع كثيراً ممن يشتكون من داء العشق ويقولون: إنهم لا يستطيعون ترك مَنْ يحبونهم، وأن الموت أهون عليهم من تركهم!.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: هل العشق اختياري أم اضطراري؟

حاول العشاق قديماً أن يعذروا أنفسهم بأن العشق اضطراري، وأنه لا حيلة لهم في هذا العشق، ومن ذلك قول الشاعر:

يَلُومُونَنِي فِي حُبِّ سَلَمَى كَأَنَّمَا يَرُونَ الْهُوَى شَيْئاً تَيْمَّمْتُهُ عَمداً
أَلَا إِنَّمَا الْحُبُّ الَّذِي صَدَعَ الْحَشَا قِضَاءٌ مِنَ الرَّحْمَنِ يَلْبُوبُهُ الْعَبْدَا^(١)

ومقصدهم: بيان أن العشق قضاء وقدر، وهو بيد الله لا بيد المخلوق.

والحق - كما ذكر ابن القيم وغيره من العلماء رَحِمَهُ اللهُ -: أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية، داخلية تحت التكليف؛ فإن النظر والتفكير والتعرض للمحبة أمر اختياري، فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره غالباً، كما قيل:

تَوَلَّعَ بِالْعَشِقِ حَتَّى عَشِقَ فَلَمَّا اسْتَقَلَّ بِهِ لَمْ يُطِيقْ
رَأَى لُجَّةً ظَنَّهَا مَوْجَةً فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا غَرِقَ
تَمَنَّى الْإِقَالََةَ مِنْ ذَنْبِهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْهَا وَلَمْ يَسْتَطِيقْ^(٢)

وهذا بمنزلة السكر من شرب الخمر؛ فإن تناول المسكر اختياري، وما يتولد عنه السكر

(١) روضة المحبين (ص ١٤٢).

(٢) ذم الهوى (ص ٥٨٦).

اضطراري، فمتى كان السبب واقعا باختياره، لم يكن معذورا فيما تولد عنه بغير اختياره. فمتى كان السبب محظورا، لم يكن السكران معذورا، ولا ريب أن متابعة النظر واستدامة الفكر بمنزلة شرب المسكر، فهو يلام على السبب.

خطر العشق

إن بعض العشاق يدعون أن العشق يسمو بالنفس، ويصعد بالروح، ويجعلون العشق شيئا إيجابيا، والحق أن العشق سلبياته أكثر من إيجابياته.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فإن الذي يورثه العشق من نقص العقل والعلم وفساد الخلق والدين والاشتغال عن مصالح الدين والدنيا: أضعاف ما يتضمنه من جنس المحمود.

وأصدق شاهد على ذلك ما يعرف من أحوال الأمم وسعاع أخبار الناس في ذلك، فهو يُغني عن معاينة ذلك وتجريبه، ومن جرب ذلك أو عاينه اعتبر بها فيه كفاية، فلم يوجد قط عشق إلا وضرره أعظم من منفعتة»^(١).

فمن أضرار العشق وسلبياته:

١. أن العشق ربا أوقع صاحبه في الكفر بالله:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن العشق: «وهو أقسام: تارة يكون كُفْراً، لمن اتخذ معشوقه نداً، يُحِبُّه كما يُحِبُّ اللهُ، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه؟ فهذا عشق لا يُغفر لصاحبه، فإنه من أعظم الشرك، والله لا يغفر أن يُشرك به، وإنما يغفر بالتوبة الماحية ما دون ذلك.

وعلامة العشق الشركي الكفري: أن يُقدِّم العاشق رضاء معشوقه على ربه، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه، وحق ربه وطاعته، قدَّم حق معشوقه على حق ربه، وأثر رضاءه على رضاءه، وبذل له أنفس ما يقدر عليه، وبذل لربه - إن بذل - أَرَدًا ما عنده، واستفرغ وسعته في مَرَضَةِ معشوقه وطاعته والتقرب إليه، وجعل لربه - إن أطاعه - الفضلة التي تفضل عن معشوقه من ساعاته.

(١) الاستقامة (١/٤٥٩).

فَتَأْمَلُ حَالَ أَكْثَرِ عَشَاقِ الصُّورِ تَجِدُهَا مُطَابِقَةً لِدَلِكِ، ثُمَّ ضَعِ حَاهِمَهُمْ فِي كِفَّةٍ، وَتَوَحِيدَهُمْ وَإِيَابَهُمْ فِي كِفَّةٍ، ثُمَّ زِنْ وَزْنَائِرِضَى اللَّهِ بِهِ وَرَسُولُهُ وَيُطَابِقُ الْعَدْلَ، وَرُبَّمَا صَرَخَ الْعَاشِقُ مِنْهُمْ بِأَنَّ وَصَلَ مَعشُوقِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ رَبِّهِ، كَمَا قَالَ الْعَاشِقُ الْحَبِيثُ:

يَتَرَشَّفَنَ مِنْ فَيْي رَشَفَاتٍ ... هُنَّ أَحَلَى فِيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ

وَكَمَا صَرَخَ الْحَبِيثُ الْآخِرُ أَنَّ وَصَلَ مَعشُوقِهِ أَشْهَى إِلَيْهِ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ..

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْعِشْقَ مِنْ أَعْظَمِ الشَّرِكِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يُصْرِّحُ بِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ لِغَيْرِ مَعشُوقِهِ أَلْبَتَّةَ، بَلْ قَدْ مَلَكَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ كُلُّهُ فَصَارَ عَبْدًا مَحْضًا مِنْ كُلِّ وَجْهِ لِمَعشُوقِهِ، فَقَدْ رَضِيَ هَذَا مِنْ عُبُودِيَّةِ الْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ بِعُبُودِيَّةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ؛ فَإِنَّ الْعُبُودِيَّةَ هِيَ كَمَا لُحِبُّ الْحُبِّ وَالخُضُوعِ، وَهَذَا قَدْ اسْتَفْرَعَ قُوَّةَ حُبِّهِ وَخُضُوعِهِ وَذَلَّ لِمَعشُوقِهِ، فَقَدْ أَعْطَاهُ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ.

وَلَا نِسْبَةَ بَيْنَ مَفْسَدَةِ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ وَمَفْسَدَةِ الْفَاحِشَةِ؛ فَإِنَّ تِلْكَ ذَنْبٌ كَبِيرٌ، لِغَاغِلِهِ حُكْمٌ أَمْثَالِهِ، وَمَفْسَدَةُ هَذَا الْعِشْقِ مَفْسَدَةُ الشَّرِكِ، وَكَانَ بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ الْعَارِفِينَ يَقُولُ: لِأَنَّ أُبْتَلِيَ بِالْفَاحِشَةِ مَعَ تِلْكَ الصُّورَةِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلِيَ فِيهَا بِعِشْقٍ يَتَعَبَّدُ لَهَا قَلْبِي، وَيَشْغَلُهُ عَنِ اللَّهِ»^(١).

وهذا مجنون عزة يصف ما انتكس إليه قلبه فيقول:

رُهْبَانُ مَدِينِ وَالذِّينَ عَهْدْتُهُمْ يَبْكَونَ مِنْ حَدَرِ الْعَذَابِ فُعُودَا
لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ حَدِيثَهَا خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكْعًا وَسُجُودَا^(٢)

وهذا رجل ببغداد يُقَالُ لَهُ صَالِحُ الْمُؤَذِّنِ، أَدَنَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَكَانَ يُعْرِفُ بِالصَّلَاحِ، صَعَدَ يَوْمًا إِلَى الْمَنَارَةِ لِيُؤَذِّنَ، فَرَأَى بِنْتَ رَجُلٍ نَصْرَانِيٍّ كَانَتْ بَيْتَهُ إِلَى جَانِبِ الْمَسْجِدِ، فَافْتَتِنَ بِهَا، فَجَاءَ فَطَرَقَ الْبَابَ، فَقَالَتْ: مَنْ؟ فَقَالَ: أَنَا صَالِحُ الْمُؤَذِّنِ، فَفَتَحَتْ لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ ضَمَّهَا إِلَيْهِ. فَقَالَتْ: أَنْتُمْ أَصْحَابُ الْأَمَانَاتِ^(٣)، فَمَا هَذِهِ الْخِيَانَةُ؟! قَالَ: إِنْ وافقتني على ما أريد، وإلا

(١) الجواب الكافي (ص ١٥٠).

(٢) وفيات الأعيان (٤/١١٢).

(٣) لأن المؤذن مؤتمن على أعراض الناس؛ حيث يصعد على المنارة وسطح المسجد، فيرى البيوت من حوله.

قتلتك، فقالت: لا، إلا أن تترك دينك، فقال: هو بريء من الإسلام، ومما جاء به محمد، ثم دنا إليها، فقالت: إِنَّمَا قُلْتَ هَذِهِ لِتَقْضِيَ غَرَضَكَ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى دِينِكَ، فَكُلْ مِنْ لَحْمِ الْخَنْزِيرِ. فَأَكَلَ، قَالَتْ: فَاشْرِبِ الْحَمْرَ. فَشَرِبَ، فَلَمَّا دَبَّ الشَّرَابُ فِيهِ دَنَا إِلَيْهَا، فَدَخَلَتْ بَيْتًا وَأَغْلَقَتْ البابَ، وَقَالَتْ: اصْعِدْ إِلَى السَّطْحِ؛ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَبِي زَوْجِنِي مِنْكَ. فَصَعِدَ، فَسَقَطَ، فَمَاتَ، فَخَرَجَتْ، فَلَقَّتَهُ فِي مَسْحٍ، فَجَاءَ أَبُوهَا، فَفَصَّتْ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، فَأَخْرَجَهُ فِي اللَّيْلِ، فَرَمَاهُ فِي السُّكَّةِ، فَظَهَرَ حَدِيثُهُ، فَرُمِيَ فِي مَرْبَلَةٍ (١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِذَا أَرَادَ النَّصَارَى أَنْ يُنْصَرُوا الْأَسِيرَ، أَرَوْهُ امْرَأَةً جَمِيلَةً، وَأَمْرُوهَا أَنْ تُطْمِعَهُ فِي نَفْسِهَا، حَتَّى إِذَا تَمَكَّنَ حُبُّهَا مِنْ قَلْبِهِ، بِذَلِكَ لَهُ نَفْسَهَا إِنْ دَخَلَ فِي دِينِهَا، فَهُنَالِكَ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾» (٢).

٢. استعمال العاشق شتى الوسائل لوصال معشوقه:

إن العاشق يسعى للنيل من معشوقه بشتى الوسائل، وربما استعان العاشق على وصال المعشوق بشياطين الجن عن طريق السحر، وهذا موجود في الواقع، ومعلوم لدى الناس. فلأجل أن يصل إلى هذا المعشوق يستخدم العاشق السحر ليخضع المعشوق له، فيأتيه متى ما يريد، ولا يحتجب منه، ولا يمتنع عنه، وهذه طامة عظيمة؛ لأن السحر كُفر بالله العظيم.

٣. اشتغال العاشق بذكر المخلوق عن ذكر الخالق:

من مفسدات العشق: اشتغال العاشق بذكر المخلوق وحبه، عن حب الرب وذكره؛ لأنه لا يجتمع في القلب حب الخالق وعشق المخلوق، بل لا بد أن يقهر أحدهما الآخر. ولذلك: فإن أصحاب العشق الشيطاني لهم من تولي الشيطان نصيب عظيم، ترى الواحد منهم عبداً لذلك المعشوق، يصرِّح في حضوره ومغيبه أنه عبده!.

(١) ذم الهوى (ص ٤٥٩).

(٢) الجواب الكافي (ص ١٥٥).

ويتشتر هذا الداء عند أصحاب الغناء، فإنهم يصرّحون في أغانيهم بأنهم عبيدٌ لمن يحبونه ويعشقونه، بل قد يعبرون عن ذلك بالصلاة والعبادة.

وهذا العاشق يقدم رضا معشوقه على رضا ربه، ولقاء معشوقه على لقاء ربه، ويتمنى قرب معشوقه أعظم من تمنيته قرب الرب سبحانه، ويهرب من سخط معشوقه أشد من هربه من سخط الرب سبحانه، وقد يُسخط ربه لمرضاة معشوقه، ويقدم مصالح معشوقه على طاعة ربه، فإن فضل من وقته فضلة وكان عنده قليل من الإيمان صرف تلك الفضلة في طاعة ربه، وإن استغرق الزمان حوائج معشوقه ومصالحه صرف زمانه كله فيها، وأهمل أمر الله.

يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويجعل لربه من ماله - إن جعل له - كل رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لبه وقلبه وهمّه ووقته وخالص ماله، ولربه الفضلة!

قد اتخذه وراءه ظهرياً، وصار لذكره نسيّاً، إن قام في خدمته في الصلاة: فلسانه يناجيه وقلبه يناجي معشوقه، وإن وجّه بدنه إلى القبلة: فقلبه موجه إلى معشوقه.

ينفّر، أو ينفّر من خدمة ربه، حتى كأنه واقف في الصلاة على الجمر من ثقلها عليه، فإذا جاءت خدمة المعشوق أقبل عليها بقلبه وبدنه فرحاً بها، ناصحاً له فيها، خفيفة على قلبه، لا يستثقلها، ولا يستطيها.

ولا ريب أن هؤلاء من الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، وهذا مجنون ليل يقول:

أَرَانِي إِذَا صَلَّيْتُ يَمَّمْتُ نَحْوَهَا

بِوَجْهِهِ وَإِنْ كَانَ الْمُصَلِّي وَرَائِيَا

وَمَا بِي إِشْرَاكٌ وَلَكِنَّ حُبَّهَا

كَعَظْمِ الشَّجَا^(١) أَعْيَا الطَّيِّبِ الْمُدَاوِيَا^(٢)

(١) عظم الشجي: هو العظم المعترض في الحلق، والذي يصعب إخراجه، كحسك السمكة.

(٢) ذم الهوى (ص ٤٠٣-٤٠٤).

٤. عذاب قلب العاشق:

فإن من أحب شيئاً غير الله عُدَّ به ولا بُد، كما قيل:

وَمَا فِي الْأَرْضِ أَشَقَى مِنْ مُحِبٍّ وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى عَذَبَ الْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِياً فِي كُلِّ حِينٍ مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لاشْتِيَاقٍ^(١)

والعشق وإن استلذَّ به صاحبه فهو من أعظم العذاب، والعاشق قلبه أسيرٌ في قبضة معشوقه، يسومه سوء الهوان، يحرکه يميناً وشمالاً، يستجيب له كالطفل الذي يحرك الآلة بجهاز التحكم، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بالمصيبة، فقلبه:

كعصفورة في كف طفل يذيقها أفانين طعم الموت، والطفل يلعب^(٢)
والعاشق كما قيل:

طَلَيْقُ بَرَأِي الْعَيْنِ وَهُوَ أَسِيرٌ عَلِيلٌ عَلَى قُطْبِ الْهَلَاكِ يَدُورُ
وَمَيَّتُ يُرَى فِي صُورَةِ الْحَيِّ غَادِيًا وَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النَّشُورِ نُشُورُ
أَخُو غَمَرَاتٍ ضَاعَ فِيهِنَّ قَلْبُهُ فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى الْمَاتِ حُضُورُ^(٣)

٥. اشتغال العاشق عن مصالح دينه ودنياه:

فليس شيء أضيع للدين ومصالح الدنيا من عشق الصور.

أما ضياع الدين: فلأن هذا الإنسان قد تفرق قلبه عن الله بالعشق، فلا يجد وقتاً لمرضاة ربه.

وأما مصالح الدنيا: فهي تابعة لمصالح الدين، فإذا انشغل عن مصالح الدين، كان عن مصالح الدنيا أشد شغلاً وتفريطاً.

٦. آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى العشاق من النار في الحطب اليابس:

وسبب ذلك: أن القلب كلما قرب من العشق وقوي اتصاله بالمعشوق بُعد عن الله، فأبعدُ

(١) ذم الهوى (ص ٥٩٢).

(٢) معجم الشعراء العرب (ص ٢٣١٩).

(٣) الجواب الكافي (ص ١٥١).

القلوب عن الله قلوب العشاق، وإذا بعد القلب عن الله طرقت الآفات، وتولاه الشيطان من كل ناحية، ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله.

فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيه وفساده؟!

وكذلك: فإن العشق إذا تمكن من القلب واستحكم، أفسد العقل، وأفسد الذهن، وأحدث الوسواس، وأفقد القدرة على التفكير، ولذلك تراه لا يتقن درساً، ولا يفلح في تجارة، ولا يحسن النظر في قضية، ولا يجيد حل مشكلة؛ لأن التفكير قد سُلب، والقلب قد علاه الران، فلم يعد يدري كيف يفكر!.

وأشرف ما في الإنسان عقله، وبه يتميز عن البهائم، فإذا عديم العقل وفقده التحق بالبهائم، وربما كان حال الحيوان أصلح من حاله.

وهل أذهب عقل مجنون ليلي وأضرَّ به إلا العشق؟!

بل زاد جنونه على جنون غيره:

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ
العِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ
العِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ
وَإِنَّمَا يُصْرَعُ المَجْنُونُ فِي الحِينِ^(١)

أما الفساد المعنوي: فهو فساد القلب، والقلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان، والقلب الفاسد يُرى صاحبه القبائح محاسن، ويُعمي العشق عين القلب عن رؤية مساوئ المحبوب المعشوق، وعن تبصّر عيوبه، فلا ترى عين العاشق أبداً عيوب المعشوق، فيصم أذنه عن الإصغاء إلى أي قادح فيه، ومنبّه على أخطائه، ويستमित في الدفاع عنه، ولو كان خطأ المعشوق واضحاً.

ولما بلغ السيلُ الزُبى، وبلغ به هذا المبلغ، لم يعد يرتضي أن يقدح في معشوقه أحد، أو أن يذمه أحد، أو أن ينتقده أحد، فيدافع عنه بالحق والباطل، ويستमित في ذلك.

والرغبات تستر العيوب، فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه، حتى إذا زالت الرغبة أبصر العيوب، وكانت هذه الرغبة ستاراً يُغشي البصر، ولذلك قال ذاك العاشق:

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٤٢٥).

عَلِقْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انجَلَّتْ قَطَعْتُ نَفْسِي أَلُومَهَا^(١)

فعندما كان عاشقاً كانت عليه غشاوة، وبعد أن ذهب عنه ذلك العشق أصبح يتساءل:
كيف كنت معجباً بهذه؟!

وهكذا.. فإن الداخل في الشيء لا يرى عيوبه، والذي هو خارجه قد لا يرى عيوبه أيضاً، وإنما يرى عيوبه من دخل فيه ثم خرج منه، ولكن الذي يدخل العشق ويخرج منه قليل جداً.

لماذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيراً من الذين ولدوا في الإسلام؟

لأنهم عرفوا الكفر ورأوه وذاقوه ومارسوه، ثم بعد ذلك اهدوا، فعرفوا الجاهلية وعرفوا الإسلام، وهذا معنى قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنما تنقض عُرى الإسلام عروةً عروة: إذا وُلِدَ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»^(٢).

وأما إفساد العشق للحواس: فشيء ظاهر؛ فإنها تمرض كما يمرض البدن، فبدن العاشق تنسل منه العافية، فترى العاشق نحيلاً مريضاً كثيراً هزياً ضعيفاً طريح الفراش، لا يستطيع أداء عمل، ولا إفادة أحد.

رُفِعَ إلى ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا شَابٌّ، وَهُوَ بِعَرَفَةَ، قَدْ صَارَ كَالْخَلَالِ. فَقَالَ: مَا بِهِ؟ قَالُوا: الْعِشْقُ. فَجَعَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَامَّةً دُعَائِهِ بِعَرَفَةَ: الْإِسْتِعَاذَةَ مِنَ الْعِشْقِ^(٣).

فمن فرط المحبة يستولي العشق على قلب المعشوق، حتى لا يستطيع أن ينسلخ من محبوه، ولا أن يترك التفكير فيه، فصورة محبوه دائماً في ذهنه، دائماً على لسانه، يراه في منامه، ويتخيله في يقظته، يصحو على ذكره، وينام على صورته، ولا يغيب عن خاطره.

(١) ذم الهوى (ص ٣٣٢).

(٢) ذكر شيخ الإسلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الأثر في مجموع الفتاوى (١٠ / ٣٠١)، وقد أخرجه الحاكم (٤ / ٤٧٥)، وابن أبي شيبه (٦ / ٤١٠) بلفظ آخر عن المستظل بن حصين البارقي قال: «خطبنا عمر بن الخطاب فقال: قد علمت ورب الكعبة متى تهلك العرب». فقام إليه رجل من المسلمين فقال: متى يهلكون يا أمير المؤمنين؟ قال: «حين يسوس أمرهم من لم يعالج أمر الجاهلية، ولم يصحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٣) مدارج السالكين (٣ / ٣١).

تتعطل قواه الجسدية، وتفسد روحه، وتتغير أفعاله، وتنقلب صفاته، وتنعكس مقاصده، ويحدث لديه اختلال عقلي وجسدي وروحي.

وهو مرض من أخطر الأمراض، فلا تكاد ترى له دواءً، ولا طبيباً.
 الْحُبُّ أَوْلُ مَا يَكُونُ لِحَاجَةٍ تَأْتِي بِهِ وَتَسُوْقُهُ الْأَقْدَارُ
 حَتَّى إِذَا اقْتَحَمَ الْفَتَى لُجْجَ الْهَوَى جَاءَتْ أُمُورٌ لَا تُطَاقُ كِبَارُ^(١)

العشق مبدؤه سهل حلو، وأوسطه همّ وشغل قلب وسقم، وآخره عطب وقتل، ولذلك وصل الحال ببعض العشاق إلى الموت بسبب العشق.

هناك عشاق ماتوا، لا زالوا يذبلون ويذبلون، لا يشتهون طعاماً، ولا يذوقون راحة، حتى ماتوا.

وَعِشْ خَالِيًا فَالْحُبُّ أَوْلُهُ عَنَا وَأَوْسَطُهُ سَقَمٌ وَآخِرُهُ قَتْلُ^(٢)

والمسألة يجني بها العاشق على نفسه، بدايتها منه، وأسبابها منه، وهو الذي أرادها، ومشى إليها، وسعى فيها.

هو الذي تعمد النظر، وهو الذي قصد التفكير، وهو الذي استدام طول المجالسة، وكثرة الحديث مع هذا المعشوق، حتى وصلت القضية إلى العشق.

فالمسألة كانت بيده أولاً، وكان من الممكن أن يرجع قبل الغرق في بحر العشق، لكن بعدما صار في لُجج الهوى، كيف يرجع؟

لو أدخلت فرسك في زقاق ضيق جداً، فمن الممكن أن ترجع إلى الخلف في بداية الزقاق بشيء بسيط من الجهد، لكن إذا أصبحت في وسط الزقاق وقد أبعدت وأوغلت، فكيف ترجع؟

إن الدابة لا تستطيع الدوران للرجوع، ولا تستطيع أن تمشي إلى الخلف.

ولذلك، فإن من دخل في هذا الموضوع لا يستطيع أن يتركه، إلا بتوفيق الله.

(١) ذم الهوى (ص ٣٣٤).

(٢) روضة المحبين (ص ١٤١).

٧. فساد سيرة العاشق بين الناس:

إن هذا العاشق يضرّ سيرته وسمعته عند الناس، فتصبح سيرته على كل لسان، ويتناقل الناس قصصه متلذذين شامتين، وربما افتروا عليه فيها؛ ليجمّلوا القصة ويحسنوها، وقد يتهموه بالفاحشة، وغير ذلك.

٨. استغلال المعشوق العاشق أحياناً:

ربما يستغلّ بعض هؤلاء المعشوقين تلك العلاقة المحرمة، ويستغلون العاشق استغلالاً بشعاً، فيأخذون أمواله وبعض ممتلكاته.

تحدّثت إحدى العوائل عن ابنها الذي سافر إلى بلدٍ من البلدان، وعشق امرأة هناك، طارت بلبّه، وذهبت بعقله، فأنفق عليها الكثير من أمواله في المطاعم، والفنادق، والهبات، والأعطيات، والملابس، والحليّ، وغير ذلك، حتى رجع مفلساً. وقد يدخل بعضهم السجن؛ بسبب السرقة، أو الاقتراض، من أجل محبوبته.

٩. العشق ربما أدى إلى القتل، وارتكاب الجرائم:

فكم للعشق من قتيل من الجانبين!.

فربما عمد العاشق إلى قتل أي طرف آخر يقترب من معشوقه أو معشوقته!. فهذا العشق كم قد أزال من نعمة، وأفقر من غنى، وأسقط من مرتبة، وشتت من شمل، وكم أفسد من أسر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٠. عدم التوفيق للخاتمة الحسنة:

ومن مفسد العشق: عدم توفيق العاشق للخاتمة الحسنة، إلا أن يتغمده الله برحمته، وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد يخذعه الشيطان، فكيف إذا صار غافلاً عن ذكر الله؟

وكيف إذا نزل به الموت، وسقطت قواه، واشتغل قلبه بألم النزاع، واجتمع عليه كيد إبليس، وحشد عليه كل ما يقدر؛ لينال الفرصة النهائية بخروجه من الدنيا، فهل يسلم العاشق عند ذلك في هذه اللحظة من الضعف؟!.

هنالك ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والسؤال هو: كيف يوفق لحسن الخاتمة من غفل قلبه عن ذكر الله، واتبع هواه، وكان أسيراً للشهوات والموبقات؟!

من كانت جوارحه معطلة عن طاعة الله، ولسانه بمعزل عن ذكر الله، وكان مشغولاً بالمعصية وخدمة المعشوق، كيف تُكتب له العاقبة الحسنة؟!

وقصة صاحب «حمام منجاب» الذي مات على ذكر محبوبته واعظ لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

رُوي أن رجلاً نزل به الموت فقيل له: قل: لا إله إلا الله. فجعل يقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟

وقصته: أنه كان واقفاً على باب داره يوماً، وكان بابه يشبه باب الحمام، فمرت به جارية لها منظر جميل وهي تقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال لها: هذا حمام منجاب. وأشار إلى داره، فدخلت الدار، فدخل وراءها، فلما رأت نفسها معه في داره وليست بحمام علمت أنه خدعها، فأظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة في تلك الدار، وقالت له: يصلح أن يكون عندنا ما يطيب به عيشنا، وتقر به عيوننا، فهلا جئت بشيء من الطعام. فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين، وبكل ما تشتهين، وخرج، فتركها في الدار ولم يغلقها، تركها مفتوحة على حالها، ومضى، فأخذ ما يصلح لهما، ورجع ودخل الدار، فوجدها قد خرجت وذهبت، ولم يجد لها أثراً، فهام الرجل بها، وأكثر الذكر لها والجزع عليها، وظل يمشي في الطرق والأزقة وهو يقول:

يَا رَبُّ قَائِلَةٍ يَوْمًا وَقَدْ تَعَبْتَ أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَامِ مَنجَابٍ

وبعد أشهر مر في بعض الأزقة وهو ينشد هذا البيت، وإذا بجارية تجاوبه من طاق وهي تقول:

هَلَّا جَعَلْتَ لَهَا إِذْ ظَفِرَتْ بِهَا حِرْزًا عَلَى الدَّارِ أَوْ قُفْلًا عَلَى البَابِ

فزاد هيمنانه، واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتى مات على الحال التي ذكرنا، فنعود بالله من المحن والفتن^(١).

وقريب منه:

ذلك الذي كان يعشق شاباً اسمه أسلم، واشتد به الأمر إلى أن أصابه المرض بسبب فراقه، وحضرته الوفاة، فقيل له: قل لا إله إلا الله. فقال:

أَسْلَمُ يَا رَا حَةَ الْعَلِيلِ رِفْقاً عَلَى الْهَائِمِ النَّحِيلِ
وَصَلُّكَ أَشْهَى إِلَى فُؤَادِي مِنْ رَحْمَةِ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ

ومات على هذه الكلمة^(٢).

١١. فساد العقل:

العشق قد يُفسد العقل، فترى الناس في وادٍ والعاشق في وادٍ آخر، دائم التفكير بمحبوبه، فلا يستطيع أن يستفيد من عقله، ولا يُفيد أحداً بفائدة.

بل إنه ربما جعل دواءه داءه!.



(١) العاقبة في ذكر الموت (ص ١٧٩-١٨٠).

(٢) ذم الهوى (ص ٥٦٠).

أسباب العشق

للقوع في العشق أسباب عديدة، منها:

إعراض القلب عن محبة الله:

قال العلماء عن العشق: «العشق حركة قلب فارغ»^(١).

والمقصود: أن القلب لو كان فيه محبة الله لا يمكن أن يدخله العشق، فالعشق إنما تُبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِنَ أَعْظَمِ الْأَشْيَاءِ ضَرراً عَلَى الْعَبْدِ: بَطَالَتُهُ وَفِرَاغُهُ، فَإِنَّ النَّفْسَ لَا تَقْعُدُ فَارِغَةً، بَلْ إِنْ لَمْ يَشْغَلْهَا بِمَا يَنْفَعُهَا شَغَلَتْهُ بِمَا يَضُرُّهُ، وَلَا بَدَّ»^(٢).

فإن لم يكن هناك محبة قوية لله سبحانه وتعالى؛ فلا بُدَّ أن تدخل محبة شخص آخر ذلك القلب، فإن النفس لا تقعد فارغة، وإن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، والقلب إذا خلا من محبة الله امتلاً بغيره.

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْباً خَاوِياً فَتَمَكَّنَا^(٣)

الجوع العاطفي:

بعض الناس يكون عنده جوع عاطفي، فعاطفته لم تُشبع منذ صغره، فربما كان مفتقداً لحنان أمٍ ترضعه وترعاه، وشفقة أبٍ يحوطه ويحنو عليه، فيبحث عن هذا الحنان من خلال العشق.

(١) زاد المعاد (٤/٢٤٦).

(٢) طريق المهجرتين (ص ٤١٣).

(٣) روضة المحبين (ص ١٣٨).

وهؤلاء الأطفال الذين عاشوا في أسرة مفككة، فالأب طلق الأم، ولم يرعيا أطفالهما، بل قد يكون الطفل عاش في بيت ثالث، فلم يذق حنان أمه، ولم يعرف شفقة أبيه، هؤلاء الأطفال هم أكثر الناس عرضة لهذا النوع من العشق؛ لجوعهم العاطفي.

لذلك: فإن إشباع غريزة الطفل في العاطفة من قبل الأبوين؛ يجعل له ثباتاً نفسياً، وربما يُبعدُ عنه مثل هذه الآفات.

الأغاني المحرمة، والأفلام الهابطة، والروايات الرومانسية:

من الأسباب العظيمة للوقوع في العشق: هذه الوسائل الخطيرة من الأغاني والأفلام الهابطة، التي تدعو إلى الفحشاء والعلاقات المحرمة، فجُلُّ الأغاني، ونسبة كبيرة من الأفلام تدور حول هذا الموضوع.

فكلمات الأغاني تدور حول المحبوبة والمعشوقة، ولا تتحدث إلا عن الحب والغرام، ولا تصف إلا أحوال العشاق.

والأفلام تصور قصص العشاق بأفضل الوسائل التكنولوجية الحديثة، بقصص كتبها متخصصون، ومثّلها ممثلون، مع ما يصاحبها من الموسيقى الحاملة، والكلمات المثيرة، مما جعل كثيراً من الناس يعجبون بالعشق والغرام، ويسعون لتطبيق ما سمعوه وشاهدوه.

وليست الروايات الرومانسية ببعيدة عن هذه المفاسد، بل قد تزيد مفاسدها في بعض الأحيان.

إن هذه الأفلام والروايات قد أضرت بشبابنا وفتياتنا أعظم الضرر، وأوقعتهم في مرض العشق، فهاموا على وجوههم في صحراء المعاصي، لا يجدون مَعْلَمًا للحق يأوون إليه؛ لِعِظَم تعلق قلوبهم بغير الله.

هذا الجوع العاطفي جعل الشباب في هيجان شديد، يبحثون عن الشهوات المحرمة، والعلاقات المشبوهة، في كل وقت.

ضعف الشخصية والتقليد:

إن العاشق فيه ضعف في الشخصية، لا يستطيع أن يتحكم في عواطفه ومشاعره، بل يجرفه التيار، ولذا: يقع فيما يقع فيه الناس بدون تفكير، ولو كان حازماً قوياً الشكيمة لا تمتلك زمام نفسه، ولردّها عن هذا الغي.

غياب القدوة الصالحة:

من أسباب الوقوع في العشق: عدم وجود القدوة الصالحة التي توجّه عواطف الشباب والفتيات إلى ما ينبغي حبه، وهو حب الله عَزَّوَجَلَّ، وحب رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحب الصالحين، فحمل النفس على حب الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحب الصالحين يجعل في القلب غُنية عن حب الصور والعشق المحرم.

الفراغ:

الفراغ داء العصر، أشغل كثيراً من الشباب بالمعاصي، خاصة عندما يكون الشاب في مجتمع غني لا يحتاج فيه للعمل، فيتفرغ للعشق والهيمان، والذهاب للأسواق، والسير خلف فلانة وفلان، وتضييع الساعات الطويلة في هذا الأمر.

مظاهر الزينة:

ومن أسباب الوقوع في العشق: انتشار مظاهر الزينة التي كثرت في هذا العصر، فزُينت الأجساد بما بهر الألباب، وأوقع القلوب في سجن العشق.

عدم حفظ الجوارح:

إن عدم حفظ الجوارح يدفع بالإنسان إلى وقوع القلب في العشق والهوى، وقد يكون العشق بالنظر أو بالسمع.

فوقوع العشق بالنظر واضح جداً، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرِزْنَا الْعَيْنَ النَّظْرُ، وَرِزْنَا اللِّسَانَ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَتَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ أَوْ يُكَذِّبُهُ»^(١).

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

فتأمل كيف بدأ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذكر النظر.

وقد يكون السمع طريقاً إلى ذلك، فقد أوقع سماع الأغاني كثيراً من الشباب في العشق، فكان سماع الأغنية الذي وقر في القلب هو الذي أدى إلى هذه الهاوية، كما قال بشار بن برد:

يا قوم أذني ليعض الحي عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا: بمن لا ترى تهدي، فقلت لهم:
الأذن كالعين تُوفي القلب ما كانا^(١)

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَبَاشِرُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ، فَتَنَعْتَهَا لِرُؤُوسِهَا، كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا»^(٢).

لماذا؟

حتى لا يعشقها، فإن القلب قد يعشق بالسمع.

وهذا خطأ تقع فيه كثير من الزوجات، فتجلس الزوجة تصف لزوجها امرأة أخرى، شكلها كذا، وطولها كذا، ولونها كذا، وتحديثه عن مميزاتا، وضحكها، ومزاحها.

فيقع الرجل في غرام هذه المرأة، حتى وإن لم يرها.

وبعض الأزواج تزوج بثانية، من وراء وصف زوجته لهذه الثانية، كانت زميلتها، فإذا بها تصبح ضرتها!.



(١) خزائن الأدب (٣/٢١٩).

(٢) رواه البخاري (٥٢٤٠).

سبل الوقاية من العشق

للووقاية من الوقوع في مرض العشق وسائل عدة، من أبرزها، ما يلي:

اجتناب أسباب العشق:

الطباع تتساوى في الميل إلى الهوى، فينبغي للحازم اجتناب أسبابه، والبعد عنه منذ البداية، فيحمي سمعه وبصره من مسببات الهوى.

محبة الله وحده، وملء القلب بها:

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللهِ: «ولهذا كان أعظم صلاح العبد: أن يصرف كل قوى حبه لله تعالى وحده، بحيث يحب الله بكل قلبه وروحه وجوارحه، فيوحد محبوبه، ويوحد حبه،... فتوحيد المحبوب: ألا يتعدد محبوبه، وتوحيد الحب: أن لا يبقى في قلبه بقية حب، حتى يبذلها له»^(١).

فيجب على الإنسان ألا يبقى في قلبه حب إلا وبذله لله، فيحب الله، ويحب في الله، ويبغض في الله، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وهذا الحب غاية صلاح العبد ونعيمه وقرّة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا به.

محبة الله فوق محبة العشاق والمحبين لمحبيهم، إنها أكمل وأعظم وأكثر وأشد من محبة الولد والوالد والمال؛ لأن محبة الله فيها كمال ذل وخضوع وتعظيم وطاعة وانقياد، ظاهراً وباطناً.

(١) روضة المحبين (ص ١٩٩).

تحليل العلاقات:

على الإنسان العاقل أن يحلل علاقاته مع الآخرين؛ فينظر: لم أحب فلاناً ولم كره الآخر، ولا يعمل على خداع نفسه، فلا يبرر لنفسه أنه يجب فلاناً في الله، مع أن الحقيقة أنه يجب له لجمال منظره، وبهاء طلعه.

غض البصر:

الواجب على من وقع نظره على مستحسن فوجد لذة تلك النظرة أن يصرف بصره؛ لأن الناظر متى عاود الكرة، وقع في اللوم شرعاً وعقلاً.

وتأمل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج أزكى للنفس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور، ومن ذلك العشق.

والعشق له علاقة قوية بالنظر، وعلاجه غض البصر، وعدم تكراره؛ فإن النظر كالبذرة التي تبذر في الأرض، فالنظرة الأولى هي البذرة، ولكن معاودة النظر هو الماء الذي تُسقى به تلك البذرة.

فإذا تعاهد الشخص تلك البذرة بالسقي، فستصبح البذرة شجرة قوية، لا يمكن انتزاعها.

ولذلك، فإن غض البصر من أعظم الوقايات.



علاج العشق

أما علاج العشق: فيختلف بحسب المرحلة التي وصل إليها العاشق، فدخل الهوى يسير، ولكن الخروج منه شديد.

ومن علاجات العشق:

١. الفرار:

البعد عن أرض المعشوق من أعظم علاجات العشق، كما يقال: البعيد عن العين بعيد عن القلب.

فعلى العاشق أن يسافر إلى بلد آخر، ويترك المكان الذي يرى فيه معشوقه، فيغير مسكنه، أو مقر عمله.

وعلى المسلم أن يحذر من خديعة إبليس، والتي ينصح بها العشاق وأهل الغرام.

نَعِمَتْ بِهَا عَيْنِي فَطَالَ عَذَابُهَا وَلَكُمْ عَذَابٌ قَدْ جَنَاهُ نَعِيمٌ!
نَظَرْتُ فَأَقْصَدْتُ الْفُؤَادَ بِسَهْمِهَا ثُمَّ انشَنتُ نَحْوِي فَكِدْتُ أَهِيمٌ
وَيَلَاهُ إِنِ نَظَرْتُ وَإِنْ هِيَ أَعْرَضَتْ وَقَعُ السَّهَامِ وَنَزَعُهُنَّ أَلِيمٌ^(١)

ولابد للمعشوق أن يكون له دور في العلاج، فعليه أن يفر من العاشق، ويخرج من أرضه، ويحلي الطريق فارغاً، حتى لا يقع العاشق على خبر له، ولا على حس أو أثر، فلا يراه، ولا يسمع كلامه، حتى ينساه شيئاً فشيئاً.

وقد يحس المعشوق بالألم لهذا الفراق، ويزداد عذاباً به، فيقال له: اصبر؛ فإن النصر مع الصبر.

(١) ذم الهوى (ص ٥٩١).

وقد يقول: أو شكت على الموت، فنقول له: لو مت فأنت مأجورٌ بإذن الله؛ لأنك منعت نفسك عن الحرام. وإن عشت فستحيا حياة كريمة تتخلص فيها من هذا البلاء. وإياك من النظرة الأخيرة، فإن بعضهم قد يقول عندما يشتد به الأمر: هاتوه لحظة، أراه، وأجلس معه قليلاً فقط، فنقول: لو جلس معك ورأيت؛ فسترجع إلى ما كنت عليه. كما أن على المعشوق أن يتقي الله وينصرف عن طريق العاشق، وإلا، فإنه سيعرّض العاشق للتلف، وذلك ظلم منه، بل عليه أن يسعى بكل طريق في إنقاذه، وإخراجه من هذه الحالة، بالبعد عنه.

٢. تأمل مساوئ المعشوق:

إن عين المحب قليلة عن عيوب المحبوب، والعاشق لا يكاد يرى شيئاً من عيوب محبوبه، بل قد يراها من المحاسن. ومن علاج الهوى: أن يتأمل الإنسان في مساوئ محبوبه: كيف يحمل النجاسات في أحشائه وأمعائه! وإذا كانت امرأة: ماذا يحصل لها من الحيض والنفاس والدماء! قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا أعجبت أحدكم امرأة: فليذكر مناتنها»^(١). يُذْكَرُ أَنَّ رَجُلًا وَامْرَأَتَهُ اخْتَصَمَا إِلَى أَمِيرٍ مِنْ أَمْراءِ الْعِرَاقِ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ حَسَنَةَ الْمُتَّقِبِ، قَبِيحَةَ الْمَسْفَرِ، وَكَانَ لَهَا لِسَانٌ، فَكَانَ الْعَامِلُ مَالَ مَعَهَا، فَقَالَ: يِعْمَدُ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَرْأَةِ الْكَرِيمَةِ فَيَتَرَوَّجَهَا، ثُمَّ يُسِيءُ إِلَيْهَا. فَأَهْوَى الرَّجُلُ، فَأَلْقَى النِّقَابَ عَنْ وَجْهِهَا، فَقَالَ الْعَامِلُ: عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ! كَلَامٌ مَظْلُومٍ، وَوَجْهُ ظَالِمٍ^(٢). قال ذلك لما رأى المنظر الحقيقي لبقية الوجه، واتضح له أن المرأة ليست جميلة.

٣. ردع النفس عن الحرام:

على الإنسان أن يردع نفسه عن الحرام، فإن كانت المعشوقة زوجة لرجل يقول لنفسه: هذه زوجة رجل، فكيف أعشقها؟

(١) ذم الهوى (ص ١٥).

(٢) ذم الهوى (ص ٥٨٥).

وإذا كان ذكراً قال: هذه العلاقة التي لعن الله عليها قوم لوط، وأهلكهم، وعاقبهم بعقوبات ما عاقب غيرهم بها: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧]، ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ﴾ [هود: ٨٢]، ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣].

ليس هناك قوم عاقبهم الله بمثل عقاب قوم لوط؛ فإذا جاء في نفسه عشق أحد الذكران أو المردان؛ فليردع نفسه عن هذا العشق؛ بتذكيرها بهذا العقاب الأليم.

٤ . تذكير النفس بعظمة الرب سبحانه:

لو أن الإنسان رأى زوجة ملك من الملوك فهوها، وتعلق قلبه بها، فما الذي يقطعه عنها؟ إنه الخوف من ذلك الملك، وخوف انتقامه وبطشه. فعلى المرء أن يذكر نفسه بعظمة الرب سبحانه، وأنه شديد العقاب، قوي البطش.

٥ . النظر في عواقب العشق:

إن العشق يورث قلقاً دائماً، وعواقب مشينة، وأضراراً عظيمة. فالعشق يُصَيِّرُ الإنسان سفيهاً تافهاً، وينقص عقله وحكمته. والعشق مشوب بالغموم، والهموم، وخوف الفراق، وفضيحة الدنيا، وحسرات الآخرة. والعاقل إذا رأى أن مرضاً سيفضي به إلى الهلاك، فإنه سيعالج نفسه منه ولا بُدَّ، فكذلك العشق، هذا المرض القلبي لا بُدَّ للعاقل أن يسارع إلى علاج نفسه منه إذا وقع فيه.

٦ . الدعاء:

الدعاء هو السلاح الذي لا يخون في النوائب والملمات، السلاح الناجع الذي ينبغي على المؤمن أن يستعمله في كل وقت وحين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد كان من هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعليم الصحابة أدعية لمواجهة العشق وغيره من الآفات، فعن شَكل بن مُحمَّد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قلت: يا رسول الله، علمني دعاء. قال: «قُل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيَّ»^(١).

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتَّقَى، وَالعَفَا، وَالعِغَى»^(٢).
فإياك والاعتزاز بنفسك، فابتعد عن الدعاء وتأمن المكر.

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ^(٣)

قال ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فَإِنْ عَجَزَتْ عَنْهُ هَذِهِ الْأَدْوِيَّةُ كُلُّهَا: لَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا صِدْقُ اللُّجَأِ إِلَى مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، وَلِيَطْرَحَ نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى بَابِهِ مُسْتَعِينًا بِهِ، مُتَضَرِّعًا مُتَدَلِّلًا، مُسْتَكِينًا، فَمَتَى وَفَّقَ لِذَلِكَ، فَقَدْ قَرَعَ بَابَ التَّوْفِيقِ»^(٤).

٧. الصبر:

فإن الصبر عاقبته حميدة، والنصر مع الصبر، وتجرع مرارة الصبر الآن، خير لك من تجرع مرارة غسلين في نار جهنم، والعياذ بالله.

٨. مجاهدة النفس:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٩. استشارة من يثق فيه:

ما خاب من استشار ولا ندم، ولذلك على من وقع في هذه المصيبة أن يأخذ برأي إخوانه، فيها يستعين به في مواجهة هذا المرض.

(١) رواه أبو داود (١٥٥١)، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٣) نفع الطيب (٦/١٧٧).

(٤) زاد المعاد (٤/٢٧٤).

ويستعين بالإخوان الصالحين، الذين ينصحونه حق النصيحة، ويرشدونه إلى الطريقة الشرعية المنجية من هذا الداء.



الخاتمة

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عَنِ الْعَشْقِ: «وتلك لعمر الله الفتنة الكبرى، والبلية العظمى، التي استعبدت النفوس لغير خلاقها. وملكت القلوب لمن يسومها الهوان من عشاقها، وألقت الحرب بين العشق والتوحيد، ودعت إلى موالاة كل شيطان مريد، فصيرت القلب للهوى أسيراً، وجعلته عليه حاكماً وأميراً، فأوسعت القلوب محنة، وملأتها فتنة، وحالت بينها وبين رشدها، وصرفتها عن طريق قصدها.

ونادت عليها في سوق الرقيق، فباعتها بأبخس الأثمان، وأعاضتها بأخس الحظوظ وأدنى المطالب عن العالی من غرف الجنان، فضلاً عما هو فوق ذلك من القرب من الرحمن، فسكنت إلى ذلك المحبوب الحسيس، الذي ألمها به أضعاف لذتها، ونيله والوصول إليه أكبر أسباب مضرتها، فما أوشكه حبياً يستحيل عدواً عن قريب، ويتبرأ منه محبه لو أمكنه حتى كأنه لم يكن له بحبيب. وإن تمتع به في هذه الدار فسوف يجد به أعظم الألم بعد حين، لاسيما إذا صار الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدواً إلا المتقين.

فيا حسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بخس، وشهوة عاجلة، ذهبت لذتها، وبقيت تبعتها، وانقضت منفعتها، وبقيت مضرتها، فذهبت الشهوة، وبقيت الشقوة، وزالت النشوة، وبقيت الحسرة، فوارحمتهاء لصبب جمع له بين الحسرتين، حسرة فوت المحبوب الأعلى والنعيم المقيم، وحسرة ما يقاسيه من النصب في العذاب الأليم. فهناك يعلم المخدوع أى بضاعة أضاع، وأن من كان مالك رقه وقلبه لم يكن يصلح أن يكون له من جملة الخدم والأتباع، فأى مصيبة أعظم من مصيبة ملك أنزل عن سرير ملكه، وجعل لمن لا يصلح أن يكون مملوكه أسيراً، وجعل تحت أوامره ونواهيته مقهوراً. فلو رأيت قلبه وهو في يد محبوبه لرأيت:

كِعْصُفُورَةٍ فِي يَدِ طِفْلِ يَسُومُهَا حِيَاضَ الرَّدَى، وَالطِّفْلُ يَلْهُو وَيَلْعَبُ

ولو شاهدت حاله وعيشه لقلت:

وَمَا فِي الْأَرْضِ أَشَقَى مِنْ مُحِبِّ وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى حُلُومَ الْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِياً فِي كُلِّ حِينٍ مَخَافَةَ فُرْقَةٍ، أَوْ لِاشْتِيَاقِ
فِيَبْكِي إِنْ نَأَوَا، شَوْقاً إِلَيْهِمْ وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا، حَذَرَ الْفِرَاقِ

ولو شاهدت نومه وراحته، لعلمت أن المحبة والمنام تعاهدا وتحالفا أن ليسا يلتقيان، ولو شاهدت فيض مدامعه، وهيب النار في أحشائه لقلت:

سُبْحَانَ رَبِّ الْعَرْشِ، مُتَقِنِ صُنْعِهِ وَمُؤَلِّفِ الْأَصْدَادِ دُونَ تَعَانُدِ
قَطْرٌ تَوَلَّدَ عَنِ لَهِيْبٍ فِي الْحَشَا مَاءٌ وَنَارٌ فِي مَحَلٍّ وَاحِدِ

ولو شاهدت مسلك الحب في القلب وتغلغله فيه، لعلمت: أن الحب ألطف مسلكاً فيه من الأرواح في أبدانها.

فهل يليق بالعاقل أن يبيع هذا الملك المطاع لمن يسومه سوء العذاب، ويوقع بينه وبين وليه ومولاه الحق الذي لا غناء له عنه ولا بد له منه أعظم الحجاب؟

فالمحب بمن أحبه قتيل، وهو له عبد خاضع ذليل، إن دعاه لبّاه، وإن قيل له: ما تتمنى؟ فهو غاية ما يتمناه، لا يأنس بغيره، ولا يسكن إلى سواه، فحقيق به أن لا يملك رقه إلا لأجل حبيب، وأن لا يبيع نصيبه منه بأخس نصيب^(١).

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يملأ قلوبنا بنوره، وأن يفيض علينا من رحمته، وأن ينزل علينا السكينة، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يصلح قلوبنا ونياتنا وذرياتنا، إنه سميع مجيب قريب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.



(١) إغاثة اللهفان (٢/١٢٢).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرف العشق في اللغة والاصطلاح.
٢. ما هي أنواع العشق؟
٣. للعشق مظاهر عدة، فما هي أبرزها؟
٤. ما هي مفسدات وأضرار العشق؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. بماذا يرتبط العشق غالباً؟
٢. ما السبب الرئيسي المؤدي لعشق النساء للنساء؟

٣. لابن القيم رأي سديد في مسألة العشق، فما هو؟
٤. ذكر ابن تيمية في كتابه (الاستقامة) أموراً يورثها العشق للعاشق، فما هي؟
٥. ماذا يفعل النصارى إذا أرادوا تنصير الأسرى؟



مفسدات القلوب



حب الدنيا



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فما لا شك فيه أن القلب هو ملك الأعضاء، والأعضاء جنوده، فإذا صلح الملك صلح الجنود، كما روى النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١). والقلب كالحصن الرفيع، وله أبواب ومداخل، والشيطان كالعدو الغاشم المتربص، الذي يسعى جاهداً لدخول هذا الحصن؛ ليستولي عليه.

ولا يُقدَّر على حفظ هذا الحصن إلا بحراسة أبوابه ومدخله، فيجب على العاقل أن يعرف هذه الأبواب وتلك المداخل؛ حتى يصد ذلك العدو الغاشم عن قلبه، حتى لا يفسده عليه.

ومداخل الشيطان إلى القلب كثيرة، ومنها -على سبيل المثال-:

الحسد، والحرص، والطمع، والبخل، والشح، والرياء، والعجب، وسوء الظن، والعجلة، والطيش، والغضب، وحب الدنيا، والتعلق بها، وبزيتها، في اللباس، والأثاث، والدور، والمراكب، ونحوها.

وسوف نتناول بمشيئة الله تعالى هذا المدخل الأخير من مداخل الشيطان في ثنايا هذا

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

الفصل ضمن كتاب مفسدات القلوب، وسنعرض لبيان شيء من حقيقة الدنيا، مع إشارة موجزة لموقف المؤمنين منها، ثم نذكر ما تيسر من مظاهر حب الدنيا، وأسبابه، ومفاسده، وعلاجه.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية. ونسأل الله تعالى أن لا يجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا إلى النار مصيرنا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.



حقيقة الدنيا

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهِيَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ، ثُمَّ يَسِيحُ فترته مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «(ما) صلة، تقديره: اعلموا أن الحياة الدنيا لعب باطل، وهو فرح، ثم ينقضي، وقال قتادة: لعب وهو: أكل وشرب، وقيل: إنه على المعهود من اسمه، قال مجاهد: كل لعب هو»^(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى -مهوِّناً أمر الحياة الدنيا ومحقرها لها- ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهِيَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال تعالى: ﴿زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثم ضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا، ويُنَّ أنها زهرة فانية، ونعمة زائلة فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ﴾ أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك تُعَجِبُ الحياة الدنيا الكفار؛ فإنهم أحرص شيء عليها، وأميل الناس إليها.

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٥٤).

﴿ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي: يهيج ذلك الزرع، فتراه مصفرا بعدما كان خضرا نضرا، ثم يكون بعد ذلك كله حطاما، أي يصير يبسا متحطما. هكذا الحياة الدنيا: تكون أولا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزا شوهاة، والإنسان يكون كذلك أول عمره وعنفوان شبابه: غضا طريا، لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة؛ فتتغير طباعه، ويفقد بعض قواه، ثم يكبر، فيصير شيخا كبيرا، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها و فراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة؛ حذر من أمرها، ورجب بما فيها من الخير، فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا: إما هذا وإما هذا، إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ أي: هي متاعٌ فانٍ غارٌّ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه، حتى يعتقد أن لا دار سواها، ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة^(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول: فلا يفخر ذو الأموال بكثرة أمواله، ولا يستكبر على غيره بها، ولا يغترن أهل الدنيا بدينهم، فإنها مثلها مثل هذا النبات الذي حَسُنَ استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا زَيْتٌ أن انقطع عنه الماء، فتناهى نهايته، عاد يابساً تذرؤه الرياح، فاسداً، تنبو عنه أعين الناظرين، ولكن، ليعمل للباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يبسد، ولا يتغير»^(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى: واضرب -يا محمد- للناس مثل الحياة الدنيا في زوالها وفنائها وانقضائها، كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، أي ما فيها من الحب

(١) تفسير ابن كثير (٢٤/٨).

(٢) تفسير الطبري (٣٠/١٨).

فشب وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله أصبح هشياً يابساً تذروه الرياح، أي تفرقه وتطره ذات اليمين وذات الشمال، وكان الله على كل شيء مقتدراً، أي هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل»^(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظُرِبَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزيتها، وتعجبه فيميل إليها ويهاها؛ اغترارا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها: سلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبها بالأرض التي ينزل الغيث عليها، فتعشب، ويحسن نباتها، ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها، مالك لها، فيأتيها أمر الله، فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفراً منها، فكذا حال الدنيا والوائق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(٤).

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٦١).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٥٣).

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٤) رواه مسلم (١٤٦٧).

وعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(٢).

وعن المستورد بن شداد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاللَّهُ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى - أَحَدَ الرِّوَاةِ - بِالسَّبَابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ»^(٣).



(١) رواه الترمذي (٢٣٢٠) وقال: حديث صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٦).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨).

المؤمنون والدنيا

موقف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدنيا:

قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - واصفاً حال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «... وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وَسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشُوها لَيْفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرْظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهْبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَسَرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ! فَقَالَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وقد عرضت الدنيا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحذافيرها، وتعرضت له، فدفع في صدرها باليدين، وردّها على عقبها، ثم عرضت بعده على أصحابه، وتعرضت لهم، فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه، وهم القليل، ومنهم من استعرضها، وقال: ما فيك؟ قالت: فيّ الحلال والشبهة والمكروه والحرام، فقالوا: هاتي حلالك، ولا حاجة لنا فيما عداه. فأخذوا حلالها.

ثم تعرضت لمن بعدهم، فطلبوا حلالها، فلم يجده، فطلبوا مكروها وشبهها، فقالت: قد أخذه من قبلكم، فقالوا: هاتي حرامك. فأخذوه، فطلبه من بعدهم، فقالت: هو في أيدي الظلمة، قد استأثروا به عليكم، فتحويلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرغبة، فلا يمد فاجر يده إلى شيء من الحرام، إلا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه إليه. هذا، وكلهم ضيوف، وما بأيديهم عارية، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما أصبح أحد في الدنيا إلا ضيف، وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مؤادة»^(٢).

(١) البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

(٢) عدة الصابرين (ص ١٨٦).

وأنبىء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامَ لا يحصل لهم سرور بأمور الدنيا، وإنما يكون سرورهم بالله، وبفضله، وبرحمته، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَا يُسِرُّ نَبِيٌّ بِأَمْرِ دُنْيَا»^(١).

بعض مواقف الصحابة رَحِمَهُمُ اللهُ مِنَ الدُّنْيَا:

تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ عن كثير من طيبات المأكل والمشرب، وتنزه عنها، وقال: «إني أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم، وقرَّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]» وقال أبو مجلز: «ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾»^(٢).

وعن عرفجة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ تَرَكَ الْقِرَاءَةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَقَالَ: «أَثَرْنَا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: «أَثَرْنَا الدُّنْيَا؛ لِأَنَّا رَأَيْنَا زَيْتَهَا وَنِسَاءَهَا وَطَعَامَهَا وَشَرَابَهَا، وَزُوَيْتَ عَنَّا الْآخِرَةُ، فَاخْتَرْنَا هَذَا الْعَاجِلَ، وَتَرَكَنَا الْآجِلَ».

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وَهَذَا مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّوَضُّعِ وَالْهَضْمِ، أَوْ هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْجِنْسِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ»^(٣).

وعن الأحنف بن قيس، قال: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَبَيْنَا أَنَا فِي حَلَقَةٍ فِيهَا مَلَأٌ مِنْ قُرَيْشٍ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ أَحْسَنُ الثِّيَابِ، أَحْسَنُ الْجَسَدِ، أَحْسَنُ الْوَجْهِ، فَقَامَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «بَشِّرِ الْكَانِزِينَ بِرَضْفٍ يُحْمَى عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُوضَعُ عَلَى حَلْمَةِ نَدْيِ أَحَدِهِمْ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ نُغْضِ كَتْفَيْهِ، وَيُوضَعُ عَلَى نُغْضِ كَتْفَيْهِ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حَلْمَةِ نَدْيِهِ يَتَزَلُّزَلُ» قال: فَوَضَعَ الْقَوْمُ رُءُوسَهُمْ، فَهَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ رَجَعَ إِلَيْهِ شَيْئًا، قَالَ: فَأَدْبَرَ، وَاتَّبَعْتُهُ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى سَارِيَةٍ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ هَؤُلَاءِ إِلَّا كَرَهُوا مَا قُلْتَ لَهُمْ، قَالَ: «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا، إِنَّ خَلِيلِي

(١) تفسير القرطبي (١٣ / ١٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٢٨٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٨ / ٣٨٢).

أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَانِي فَأَجَبْتُهُ، فَقَالَ: «أَتَرَى أُحْدَأُ؟» فَظَرْتُ مَا عَلَيَّ مِنَ الشَّمْسِ، وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّهُ يَبْعَثُنِي فِي حَاجَةٍ لَهُ، فَقَالَ: «مَا يَسُرُّنِي أَنْ لِي مِثْلُهُ ذَهَبًا أَنْفَقَهُ كُلَّهُ، إِلَّا ثَلَاثَةَ دَنَانِيرٍ» ثُمَّ هُوَ لَا يَجْمَعُونَ الدُّنْيَا، لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا» قَالَ: قُلْتُ: مَا لَكَ وَلِإِخْوَتِكَ مِنْ قُرَيْشٍ، لَا تَعْتَرِبُهُمْ وَتُصِيبُ مِنْهُمْ، قَالَ: «لَا، وَرَبِّكَ، لَا أَسْأَلُهُمْ عَن دُنْيَا، وَلَا أَسْتَفْتِيهِمْ عَن دِينٍ، حَتَّى أَلْحَقَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»^(١).

وعن وبرة قال: سألت رجل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أطوف بالبيت وقد أحرمت بالحج؟ فقال: «وما يمنعك؟» قال: إني رأيت ابن فلان يكرهه، وأنت أحب إلينا منه، رأينا قد فتنته الدنيا، فقال: «وأينا - أو أيكم - لم تفتنه الدنيا؟»^(٢).

وعن عمرو بن قيس عن حدثه عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما حضره الموت قال: «مرحبا بالموت، زائر مُعَبِّ، حبيب جاء على فاقة، اللهم كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظماً لهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر»^(٣).

بعض مواقف التابعين من الدنيا:

عن حزم بن أبي حزم قال: دخلنا على مالك بن دينار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مرضه الذي مات فيه، وهو يكابد بنفسه، فرفع رأسه إلى السماء ثم قال: «اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لبطن ولا لفرج»^(٤).

ودخل أبو مسلم الخولاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المسجد، فنظر إلى نفر قد اجتمعوا جلوساً، فرجا أن يكونوا على ذكر وعلى خير، فجلس إليهم، فإذا بعضهم يقول: قدم غلام لي فأصاب كذا وكذا، وقال الآخر: قد جهزت غلامي، فنظر إليهم فقال: «سبحان الله! هل تدرون يا هؤلاء ما مثلي ومثلكم؟ كم مثل رجل أصابه مطر غزير وابل، فالتفت فإذا هو بمصراعين

(١) رواه مسلم (٩٩٢).

(٢) رواه مسلم (١٢٣٣).

(٣) الثبات عند الممات (ص ١١٨-١١٩).

(٤) الثبات عند الممات (ص ١٤٨).

عظيمين، فقال: لو دخلت هذا البيت حتى يذهب عني أذى هذا المطر، فدخل، فإذا بيت لا سقف له، جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على خير وعلى ذكر، فإذا أنتم أصحاب دنيا! فقام عنهم^(١).

هذه بعض النماذج من سير الرعيل الأول، ومن أراد المزيد، فبإمكانه الرجوع لما سطره العلماء في مصنفاتهم الخاصة بالتراجم والسير.



(١) الزهد لابن المبارك (١/٣٣٨).

مظاهر حب الدنيا

لحب الدنيا مظاهر عديدة، ومن أبرزها ما يلي:

• إصرار الناس على الانهباك في الدنيا:

عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: كنت واقفاً مع أبي بن كعب رضي الله عنه فقال: «لا يزال الناس مختلفاً أعناقهم في طلب الدنيا»^(١).

• طلب الدنيا بعمل الآخرة:

قال مطرف رضي الله عنه: «إن أقبح الرغبة في الدنيا: أن تُطلب بعمل الآخرة»^(٢).

قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: «لأن أكل الدنيا بالطلب والمزمار، أحب إلي من أن أكلها بديني»^(٣).

قال الجنيد رضي الله عنه: «سمعت السري يذم من يأكل بدينه ويقول: من النذالة أن يأكل العبد بدينه»^(٤).

كان مالك بن أنس رضي الله عنه يقول: «قال لي ربيعة الرأي - وكان أستاذ مالك - يا مالك من السفلة؟ قال: قلت: من أكل بدينه، فقال: من سفلة السفلة؟ قال: من أصلح دنيا غيره بفساد دينه». قال: «فصدّرتني»^(٥).

(١) رواه مسلم (٢٨٩٥).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٦٩٣٠).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٦٩٣١).

(٤) رواه البيهقي في الشعب (٦٩٣٢).

(٥) رواه البيهقي في الشعب (٦٩٣٣).

وعن فضيل بن عياض قال: «سئل ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: من الناس؟ قال: العلماء، قال: من الملوك؟ قال: الزهاد، قال: فمن السفلة؟ قال: الذي يأكل بدينه»^(١).

• الترف والتنعم في الملبس، والمأكل، والمشرب:

عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بعث به إلى اليمن قال له: «إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ؛ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالتَّنَعِّمِينَ»^(٢).

• حب المال، وحب الجاه، والشرف، والشهرة:

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

عن كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا ذُتَّبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»^(٣).



(١) رواه البيهقي في الشعب (٦٩٣٤).

(٢) رواه أحمد (٢١٦٠٠) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٠ / ١٠) «رجاله ثقات»، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٦٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٧٦) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

أسباب حب الدنيا

لحب الدنيا أسباب كثيرة، ولعل من أبرزها الأسباب التالية:

• زينتها، وحسنها الظاهر:

قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(١).

• ميل النفس والقلب إليها:

قال تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَلْبِغُ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَتَيْنِ: حُبِّ الْعَيْشِ وَالْمَالِ»^(٢).

وفي لفظ: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمْرِ»^(٣).

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٢) رواه مسلم (١٠٤٦).

(٣) رواه مسلم (١٠٤٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَاوِيَاءَ مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابَ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ»^(١).

• إيثار العاجل الحاضر على الأجل المنتظر:

قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

قال ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه وبيّن لهم مواقع رضاه وغضبه، ووعدهم على مخالفة هواهم وطبائعهم أكمل اللذات في دار النعيم، فلم تقو عقول الأكثرين على إيثار الأجل المنتظر بعد زوال الدنيا، على هذا العاجل الحاضر المشاهد، وقالوا: كيف يباع نقد حاضر - وهو قبض باليد - بنسيئة مؤخره، وُعدنا بحصولها بعد طي الدنيا وخراب العالم؟ ولسان حال أكثرهم يقول:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به.

فساعد التوفيق الإلهي مَنْ عَلم أنه يصلح لمواقع فضله، فأمدّه بقوة إيمان وبصيرة، رأى في ضوئها حقيقة الآخرة ودوامها، وما أعد الله فيها لأهل طاعته وأهل معصيته، ورأى حقيقة الدنيا، وسرعة انقضائها، وقله وفائها، وظلم شركائها، وأنها كما وصفها الله سبحانه: لعب، وهو، وتفاجر بين أهلها، وتكاثر في الأموال والأولاد، وأنها كغَيْث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتره مصفراً، ثم يكون حطاماً، فنشأنا في هذه الدار، ونحن منها وبنوها، لا نألف غيرها، وحكمت العادات، وقهر سلطان الهوى، وساعده داعي النفوس، وتقاضاه موجب الطباع، وغلب الحس على العقل، وكانت الدولة له»^(٢).

وخلاصة القول: أن حب الدنيا وإيثارها على الآخرة يرجع إلى أحد سببين:

السبب الأول: فساد في الإيمان والدين.

والسبب الثاني: فساد في العقل.



(١) رواه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨).

(٢) شفاء العليل (ص ٢٦٥).

مفاسد حب الدنيا

حدّثنا الله جلّ وعلا من الاغترار بالدنيا والركون إليها؛ لما في ذلك من المفاسد والمضار العاجلة والآجلة، ومنها ما يلي:

• أن حب الدنيا مفتاح كل شر:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومفتاح الاستعداد للآخرة: قصر الأمل، ومفتاح كل خير: الرغبة في الله والدار الآخرة، ومفتاح كل شرّ: حب الدنيا وطول الأمل، وهذا باب عظيم من أنفع أبواب العلم، وهو معرفة مفاتيح الخير والشرّ، ولا يوفق لمعرفة ومراعاته إلا من عظم حظه وتوفيقه، فإن الله سبحانه وتعالى جعل لكل خير وشرّ مفتاحا، وبابا يدخل منه إليه»^(١).

• أن حب الدنيا سبب للوقوع في الكفر بالله، ومعصيته:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(٢).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والكافر قد يعلم وجود ذلك الضرر، لكنه يحمله حب العاجلة على الكفر، يبين ذلك قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

(١) حادي الأرواح (ص ٤٨).

(٢) رواه مسلم (١١٨).

الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جُرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾.

فقد ذكر تعالى مَنْ كفر بالله من بعد إيمانه، وذكر وعيده في الآخرة، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ وبين تعالى أن الوعيد استحقوه بهذا^(١).

• التعرض للعقوبة والعذاب في الدنيا قبل الآخرة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «محبها أشد الناس عذابا بها، وهو معذب في دوره الثلاث، يعذب في الدنيا بتحصيلها، والسعي فيها، ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها، والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدا، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد الناس عذابا في قبره، يعمل الهم والغم والحزن والحسرة في روحه، ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه»^(٢).

وقال أيضا: «محب الدنيا يعذب في قبره، ويعذب يوم لقاء ربه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ قال بعض السلف: يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها»^(٣).

وقال أيضاً: «وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسبى أولادهم، فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك. وهذا ذهاب عن مقصود الآية؛ فإن الله سبحانه أقر المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر، وتولى سرائرهم، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه من غنيمة أموالهم، وسبى أولادهم؛ فإن الإرادة ههنا كونية بمعنى المشيئة، وما شاء الله كان ولا بد، وما لم يشأ لم يكن، والصواب -والله أعلم- أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثرها على الآخرة، بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٩).

(٢) عدة الصابرين (ص ١٨٩).

(٣) عدة الصابرين (ص ١٨٩).

المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهدته على تحصيلها، والعذاب هنا هو الألم، والمشقة، والتعب»^(١).

• غفلة القلب عن الدار الآخرة والتقصير في العمل الصالح:

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَّ بِأَخْرَجَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضْرَّ بِدُنْيَاهُ، فَأَثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَيَّ مَا يَفْنَى»^(٢).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وقال تعالى ﴿قُلِ الْخِرَاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَوْهَا هُونَ﴾ أي: ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي: فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له، وهذا يشبه قوله ﴿وَلَا نُطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَهُ هُونَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة، ولهذا قال من قال: «السهو: الغفلة عن الشيء، وذهاب القلب عنه»، وهذا جماع الشر: الغفلة والشهوة، فالغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير، الذي هو الذكر واليقظة، والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغمورا فيما يهواه ويخشاه، غافلا عن الله، رائدا غير الله، ساهيا عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره، قد ران حب الدنيا على قلبه، كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ، وَعَبْدُ الحَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَبِكَ فَلَا انْتَقَشَ»^(٣).

جعل له عبد ما يرضيه وجوده، ويسخطة فقده، حتى يكون عبد الدرهم، وعبد ما وصف في هذا الحديث، والقطيفة هي التي يجلس عليها، فهو خادمها»^(٤).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «محبته تعترض بين العبد، وبين فعل ما يعود عليه نفعه في

(١) إغاثة اللهفان (١/٣٦).

(٢) رواه أحمد (١٩١٩٨)، وقال الهيثمي في المجمع (١١/١٤٤): «رجاله ثقات»، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٣/١٤٤): «صحيح لغيره».

(٣) رواه البخاري (٢٨٨٧).

(٤) الزهد والورع والعبادة (ص ٣٥).

الآخرة؛ لاشتغاله عنه بمحبوبه. والناس ها هنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه، ومنهم من يشغله عن الواجبات التي تجب عليه الله ولخلقه، فلا يقوم بها ظاهرا ولا باطنا، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات، ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها، وإن قام بغيره، ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، فيفطر في وقته، وفي حقوقه، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب، وتفريغه لله عند أدائه، فيؤديه ظاهرا لا باطنا، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها؟ هذا من أندرهم.

وأقل درجات حبها: أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفرغ القلب لحب الله، ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه. فعشقتها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا، وقد روى مرفوعا: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَأَثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى»^(١).

• مزاحمته لمحبة الله في القلب:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فكيف إذا استولى على القلب ما هو أعظم استعبادا من الدرهم والدينار، من الشهوات، والأهواء، والمحجوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته؛ لما فيها من المزاحمة والشرك بالمخلوقات؟ كيف تدفع القلب وتزيغه عن كمال محبته لربه، وعبادته، وخشيته؟ لأن كل محبوب يجذب قلب محبه إليه، ويزيغه عن محبة غير محبوبه»^(٢).

• عدم تلذذ القلب بذكر الله تعالى:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «القلب إنما خلق لذكر الله سبحانه، ولذلك قال بعض الحكماء المتقدمين من أهل الشام -أظنه سليمان الخواص رَحِمَهُ اللهُ قال: «الذكر للقلب بمنزلة الغذاء للجسد، فكما لا يجد الجسد لذة الطعام مع السقم، فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا» أو كما قال»^(٣).

(١) عدة الصابرين (ص ١٨٨).

(٢) الزهد والورع (ص ٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٩ / ٣١٢).

• **الهم الدائم، والفقر اللازم، وتشنت الشمل:**

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن أبلغ العذاب في الدنيا: تشتت الشمل، وتفرق القلوب، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب»^(٢).

• **أنه يلهي عن ذكر الله:**

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأقل ما في حبها أنه يُلهي عن حب الله وذكوره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين، وإذا لها القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان، وَصَرَّفَهُ حَيْثُ أَرَادَ»^(٣).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله لو كانت الدنيا صافية المشارب من كل شائب، ميسرة المطالب لكل طالب، باقية علينا لا يسلبها منا سالب، لكان الزهد فيها هو الفرض الواجب؛ لأنها تشغل عن الله، والنعم إذا شغلت عن المنعم، كانت من المصائب»^(٤).

• **أن الدنيا تصير غايته:**

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أحبها صَيَّرَهَا غَايَتَهُ، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهَا بِالْأَعْمَالِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ وَسَائِلَ إِلَيْهِ، وَإِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَعَكَسَ الْأَمْرَ، وَقَلْبَ الْحِكْمَةِ، فَانْعَكَسَ قَلْبُهُ، وَانْعَكَسَ سِيرُهُ إِلَى وِرَاءِ، فَهَذَا هُنَا أَمْرَانِ، أَحَدُهُمَا: جَعَلَ الْوَسِيلَةَ غَايَةً، وَالثَّانِي: التَّوَسَّلَ بِأَعْمَالِ الْآخِرَةِ إِلَى الدُّنْيَا، وَهَذَا شَرٌّ مَعْكُوسٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَقَلْبٌ مَنكُوسٌ غَايَةَ الْإِنْتِكَاسِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَنْطَبَقَ عَلَيْهِ حَذْوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/١٢٧).

(٢) إغاثة اللهفان (١/٣٦).

(٣) عدة الصابرين (ص ١٨٦).

(٤) التذكرة في الوعظ (ص ٧١).

إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُحْسِنُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾، وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّيْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٨﴾.

فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضا، وتدلل على معنى واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة: فحظه ما أراد، وهو نصيبه، ليس له نصيب غيره، والأحاديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مطابقة لذلك، مفسرة له^(١).

• حرمان العبد من الأجر، وإفساد عمله:

ثم ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عدة أحاديث في معنى الآيات المتقدمة، ثم قال: «فانظر محبة الدنيا ماذا حرمت هذا المجاهد من المجاهدين من الأجر، وأفسدت عليه عمله، وجعلته أول الداخلين إلى النار»^(٢).

• الطغيان:

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَى ﴿٧﴾ [العلق: ٦-٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: «منهومان لا يشبعان: صاحب العلم، وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم: فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا: فيتهادى في الطغيان» قال: ثم قرأ عبد الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَى ﴿٧﴾، وقال للآخر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وقد روي هذا مرفوعا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا»^(٣)^(٤).

(١) عدة الصابرين (ص ١٨٦).

(٢) عدة الصابرين (ص ١٨٨).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٠٣٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٢٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٤٣٧/٨).

• بيع الدنيا بالدين:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(١).

• القول على الله بغير علم، والابتداع في الدين:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه، وحكمه، في خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشبهات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق، ودفعه كثيرا، فإذا كان العالم والحاكم محيين للرياسة متبعين للشهوات، لم يتم لهم ذلك إلا بدفع ما يصاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتنفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهرا لا خفاء به ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته، وقال: لي مخرج بالتوبة. وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾^(٥٥) وقال تعالى فيهم أيضا: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْدارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى، مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون: هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه، وأما الذين يتقون: فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة»^(٢).

(١) رواه مسلم (١١٨).

(٢) الفوائد (ص ١٠٠-١٠١).

• ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وترك الجهاد في سبيل الله:

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ افْعَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقِّ إِذَا رَأَاهُ أَوْ شَهِدَهُ»^(١).

• تأخر النصر ونزع المهابة من صدور الأعداء:

عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قَلِيلٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُشَاءٌ كَغُشَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^(٢).

• خسارة الدنيا والآخرة:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعُدُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

قال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «غدا كل امرئ فيما يهيمه، ومن همَّ بشيء أكثر من ذكره، إنه لا عاجلة لمن لا آخرة له، ومن أثر دنياه على آخرته، فلا دنياه ولا آخرة»^(٣).

• التبعيد الأجوف، وموت القلب:

قال ابن الجوزي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مثل المحب لها -ولو كابد العبادة- كمثل ناشر الأرز، يرفع رجلاً، ويضع أخرى، ومن مكانه لا يبرح، وكذلك الذي سُغِلَ بحب الدنيا قلبه، وبالعبادة جوارحه، تراه طول عمره يتقرب إلى الله بظواهره، ويبعد عنه بقلبه»^(٤).

(١) رواه أحمد (١١٠٨٢)، وصححه محققو المسند.

(٢) رواه أبو داود (٤٢٩٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص ٢٥٨).

(٤) التذكرة في الوعظ (ص ٣٦).

• سوء الخاتمة:

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن لسوء الخاتمة -أعاذنا الله منها- أسباباً، ولها طرق وأبواب، أعظمها: الإنكباب على الدنيا، وطلبها، والحرص عليها، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على معاصي الله عَزَّجَلَّ، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام؛ فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين له المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد»^(١).



(١) الجواب الكافي (ص ١١٦).

علاج حب الدنيا

ما من داء إلا وله دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله، ومن ذلك داء حب الدنيا، فعلاجه كامن في الأمور التالية:

• العلم الراسخ بحقيقة الدنيا:

وقد تقدم الكلام على ذلك في مبحث حقيقة الدنيا.

• احتقار الدنيا وإهانتها:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وقال إسحق بن هانئ في مسائله: قال أبو عبد الله - وأنا أخرج من داره-: قال الحسن: أهينوا الدنيا؛ فوالله لأهنأ ما تكون حين تهان، وقال الحسن: والله ما أبالي شرقت أم غربت، قال: وقال لي أبو عبد الله: يا إسحق! ما أهون الدنيا على الله عَزَّجَلَّ»^(١).

• التفكير في سرعة زوالها، وسرعة إقبال الآخرة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «عاشقها ومحبتها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق، وأقلهم عقلاً؛ إذ أثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش، بحياة إنها هي أحلام نوم، أو كظل زائل، إن الليب بمثلها لا يُجدع، كما نزل أعرابي بقوم، فقدموا له طعاماً، فأكل، ثم قام إلى ظل خيمة فنام، فاقتلعوا الخيمة، فأصابته، فانتبه وهو يقول:

وان امرؤ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بحبل غرور

(١) عدة الصابرين (ص ١٨٥-١٨٦).

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغترارا بظل زائل حق

قال يونس بن عبد الأعلى رَحِمَهُ اللهُ: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام، فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه ^(١).

قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما هذا زهرة الحياة وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ أي: حسن المرجع والثواب، وقد روى ابن جرير عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لما أنزلت ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ قلت: الآن يا رب حين زينتها لنا، فنزلت: ﴿قُلْ أُوْنِيْتُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمَّ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾».

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِيْتُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمَّ﴾

أي: قل يا محمد للناس: أخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا، من زهرتها، ونعيمها الذي هو زائل لا محالة، ثم أخبر عن ذلك، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٥-٩٦].

قال ابن كثير: «﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تعتاضوا عن الإيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند

(١) عدة الصابرين (ص ١٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢).

الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه، وآمن به، وطلبه، وحفظ عهده، رجاه موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنْ نُجْزِيَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يخلو وينقضي؛ فإنه إلى أجل معدود، محصور، مقدر، متناه، وما عند الله باق، أي: ثوابه لكم في الجنة باق، لا انقطاع ولا نفاذ له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول. ﴿وَلَنْ نُجْزِيَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قسّم من الرب تعالى مؤكد باللام: أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها^(١).

• القناعة باليسير:

قال الله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال الحسن: ابن آدم! لا تعلق قلبك في الدنيا؛ فتعلقه بشر معلق، اقطع حبالها، وعلق أبوها، حسبك يا ابن آدم منها ما يبلغك المحل»^(٣).

• تدبر عواقب حب الدنيا:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «شهوات الدنيا في القلب كشهوات الأظعمة في المعدة، وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والتتن والقبح ما يجده للأظعمة اللذيذة إذا انتهت في المعدة غايتها، وكما أن الأظعمة كلما كانت ألدّ طعاماً وأكثر دسماً وأكثر حلاوة كان رجيعها أقدر، وكذلك كل شهوة كانت في النفس ألدّ وأقوى، فالتأذي بها عند الموت أشد، كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقدته يقوى بقدر محبة المحبوب.

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٧٧٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٦٥)، وصححه الألباني.

(٣) عدة الصابرين (ص ١٩٣).

وفي المسند أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال للضحاك بن سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يا ضحَّاك! ما طَعَامُكَ؟» قال: اللحم واللبن، قال: «ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَاذَا؟» قال: إلى ما قد علمت، قال: «فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنْ ابْنِ آدَمَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا»^(١).

كان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة، فيقول: انظروا إلى ثمارهم، ودجاجهم، وعسلهم، وسمنهم»^(٢).

• الاشتغال بتحصيل أسباب اللذة الحقيقية، لا المتوهمة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ - وهو يتكلم عن اللذة -: «... وَإِذَا عُرِفَ هَذَا، فَأَعْظَمُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُحْصَلُ هَذِهِ اللَّذَّةُ - يعني في الآخرة - هُوَ أَعْظَمُ لَذَاتِ الدُّنْيَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَهِيَ لَذَّةُ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَذَّةُ مَحَبَّتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ جَنَّةُ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا الْعَالِي، وَنَسَبَةُ لَذَاتِهَا الْفَانِيَةِ إِلَيْهِ كَتَفَلَةٍ فِي بَحْرِ، فَإِنَّ الرُّوحَ وَالْقَلْبَ وَالْبَدْنَ إِنَّمَا خُلِقَ لِذَلِكَ، فَأَطِيبُ مَا فِي الدُّنْيَا: مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ، وَالذُّمَّا فِي الْجَنَّةِ: رُؤْيَتُهُ وَمُشَاهَدَتُهُ، فَمَحَبَّتُهُ وَمَعْرِفَتُهُ فُرَّةُ الْعُيُونِ، وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ وَبَهْجَةُ الْقُلُوبِ، وَنَعِيمُ الدُّنْيَا، وَسُرُورُهَا، بَلْ لَذَاتُ الدُّنْيَا الْقَاطِعَةُ عَنِ ذَلِكَ تَتَقَلَّبُ آلامًا وَعَذَابًا، وَيَبْقَى صَاحِبُهَا فِي الْمَعِيشَةِ الضَّنْكَ، فَلَيْسَتْ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَكَانَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ تَمَرُّهُ أَوْقَاتٌ، فَيَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ مِثْلِ هَذَا إِنْهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ، وَكَانَ غَيْرُهُ يَقُولُ: لَوْ يَعْلَمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ»^(٣).

• أن يقدم رضى الله على ما تحبه نفسه وتمواه:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وفي بعض الكتب السالفة: من أحب الله لم يكن شيء عنده أثر من رضاه، ومن أحب الدنيا لم يكن شيء عنده أثر من هوى نفسه. وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن قال: ما نظرت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي، ولا

(١) رواه أحمد (٢٠٧٣٣)، وصححه محققو المسند.

(٢) عدة الصابرين (ص ١٩٥).

(٣) الجواب الكافي (ص ١٦٨).

نهضت على قدمي، حتى أنظر: على طاعة الله أو على معصيته، فإن كانت طاعة تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت»^(١).

• التفكير في نعيم الجنة:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»^(٢) وسبب ذلك: أن ابن آدم مركب من جسد وروح، وكل منهما يحتاج إلى ما يتقوت به، ويتنعم به، وذلك هو عيشه، فالجسد عيشه الأكل، والشرب، والنكاح، واللباس، والطيب، وغير ذلك من اللذات الحسية، ففيه - بهذا الاعتبار - مشابهة بالحيوانات في هذه الأوصاف، وأما الروح: فهي لطيفة، وهي روحانية، فقوتها، ولذتها، وفرحها، وسرورها، في معرفة خالقها، وبارئها، وفاطرها، وفيما يقرب من طاعته، وذكره، ومحبته، والأنس به، والشوق إلى لقاءه، فهذا هو عيش النفس وقوتها، فإذا فقدت ذلك مرضت، وهلكت أعظم مما يهلك الجسد بفقد طعامه وشرابه، ولهذا يوجد كثير من أهل الغنى والسعة يعطي جسده حظه من التمتع، ثم يجد ألماً في قلبه، ووحشة، فيظن الجهال أن هذا يزول بزيادة هذه اللذات الحسية، وبعضهم يظن أنه يزول بإزالة العقل بالسكر، وكل هذا يزيد الألم، والوحشة، وإنما سببه: أن الروح فقدت قوتها، وغذاءها، فمرضت، وتألّت»^(٣).

• اليقين بأن الجمع بين عيش الدنيا والآخرة متعذر، فيتعين إثارة عيش الآخرة على عيش الدنيا:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن الجمع بين هذين العيشين في دار الدنيا غير ممكن، فمن اشتغل بعيش روحه وقلبه، وحصل له منه نصيب وافر: لهى عن عيش جسده وبدنه، ولم يقدر أن يأخذ منه نهاية شهوته، ولم يقدر أن يتوسع في نيل الشهوات الحسية، وإنما يأخذ منها بقدر ما تقوم به حاجة البدن خاصة، فينتقص بذلك عيش الجسد ولا بد، وهذه كانت طريقة الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، وكان الله يختار أن يقلل نصيبهم من عيش أجسادهم،

(١) كلمة الإخلاص (ص ٣٥).

(٢) رواه البخاري (٢٩٦١)، ومسلم (١٨٠٥).

(٣) شرح حديث لبيك (ص ٥٨).

ويوفي نصيبهم من عيش قلوبهم وأرواحهم. قال سهل التستري: ما أتى الله عبدا من قربه ومعرفته نصيبا، إلا حرمه من الدنيا بقدر ما أعطاه من معرفته وقربه، ولا آتاه من الدنيا نصيبا، إلا حرمه من معرفته وقربه بقدر ما آتاه في الدنيا»^(١).

• التدبر في سرعة زوال الدنيا:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «مثل أهلها في غفلتهم: مثل قوم ركبوا سفينة، فانتهد بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم الإبطاء، وخوفهم مرور السفينة، فتفرقوا في نواحي الجزيرة، ففضى بعضهم حاجته، وبادر إلى السفينة، فصادف المكان خاليا، فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، ووقف بعضهم في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة، ويسمع نغمات طيورها، ويعجبه حسن أحجارها، ثم حدثته نفسه بفوت السفينة، وسرعة مرورها، وخطر ذهابها، فلم يصادف إلا مكانا ضيقا، فجلس فيه، وأكب بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة، والأزهار الفاتقة، فحمل منها حملا، فلما جاء لم يجد في السفينة إلا مكانا ضيقا، وزاده حملا ضيقا، فصار محموله ثقلا عليه ووبالا، ولم يقدر على نبذه، بل لم يجد من حملة بُدًا، ولم يجد له في السفينة موضعا، فحملة على عاتقه، وندم على أخذه، فلم تنفعه الندامة، ثم ذبلت الأزهار، وتغيرت أرايبجها، وأذاه تنتها، وتولج بعضهم في تلك الغياض، ونسي السفينة، وأبعد في نزهته، حتى إن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة، فلم يبلغه صوته؛ لاشتغاله بملاهيته، فهو تارة يتناول من الثمر، وتارة يشم تلك الأنوار، وتارة يعجب من حسن الأشجار، وهو على ذلك خائف من سُبُع يخرج عليه، غير منفك من شوك يتشبث في ثيابه، ويدخل في قدميه، أو غصن يجرح بدنه، أو عوسج يخرق ثيابه»^(٢).

• الصبر عن محبة الدنيا:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ قَارُونَ: إِنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَةٍ عَظِيمَةٍ، وَجَمَّلَ بَاهِرٍ، مِنْ مَرَائِبَ، وَمَلَائِسَ، عَلَيْهِ، وَعَلَى خَدَمِهِ، وَحَشَمِهِ، فَلَمَّا رَأَى

(١) شرح حديث لبيك (ص ٦٢).

(٢) عدة الصابرين (ص ١٩٥-١٩٦).

مَنْ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَمِيلُ إِلَى زَخَارِفِهَا وَزِينَتِهَا، تَمَتَّعُوا أَنْ لَوْ كَانَ هُمْ مِثْلَ الَّذِي أُعْطِيَ قَالُوا: ﴿يَنْلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونٌ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أَي: ذُو حَظٍّ وَافِرٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَلَمَّا سَمِعَ مَقَالَتَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ النَّافِعِ، قَالُوا لَهُمْ: ﴿وَيَلِكُمْ ثَوَابٌ أَللَّهُ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَرَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَي: جَزَاءُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا تَرَوْنَ. كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «قَالَ اللَّهُ: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»^(١).

وقوله: ﴿وَلَا يُلْقَىٰهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾: قال السدي: ولا يُلقَى الجَنَّةَ إِلَّا الصَّابِرُونَ، كَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ. قال ابن جرير: ولا يُلقَى هَذِهِ الْكَلِمَةَ إِلَّا الصَّابِرُونَ عَنِ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا، الرَّاعِبُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَكَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مَقْطُوعًا مِنْ كَلَامٍ أَوْلَيْكَ، وَجَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَإِخْبَارَهُ بِذَلِكَ»^(٢).



(١) رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تفسير ابن كثير (٢٥٥/٦)، وانظر: تفسير الطبري (٦٢٩/١٩).

الخاتمة

تفكر في دنياك: كم قتلت، وتذكر ما صنعت بأقرانك وما فعلت، واحذرهما؛ فإنها عما لا بد منه قد شغلت، وإياك أن تساكنها؛ فإنها إن حلت رحلت.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة ميتة، قد ألقاها أهلها، فقال: «والذي نفسي بيده إن الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»^(١).

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة هذه - وأشار يميني - أحد الرواة - بالسبابة - في اليم، فلينظر بيم ترجع»^(٢).

هذا، وأسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يتجافون عن دار الغرور، وينيبون إلى دار الخلود والسرور.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.



(١) رواه أحمد (٣٠٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٣٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلوها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. ما هي مظاهر حب الدنيا؟
٢. لحب الدنيا أسباب عديدة، فما هي أبرزها؟
٣. ما المفاسد والأضرار المترتبة على حب الدنيا؟
٤. ما العلاج الناجع لمرض حب الدنيا؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»، وضح ذلك؟

٢. بكى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما رأى حال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فماذا قال؟

وبماذا أجابه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

٣. ما العلاقة بين القول على الله بغير علم، وبين حب الدنيا؟



مفسات القلوب



الجدال والمرء



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الجدال من الآفات الشديدة التي تقسي القلب، ولخطورته، كان مجالاً لكلام العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ، وهو خُلِقَ يكرهه السلف، ويتعدون عنه أشد الابتعاد، قال عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحقِّ القرآن،... ويترك الجدال والمراء»^(١).

وقال إبراهيم النخعي: «كانوا يكرهون الجدال»^(٢).

فما معنى الجدال والمراء؟

وما السبب الذي جعل العلماء يكرهونه؟

وما الفرق بين الجدال المحمود، والجدال المذموم؟

وما أمثلة كل نوع؟

وهل الجدال شيء مركب في طبع النفس البشرية؟ أم هو طارئ عليها؟

تساؤلات كثيرة أحببنا الإجابة عليها من خلال هذا الفصل.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح، وأن يسد خطانا لطريق الصواب

والفلاح، إنه على كل شيء قدير.

(١) تفسير القرطبي (١/٥٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٣١٩).

تعريف الجدال والمرء

الجدال: الخصومة، ومراجعة الكلام، وهو دفع المرء خصمه؛ تصحيحاً لكلامه، وهو منازعة للخصم.

قال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: «الجدال: هو المبالغة في الخصومة والمناظرة»^(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «المجادلة: دَفْعُ الْقَوْلِ عَلَى طَرِيقِ الْحُجَّةِ بِالْقُوَّةِ، مَا أُخُوذُ مِنَ الْأَجْدَلِ، طَائِرٌ قَوِيٌّ. وَقِيلَ: هُوَ مَا أُخُوذُ مِنَ الْجِدَالَةِ، وَهِيَ الْأَرْضُ، فَكَأَنَّهُ يُغْلِبُهُ بِالْحُجَّةِ يَقْهَرُهُ حَتَّى يَصِيرَ كَالْمَجْدُولِ بِالْأَرْضِ. وَقِيلَ: هُوَ مَا أُخُوذُ مِنَ الْجِدْلِ، وَهُوَ شِدَّةُ الْفِتْلِ، فَكَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْتَلُ حُجَّةً صَاحِبِهِ حَتَّى يَقْطَعَهَا، وَتَكُونُ حَقًّا فِي نُصْرَةِ الْحَقِّ، وَبَاطِلًا فِي نُصْرَةِ الْبَاطِلِ»^(٢).

أما المرء: فقييل: هو الجدال^(٣).

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «ماريت فلاناً: إذا جادلته وخاصمته»^(٤).

وقيل: هو طعن في كلام الغير؛ لإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به غرض، سوى تحقير الغير^(٥).

وقيل: إن المرء لإثبات قول باطل، والجدال لإثبات قول قد يكون باطلاً، وقد لا يكون.

(١) زاد المسير (٤/٩٩).

(٢) تفسير القرطبي (٧/٦٧).

(٣) فتح القدير (٣/٣٩٦).

(٤) تفسير الطبري (١٨/١٩٤).

(٥) التعاريف (١/٢٦٦).

معنى الجدال في القرآن

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «المراء في القرآن كُفْرٌ»^(١).

وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المراء في القرآن بأنه كفر، فما معنى المراء في القرآن؟

المراء بالمراء في القرآن: الشك فيه، وهذا كفر، فإذا شك أنه كلام الله، أو قال: إنه مخلوق، أو جعل يتتبع الأشياء لكي يصل إلى جحد شيء مما أنزله الله، ونحو ذلك: فالمجادلة والممارة هنا على مذهب الشك والريبة.

وليس من الجدال في القرآن الممنوع أن يناقش في التفسير بعلم، فيقول: هل المراد كذا؟ أو المراد كذا؟ وترجيح أحد الوجوه. فهذا نقاش بعلم لمعرفة مراد الله.

فالمقصود بوصف المراء في القرآن بأنه كفر، أي: الذي يكون على سبيل الشك والارتباب والتكذيب.

فعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اقرؤوا القرآن ما اختلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»^(٢). أي: إذا اختلفتم في فهم معانيه فقوموا عنه؛ لئلا يؤدي بكم الاختلاف إلى الشر.

ويحتمل أن المعنى: اقرؤوا والزموا الائتلاف على ما دل عليه، وقاد إليه، فإذا وقع الاختلاف أو عرضت شبهة تقتضي المنازعة الداعية إلى الافتراق: فاتركوا ذلك، وتمسكوا بالمحكم، واتركوا المتشابه الذي سبب الاختلاف.

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٣)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٠).

وأهل الباطل يتبعون ما تشابه من القرآن، ويجادلون فيه؛ ابتغاء الفتنة.
قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّهُ سَيَأْتِي نَاسٌ يُجَادِلُونَكُمْ بِشُبُهَاتِ الْقُرْآنِ، فَخُذُواهُمْ بِالسُّنَنِ؛ فَإِنَّ
أَصْحَابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).
لأن السنن تبين مراد الله، والسنة مفسرة للقرآن.



(١) رواه الدارمي (١١٩).

الجدل طبع مركب في الإنسان

إن الجدل طبع مركب في الإنسان، فهو كثير الجدل كثير المراء، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، أي: أكثر شيء مراءً وخصومةً، لا ينبس لحق، ولا ينزجر لموعظة^(١).

وعن علي بن أبي طالب أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةً، فَقَالَ: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَاَنْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلِّ يَضْرِبُ فِخْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(٢).

يعني: تعجب من سرعة جوابه، وعدم موافقته له على الاعتذار بهذا، ولهذا ضرب فخذَه.

ومن الناس من يُحْسِنُ فنَّ الجدل أكثر من غيره، وإن كان من ناحية الطبع مركزاً في الجميع، لكن يتفاوت فيه البشر، وقد قال تعالى عن الكفار لما بعث إليهم محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

أي: أهل لدد وجدل بالباطل، لا يقبلون الحق.

وقال تعالى عن أهل الباطل: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. يعني: أشداء في المخاصمة.

(١) تفسير الطبري (٤٨/١٨).

(٢) رواه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).

ومن الأدلة على أن بعض الناس أعطي جدلاً أكثر من بعض: حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين تخلف عن تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، ... فلما بلغني أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توجه قافلاً حضري همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أظلم قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه ... فجننته، فلما سلمت عليه تبسم تبسّم الغضب، ثم قال: «تعال». فجننت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلفك؟». فقلت: إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً ... الحديث^(١).

وموضع الشاهد: (أعطيت جدلاً) يعني: أعطيت فصاحة وقوة كلام، بحيث أخرج من عهدته ما يُنسب إليّ، وأسلُّ نفسي، كما تُسلُّ الشعرة من العجين.

وعن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ؛ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا»^(٢).

وهذا الطبع من الجدل يستمر في الإنسان إلى يوم القيامة، حتى بعدما تقوم الساعة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِّدًا عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، أي: تخاصم وتحتج بما أسلفت في الدنيا، وتحتاج عن نفسها.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضحك فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟». قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «مِنْ مُحَاظِبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي. قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهودًا. قَالَ: فَيُخْتَمُ

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انطِقي. قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ. قَالَ: ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكِنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَرَنَّ كُنْتُ أَنْاضِلُ»^(١).

وقال تعالى واصفًا جدال الكفار يوم القيامة: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجِيءُ نُوْحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ. فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ. فَتَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. [والوسط العدل]^(٢).



(١) رواه مسلم (٢٩٦٩).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٩).

أسباب حصول المراء والجدال

لو وقفنا نسأل أنفسنا: لماذا يحصل المراء والجدال بين الناس؟ لتوصلنا إلى عدة أسباب، منها:

١. النصيحة العلنية.
٢. اختيار الوقت غير المناسب.
٣. اختيار المكان غير المناسب، بحيث يتجهم الآخر ويثار.
٤. قد يكون سبب الجدال والمراء: إرادة الخطوة عند الآخرين.
٥. قد يكون السعي للتغلب على الآخر بأي طريقة: بالباطل، أو بالحق.
٦. البيئة - أحياناً - لها دور في تنشيط عمليات المجادلة والمهارة، وخصوصاً في أوساط الشباب، فيجب أن يحدروا منها، وقد يوجد في بعض أوساط الدعاة والمتدينين وسط يُغذّي هذه الأشياء، فيشجع كل منهم فريقاً، فهذه عمليات تنشيطية، وأجواء بيئية، تؤدي إلى المراء والجدل.
- ويوجد في بعض الأوساط التربوية مدرسون يشجعون الجدال، وكثيراً ما يجادلون الطلاب، فيتسلل هذا الطبع ويتسرب لنفوس الطلاب.
- وقد تتسرب هذه الطبيعة الجدلية من الأب إلى الأبناء، إن كان الأب ذا طبيعة جدلية. فعلى المربي أن يكون متخلصاً من هذه السلبية.
٧. قد يكون السبب في الجدال عند البعض: العُجب، أو الغرور، أو الكِبَر.
٨. قد يكون من فراغ القلب من تقوى الله.

٩. الفراغ، فالعسكر الفارغ تسوده المشاغبات، ومن تأمل كثيرا من الأوساط التي يكثُر فيها الجدال، يجد أنهم أناس فارغون، ليس لديهم برامج تشغلهم، فهذا من أكبر أسبابه.



شروط المجادلة

لابد أن نعرف ماذا نلتزم إذا أردنا أن نجادل؟

وماذا نشترط قبل أن نجادل؟

شروط الجدل المحمود كالآتي:

أولاً: إخلاص النية لله، وهو الشرط الأول؛ لتكثر البركة، وتعظم الفائدة، وينقطع اللجاج؛ لأن القصد هو الحق، ومعرفة الحق، فيجب أن يقدم تقوى الله قبل الدخول في ذلك، والقصد الحسن هو أهم شيء.

ثانياً: يجب أن يكون الجدل بالتي هي أحسن.

ثالثاً: يجب أن يكون الجدل بالعلم، قال تعالى: ﴿ هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ حُجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

رابعاً: البدء بذكر الله تعالى، فيبدأ كل من المتجادلين المتناظرين للحق بذكر الرب عَزَّوَجَلَّ، وبالبسملة، وإن لم يذكره بلسانه فليذكره في قلبه ونفسه.

خامساً: التأدب في الجلوس، وتوقير صاحبه الذي يجادله، وإحسان الجلسة أمامه، وبين يديه.

سادساً: اجتناب الهوى، فالإنسان قد يكتشف أنه مخطئ أثناء النقاش، وأن صاحبه على حق، فعليه أن يتراجع عن خطئه.

ومن تأمل كلام المنصفين والسلف يهون عليه التراجع عن الخطأ.

عن محمد بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَقَالَ فِيهَا رَأْيَهُ، فَقَالَ

الرجل: ليس هكذا! ولكن كذا وكذا، فقال علي: «أصبت وأخطأت، وفوق كل ذي علم عليم»^(١).

وعن طاووس رَحِمَهُ اللهُ: أن زيد بن ثابت وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا تماريا في صدر الحائض قبل أن يكون آخر عهدا الطواف بالبيت، -أي: هل الحائض تخرج بدون طواف وداع أم لا؟- فقال ابن عباس: تنفر، وقال زيد: لا تنفر، فدخل زيد على عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فسأها فقالت: تنفر، فخرج زيد وهو يتبسم ويقول: «ما الكلام إلا ما قلت».

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «هكذا يكون الإنصاف، وزيد معلّم ابن عباس، فما لنا لا نقدّم بهم، والله المستعان»^(٢).

وَرُوي أن أبا حنيفة رَحِمَهُ اللهُ نهي ابنه حمّادا عن المناقشة والجدال، وكان أبو حنيفة معروفاً بأنه كان من المناظرين الأذكياء الكبار، الذين يناظرون للوصول إلى الحق، فقال له ابنه: رأيتك تناظر في الكلام وتنهاني؟!

فقال: «يا بني، كنا نناظر وكان على رؤوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا، وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم»^(٣).

وجاء عن الشافعي رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «ما ناظرت أحداً قط إلا على النصيحة، وما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ»^(٤)، أي: ما دخلت أبداً في مناظرة وأريد أن الطرف الثاني يخطئ؛ لأن القصد هو الوصول إلى الحق، سواءً مني أو منه.

وورد أنه ناقش بعض أهل العلم في مسألة فيها رأيان، فرجع الشافعي لرأي الثاني، ورجع العالم الثاني بعد النقاش لرأي الشافعي، فكل واحد منهما اقتنع برأي الآخر، وانتهى النقاش بهذه النتيجة العجيبة.

(١) تفسير الطبري (١٦/١٩٢).

(٢) التمهيد (١٧/٢٧٠).

(٣) تبيين الحقائق (١/١٣٥).

(٤) تاريخ دمشق (٥١/٣٨٤).

سابعاً: أن يكون متحلياً بالحلم والصبر؛ لأنه بدون التحلي بالحلم والصبر تنقلب المجادلات إلى نقاشات عقيمة.

ثامناً: أن يكون متريثاً متأنياً لا يعجل، فربما أن الشخص الآخر لو أفرغ ما عنده لانتهى النقاش بمجرد حكاية كلامه، فيكون كلامه يُغني عن الرد عليه، فاصبر عليه، ودعه يفرغ ما عنده، فقد يكون متصوراً القضية بشكل معين، فإذا طرح ما عنده اكتشف خطأه.

تاسعاً: لا بُدَّ من التزام الصدق: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

عاشراً: لا بُدَّ من الترفق بالخصم.

وهذه نقطة مهمة جداً، فنحن عندما نتناقش في مسألة ما إنما نريد أن نصل إلى نتيجة، ونصل إلى الحق، وليس الهدف إمضاء الوقت، أو ظهور أحدنا على الآخر.

فلا ينبغي كسر المخاصم، أو إحراجه أمام الناس، أو عدم إعطائه فرصة للتراجع، أو الانهيار عليه بالعبارات القاسية الجارحة، أو جعله مسخرة ومضحكة للناس، ونحو ذلك. إن المهم في النقاشات هو كسب الخصم، لا كسب الموقف.

الحادي عشر: اجعل للخصم طريقاً للتراجع، وإذا زلّ زلة فلا تحجله، ولا تذكرها له بطريقة سيئة، وإنما نبهه بلطف، وأحسن الاستماع إليه؛ فإن حسن الاستماع نصف الوصول إلى النتيجة.

الثاني عشر: الإنصاف له، فقد يقول المخاصم حقاً، فأقر له بذلك، وأقر له بمكانته ومنزلته.

قال أبو جعفر المنصور للإمام مالك -رحمهما الله-: إني عزمت أن أكتب كتبك هذه نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة، أمرهم بأن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوها إلى غيرها من هذا العلم المحدث؛ فإني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعملهم.

فقال الإمام مالك: «يا أمير المؤمنين لا تفعل؛ فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث وروايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودالوا له، من اختلاف أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيرهم، وإن رَدَّهم عما اعتقدوا شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم» فقال أبو جعفر: لو طاوعتني على ذلك لأمرت به^(١). وهذا من إنصافه رَحِمَهُ اللهُ.

ويقول أبو محمد بن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «ناظرت رجلا من أصحابنا في مسألة، فعلوته فيها، لبكوء كان في لسانه -أي: عيب في لسانه-، وانفصل المجلس على أني ظاهر، فلما أتيت منزلي حاك في نفسي منها شيء، فتطلبته في بعض الكتب، فوجدت برهانا صحيحا يبين بطلان قولي وصحة قول خصمي، وكان معي أحد أصحابنا ممن شهد ذلك المجلس، فعرفته بذلك، ثم رأني قد علّمت على المكان من الكتاب، فقال لي ما تريد؟ فقلت: أريد حمل هذا الكتاب وعرضه على فلان، وإعلامه بأنه المحق، وأني كنت المبطل، وأني راجع إلى قوله.

فهجم عليه من ذلك أمر مبته وقال لي: وتسمح نفسك بهذا! فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا لما أخرته إلى غد^(٢).

الثالث عشر: لا بُدَّ من تهذيب النطق والكلام، وعدم رفع الصوت والصياح، تناظر رجلان عند المأمون فارتفعت أصواتهما، فقال: «الصواب في الأسد، لا في الأشد»^(٣).

الرابع عشر: تجنب المهاراة، والرفق بالمشايخ؛ فإن الرفق بهم تُستخرج به العلوم، قال بعض تلاميذ ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لو رفقْتُ بابن عباس لاستخرجت منه علماً جماً»^(٤)، وقال ابن جريج رَحِمَهُ اللهُ:

«لم أستخرج الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به»^(٥).

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٧٣/٢).

(٢) رسائل ابن حزم (٣٣٧/٤).

(٣) ربيع الأبرار (١٤١/٣).

(٤) تاريخ دمشق (٢٩٧/٢٩).

(٥) مفتاح دار السعادة (١٦٩/١).

الخامس عشر: من شرط المناظرة: أن تكون بين أناس من أهل العلم، وليس من أهل الجهل.

السادس عشر: اختلاف الرأي لا يفسد للودّ قضية.

قال عباس بن عبد العظيم العنبري: «كنت عند أحمد بن حنبل، وجاءه علي بن المديني راكباً على دابة، قال: فتناظرا في الشهادة، وارتفعت أصواتهما، حتى خفت أن يقع بينهما جفاء، فلما أراد عليّ الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه»^(١).

السابع عشر: ينبغي تجنب ما يشوّش الأفكار.

الثامن عشر: لتترك الحيل في النقاش؛ وليجعل حكّم يحفظ الكلام بين المتناقشين، حتى لا ينكر أحدهما شيئاً مما قاله، بل يكون الحكم شاهداً على كل ما يقال.

التاسع عشر: هناك أناس يجب تجنب مماراتهم ومجادلاتهم أصلاً، مثل: الجاهل الذي لا يقر بجهله، والمتعنت، والمعتدي، والسفيه، والذي لا يشهد بالحق، بل بالزور.



(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٦٨).

أنواع الجدال

الجدال المحمود، والجدال المذموم:

الجدال منه ما يكون محموداً، ومنه ما يكون مذموماً.

الجدال قد يكون حواراً ومحاجة ومناظرة؛ فيكون محموداً، وقد يكون ملاحاة وممارسة ومماحلة؛ فيكون مذموماً.

لقد أمر الله عَزَّجَلَّ بالجدال المحمود، فقال تعالى: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِلَا تَقِيءَ فِيهَا كِتَابًا وَلَا تَعْلَمَ بِهَا خَبْرًا﴾ [النحل: ١٢٥] أي: فليكن جدالك لهم بالوجه الحسن، برفق، ولين، وحسن خطاب.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ومعنى ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾:

١. الجدال بالقرآن.

٢. وقيل: الجدال بلا إله إلا الله.

٣. وقيل: جادلهم غير فظ ولا غليظ، وألن لهم جانبك.

ومعنى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: إلا الذين أبوا أن يقرروا لكم بالحق، ولا بإعطاء الجزية، ونصبوا الحرب لكم، فعند ذلك يكون جدالهم بالسيف؛ لأن جدالهم باللسان غير ممكن في هذه الحالة.

الجدال المذموم:

ما تعلق بإظهار الباطل، أو أشغل عن إظهار الحق، وتوضيح الصواب.

فَإِنْ كَانَ الْجِدَالُ لِلْوَقُوفِ عَلَى الْحَقِّ وَتَقْرِيرِهِ كَانَ مَحْمُودًا، وَإِنْ كَانَ فِي مَدَافِعَةِ الْحَقِّ أَوْ كَانَ جِدَالًا بَغِيرَ عِلْمٍ كَانَ مَذْمُومًا.

الجدال المحمود:

ما كان بنية خالصة، وأدى إلى خير، وهذا من الواجبات التي على المسلم أن يفعلها لأجل دينه، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وُقِيَ بموجب العلم والإيمان، ولا حَصَلَ بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»^(١).

والمجادلة بالحق عبادة عظيمة، فعندما قال قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لِنبيهم: ﴿قَالُوا يَنْتُحِ قَدَّ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَنْتَا يَمَّا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] جادلهم لأجل تعريفهم بالحق، وإقناعهم به، ولذلك رد عليهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَا نبيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٣-٣٤].

وقد حفلت الآيات الكريمة في القرآن الكريم بقصص من المناظرات بين موسى وفرعون، وبين نوح وقومه، وبين إبراهيم والنمرود، وبين إبراهيم وأبيه، وبين إبراهيم وقومه، وبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقريش، وبين الصحابة والمشركين، وهكذا.

فهذا جدال من أهل الحق لأهل الباطل؛ لإقناعهم، فهو جدال محمود.

وكذلك المرأة التي جاءت تستفتي، وذكرت قصتها في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنْ اللهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] هذه المرأة تريد أن تعرف مصيرها مع زوجها، ماذا تفعل معه؟ هل هي حرام عليه، أم حلال؟ فهو جدال محمود.

أما الجدال المذموم: فهو كل جدال ظاهر الباطل أو أفضى إليه، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦] يعني: ليدفعوه ويبطلوه.

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/١٦٤).

والجدال المذموم من طبع الكفار، قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]، فهذه الآية العظيمة تدل على جدال الكفار باستمرار؛ لدحض الحق وإزالته.

وقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥] ماحلوا، وجدالوا، وخاصموا؛ ليذهبوا الحق.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ مَحْضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]، وهذا وعيد من الله للذين يحاجون ويجادلون في الله بعد ما استجاب له المؤمنون، ويحاولون أن يصدوا المؤمنين عن الله تعالى وعن سبيله، فتوعدهم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤].
وقال تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا أَبْيَسًا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ بُعِدُوكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] أي: أخذته عن الأوائل، ونقلته من كتبهم وأفواههم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَأَلْهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِجْدَالًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] مجادلون بالباطل كثير و الخصومة.

عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: جاء عبد الله بن الزبيرى إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؟ فقال ابن الزبيرى: قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى بن مريم، كل هؤلاء في النار مع آهتنا؟ فنزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ﴾ [٥٧] وَقَالُوا ءَأَلْهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِجْدَالًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧-٥٨]، ثم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]^(١).

(١) أخرجه ابن مردويه - كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٥).

فعزيز وعيسى بن مريم مبعدون عن النار، وبقية الآلهة الباطلة فيها، حتى الشمس والقمر والأصنام في النار؛ تعذيباً لعبادها، يقال: هذا الذي عبدتموه هو الآن سبب إحراقكم، فصرتم حصب جهنم، فذوقوا العذاب.

وقد حصلت عدة محاولات من المشركين في الجدل بالباطل في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجادلوا الصحابة بالباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدَ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

يوحون: يوسوسون.

إلى أوليائهم: الكفار.

ليجادلوكم: بهذه الحججة التي يريدون بها دحض الحكم الشرعي، وهو الحق، فهم يقولون للمسلمين: ما ذبحتموه بأيديكم تأكلوه، وما قتله الله -يعني مات حتف أنفه- لا تأكلوه؟! انظر إلى منطق أهل الجاهلية، فردّ الله عليهم، مخاطباً المسلمين: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فكله قدر الله، حتى الذي ذبحه الإنسان بقدر من الله، والبهيمة ماتت بحتف أنفها بقدر من الله.

لكن هذا القدر أباحه الله عَزَّجَلَّ إذا وقع الذبح باليد مع التسمية، وهذا القدر حرمه الله إذا وقع، وهو أن تموت حتف أنفها.

وانظر إلى هذه المحاجة: عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: أتى أناس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا رسول الله، أأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِتَابِعِيهِ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١١٨-١٢١]^(١).

وقال تعالى -واصفاً مجادلة المشركين لما رآه محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معرجه-: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ١١ ﴿أَفَتَدْرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١١-١٢] أي: أتجادلون يا أيها المشركون محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما أراه الله من الآيات، وتكذبون وتشككون؟!!

(١) رواه الترمذي (٣٠٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ اللَّهُ يُحْكِمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨-٦٩] فهذه الآية نزلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جادله الكفار بالباطل، فدافعهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، وأمره بالإعراض عن مماراتهم؛ صيانة عن الاشتغال بتعتهم؛ لأن صاحب العناد لا ينفع معه النقاش.

ومما يجادلون فيه بالباطل: القرآن، ﴿مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تُجَادِلُوا فِي الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ جِدَالَ فِيهِ كُفْرٌ»^(١).

وأيضاً: فقد حصلت المجادلة من ضعاف الإيوان:

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَدِّدُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥-٦] أي: لما أيقنوا بالقتال، وأن المصادمة آتية، كرهوا ذلك، وقالوا: لم تخبرنا أننا سنلقى العدو، حتى نتأهب لذلك ونستعد؟ ونحن خرجنا للعرير والقافلة وما خرجنا للجيش، فهذا كان جدالهم.

ومجادلة الكفار للأنبياء كانت موجودة مع وجود الرسل، فهذا هود عَلَيْهِ السَّلَامُ ناقشه قومه وجادلوه في الأصنام، قال تعالى على لسان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ أَنْتُمْ جَدِّدُونَ فِيهِ أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] أي: أتأجوني في أصنام سميتموها أنتم وآباؤكم، لا تضر ولا تنفع؟!

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَدِّدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

من الذي قال هذا الكلام؟ حكاها الله عَزَّ وَجَلَّ عن من؟

(١) رواه البيهقي (٢٢٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٢٣).

هذا قاله مؤمن آل فرعون، لما قام ينافح عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

فهذا رابط بين الكبر والجدال والمرء، فانظر كيف يبعث الكبر على الجدال بغير حق، والمرء بغير حق، وإرادة دحض الحق، وتقرير الباطل، كبراً و عناداً.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي صَرَفُونُ﴾ [غافر: ٦٩].

والجدال المذموم ينقسم إلى قسمين:

١. جدال بغير علم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ

شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

وقال تعالى يخاطب أهل الكتاب: ﴿هَتَانِمْ هَتُولَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ

فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

والجدال في الله من المجادلة بغير علم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ

وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ

شَدِيدُ الْحَاجِلِ﴾ [الرعد: ١٣] أي: شديد القوة، سبحانه وتعالى.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ ④ كُنِبَ

عَلَيْهِ أَنَّهُ، مَنْ تَوَلَّاهُ فَآنَهُ، يُضِلُّهُ، وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣-٤]، فيزعم أن الله لا يقدر على

إحياء الموتى، ويأتي الكافر إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعظم قد يلي فيفته أمامه ويقول: أتزعم أن ربك

يقدر على أن يحيي هذا؟ وهكذا كانوا يجادلون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينكرون البعث بعد الموت.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ⑧ تَانِي

عِظْفِهِ، لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٨-٩]، أي: متكبر، ويريد إضلال الناس عن سبيل الله.

وما يجادل فيه هؤلاء أيضاً: الساعة: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

[الشورى: ١٨]، مع أن قيام الساعة من علم الغيب الذي لا يعرفه أحد.

ومن الجدال بغير علم: الجدال في القدر:

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يُفْقَأُ في وجهه حب الرمان من الغضب. فقال: «بِهَذَا أُمِرْتُمْ؟ أَوْ هَذَا خُلِقْتُمْ؟ تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ؟! بِهَذَا هَلَكْتَ الْأُمَّمُ قَبْلَكُمْ»، قال: فقال عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما غبظت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما غبظت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه»^(١).

فقوله: «يختصمون في القدر»: يعني يتنازعون نزاعاً مذموماً في القدر.

وقوله: «فكأنما يُفْقَأُ في وجهه حب الرمان من الغضب»: هذا التعبير فيه دليل على شدة احمرار الوجه من الغضب، وكيف صار من شدة الحمرة كأنه شق أو عصر في وجنتيه - في خديه - حب الرمان.

وإنما غضب لأن القدر سر من أسرار الله تعالى، فمن يخوض فيه بغير علم ينتهي إلى الضلالة، إما أن يصبح قدرياً، أو يصبح جبرياً، ولذلك نهي عنه.

والمناقشات في القدر تؤدي إلى الشك والريبة، وتؤدي إلى تخلخل الإيمان، ولما تصبغ هذه القضية مدار نقاشات بلا علم، أو تؤدي إلى إثارة شبهات بدون حسم، وبدون رد على الشبهات، فهذا نقاش مذموم، وجدال مذموم، ولذلك قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوَاماً - أَوْ مُقَارِباً - مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا فِي الْوِلْدَانِ وَالْقَدَرِ»^(٢).

الولدان: يعني أطفال المشركين، ما مصيرهم؟

والقدر: معروف، والمقصود: الكلام بغير علم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحديث - لو صح - إنما يدل على ذم من تكلم فيهم بغير علم، أو ضرب النصوص بعضها ببعض»^(٣).

(١) رواه ابن ماجه (٨٥)، وحسنه الألباني.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في السنة (٤٠٠/٢)، وإسناده صحيح. ورواه ابن حبان (٦٧٢٤) مرفوعاً، والموقوف أصح.

(٣) أحكام أهل الذمة (١٠٩٢/٢).

٢. والنوع الثاني من الجدال الباطل: الجدال لنصرة الباطل، والشغب على الحق بعدما

تبين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

قال ابن بطة رَحِمَهُ اللهُ فِي الْجَدَالِ الْمَذْمُومِ: «إِنَّمَا هُوَ هُوَ يُتَعَلَّمُ، وَدِرَايَةٌ يُتَفَكَّهُ بِهَا، وَلَذَّةٌ يُسْتَرَاخُ إِلَيْهَا، وَمُهَارَشَةٌ الْعُقُولِ، وَتَدْرِيبُ اللِّسَانِ بِمَحَقِّ الْأَدْيَانِ، وَضَرَاوَةٌ عَلَى التَّعَالِبِ، وَاسْتِمْتَاعٌ بِظُهُورِ حُجَّةِ الْمُخَاصِمِ، وَقَصْدٌ إِلَى قَهْرِ الْمُنَاطِرِ، وَالْمُغَالِطَةِ فِي الْقِيَاسِ، وَبَهْتٌ فِي الْمُقَاوَلَةِ، وَتَكْذِيبُ الْأَثَارِ، وَتَسْفِيهِ الْأَحْلَامِ الْأَبْرَارِ، وَمُكَابَرَةٌ لِنَصِّ التَّنْزِيلِ، وَتَهَاوُنٌ بِمَا قَالَهُ الرَّسُولُ، وَتَقْضُ لِعَقْدَةِ الْإِجْمَاعِ، وَتَشْتِيتُ الْأَلْفَةِ، وَتَفْرِيقُ لِأَهْلِ الْمِلَّةِ، وَشُكُوكٌ تَدْخُلُ عَلَى الْأُمَّةِ، وَضَرَاوَةٌ السَّلَاطَةِ، وَتَوْغِيرٌ لِلْقُلُوبِ، وَتَوْلِيدٌ لِلشَّحْنَاءِ فِي النُّفُوسِ. عَصَمَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَأَعَاذَنَا مِنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِهِ»^(١).

والجدال المحمود: دعانا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ، بَلْ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْجِهَادِ؛ فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَأَنْفُسِكُمْ، وَأَلْسِنَتِكُمْ»^(٢).

فكيف نجاهد بألسنتنا؟

بالجدال بالتي هي أحسن، فالأمر بالمناظرة واجب كما يجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله، كما قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ^(٣).

قال الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ: «فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ الْجِهَادِ بِالنَّفْسِ، وَهُوَ بِالْخُرُوجِ وَالْمُبَاشَرَةِ لِلْكَفَّارِ، وَبِالْمَالِ، وَهُوَ بِذَلِكَ لِمَا يَقُومُ بِهِ مِنَ النَّفَقَةِ فِي الْجِهَادِ وَالسَّلَاحِ وَنَحْوِهِ... وَالْجِهَادُ بِاللِّسَانِ، بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَدَعَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى»^(٤).
وجنس المناظرة بالحق قد تكون واجبة تارة، ومستحبة أخرى.

أما الجدال المذموم فهو مذموم بكل حال؛ لأنه يبطل الحق، أو نصرة لباطل.

(١) الإبانة (٢/ ٥٣١).

(٢) رواه أبو داود (٢٥٠٤)، وصححه الألباني.

(٣) الإحكام (١/ ٢٩).

(٤) سبيل السلام (١/ ١٩٩).

وقد يكون الجدال محموداً ومذموماً في مكان واحد.

ففي الحج -مثلاً- يقول تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فما هو الجدال المنهي عنه في الحج؟

هو الجدال الذي يسبب خصومة وشحناء وبغضاء، الجدال بغير علم، الجدال الذي يريد كل واحد أن يعلو صاحبه فيه، ولا يريد أحدهما به الوصول إلى الحق، إنما هو لمعرفة من الأفضل في المناقشة، من يفهم الآخر، من يسكته، فليس هو لوجه الله.

وقد يكون جدالاً في أحكام الحج بلا علم، وهذا جدال مذموم أيضاً.

أما أن تناقش: هل التمتع أفضل، أم الإفراد؟ وكيف حج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ متمتعا، أو قارناً، أو مفرداً؟ فهذا النقاش والجدال لمعرفة الحق ومعرفة السنة له ثمرة، وهو أن تعمل بالحق، وتصل إليه.

وكذلك النقاش في الصيام: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الصَّيَامُ جُنَّةٌ، فَلَا يَرْفُثُ، وَلَا يَجْهَلُ، وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ - مَرَّتَيْنِ»^(١)، وفي رواية: «فَلَا يَرْفُثُ وَلَا يُجَادِلُ»^(٢).

وينبغي للمسلم أن يترك الجدال، ولو كان محقاً؛ لأن المهاراة والجدل يقسيان القلب، ويسببان الشحناء والبغضاء بين المسلمين، وفيهما رفض الحق، وتقرير الباطل، ولما في هذه المهاراة -التي يريد بها الشخص أن يزيف قول الآخر، وأن يبطل قوله، وأن يظهره بمظهر المخطئ، ولو كان ما يقوله حقاً- من الظلم والعدوان؛ لذا ندب الشارع إلى ترك المراء، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا زَعِيمٌ بَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ، وَإِنْ كَانَ مُحَقَّقًا»^(٣).

زعيم: كفيل، وضمين.

(١) رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

(٢) عمدة القاري (٢٥٨/١٠) وفتح الباري (١٠٤/٤).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسنه الألباني.

بيت: بقصر.

في رضى الجنة: حولها.

المراء: الجدال الذي يريد به كسر الخصم، ولو كان على الحق، أي: لجأج، وخصومة، وجدل، يوقع في الباطل.

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ: الْأَدُّ الْخَصِمُ»^(١).

الأدُّ: كثير الجدال، والمراء، والمهاحكة.

الخصم: صاحب خصومات، وعداوات.

والمقصود بترك المراء والجدال هنا: هو الجدال مع أهل الحق، أما الجدال مع أهل الباطل والبدع: فلا بُدَّ من متابعة نقاشهم؛ حتى يهتدوا، أو ينكسر باطلهم.



(١) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

أمثلة للجدال المحمود

هناك أمثلة على كيفية مجادلة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والسلف الصالح، لأهل الباطل، وما يكون في الجدالات والمناقشات الفقهية العلمية.

- فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ جادل النمرود؛ ليدحض باطله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة:

[٢٥٨

فلما صار النقاش في توحيد الربوبية، قال الكافر: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أي: هذا محكوم عليه بالقتل، فأعفو عنه، وهذا بريء، فأقتله. فهذه مجادلة بالباطل، وليس هذا الإحياء، وهذه الإماتة، هما المقصودين في توحيد الربوبية، المقصود: أن الله يحيي من العدم، فإن كنت صادقاً فأحي من العدم!.

لكن، لما صارت المسألة مجال مجادلة بالباطل من قِبَل النمرود؛ انتقل إبراهيم إلى شيء لا يمكن المجادلة فيه، فقال: ﴿فَأِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ماذا سيقول في هذه؟ ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ وسكت.

- كذلك النقاش الذي حصل بين صاحب الجنتين، وبين صاحبه الصالح، وكيف رد عليه؟ وكيف أرشده إلى ما يجب أن يقوله، بدلاً من الاعتراض بالنعيم الذي عنده؟ ثم ذكر له رجاءه بالله ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: ٤٠]، وذكره بما يمكن أن يحصل له من غوران الماء، وذهاب الثمر.

- وكذلك، فإن عدداً من أهل العلم أيضاً جادلوا الكفار وناظروهم، قال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللهُ:

«يُحَكِّي عَنِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ: أَنَّ قَوْماً مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَرَادُوا الْبَحْثَ مَعَهُ فِي تَقْرِيرِ تَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ. فَقَالَ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي قَبْلَ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَنِ سَفِينَةٍ فِي دِجْلَةٍ، تَذَهَبُ، فَتَمْتَلِئُ مِنَ الطَّعَامِ وَالْمَتَاعِ وَغَيْرِهِ بِنَفْسِهَا، وَتَعُودُ بِنَفْسِهَا، فَتَرْسُو بِنَفْسِهَا، وَتُفْرِغُ وَتَرْجِعُ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدَبِّرَهَا أَحَدٌ؟! فَقَالُوا: هَذَا مُحَالٌ لَا يُمَكِّنُ أَبَداً! فَقَالَ لَهُمْ: إِذَا كَانَ هَذَا مُحَالاً فِي سَفِينَةٍ، فَكَيْفَ فِي هَذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ، عَلُوهُ وَسُفْلِهِ!!
وَتُحَكِّي هَذِهِ الْحِكَايَةَ أَيْضاً عَنْ غَيْرِ أَبِي حَنِيفَةَ^(١).

- وكذلك لما قام عمرو بن عبيد - وهو من المعتزلة الذين يقولون: إن مرتكب الكبيرة مخلد في النار - قام - مرة - فقال: «يؤتى بي يوم القيامة، فأقام بين يدي الله، فيقول لي: لم قلت: إن القاتل في النار؟ فأقول: أنت قلت» ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣].

فقال له قريش بن أنس - وما في البيت أصغر منه - : «أرأيت إن قال لك: قد قلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، فمن أين علمت أني لا أشاء أن أغفر لهذا؟».
فما استطاع أن يرد شيئاً^(٢).

- وكذلك وجه عمر بن عبد العزيز عَوْنُ بن عبد الله بن عتبة إلى الخوارج لِيُنَاطِرُهُمْ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ قَالَ لَهُمْ: «قَاتَلْتُمْ دَهْرَكُمْ كُلَّهُ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ بِالَّذِي عَمِلَ بِهِ عُمَرُ، فَلَمَّا جَاءَ رَأْيِكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تَطْلُبُونَ، وَقَالَ النَّاسُ: هَذَا، وَاللَّهِ، رَأَيْتُمْ، كُنْتُمْ أَوَّلَ مَنْ نَفَرَ عَنْهُ»، قَالُوا: وَاللَّهِ، لَقَدْ صَدَقْتَ، مَا كُنَّا نَطْلُبُ إِلَّا الَّذِي عَمِلَ بِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَبَرَّأْ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ، وَلَمْ يَلْعَنَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَمَّا أَسْأَلُكُمْ عَنْهُ؟» فَقَالُوا: نَعَمْ، لَمْ

(١) شرح الطحاوية (ص ٣٥).

(٢) تهذيب الكمال (٢٢/ ١٣١).

تَسَأَلْنَا عَنْ شَيْءٍ إِلَّا صَدَفْنَاكَ، فَقَالَ: «مَتَى عَهْدُكُمْ بِلَعْنِ هَامَانَ؟» فَقَالُوا: مَا لَعْنَاهُ قَطُّ. فَقَالَ لَهُمْ: «أَفَيْسَعُكُمْ أَنْ تَتْرُكُوا وَزِيرَ فِرْعَوْنَ الْمُنْفَذَ لَأَمْرِهِ، وَلَا يَسَعُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنْ يَعْمَلَ بِالْحَقِّ، وَيُكْفَ اللَّعْنَ عَنْ أَهْلِ قِبَلْتِهِ، إِنْ كَانُوا أَخْطَأُوا فِي شَيْءٍ، وَعَمِلُوا بِغَيْرِ الْحَقِّ؟!».

فَرَجَعَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «مَا أَحْبُّ أَنْيَ بَعَثْتُ إِلَيْهِمْ غَيْرَكَ»، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «كَيْفَ فَطِنْتَ لِهَامَانَ؟» فَقَالَ: «تَخَوَّفْتُ إِنْ ذَكَرْتُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَقُولُوا: قَدْ لَعْنَاهُ، فَإِنَّهُ مُلْعَنٌ خَبِيثٌ»^(١).

• وكذلك جاء الضحاك الشاري - وهو من الخوارج - إلى أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، فقال: تب. قال: «مم أتوب؟».

قال: من قولك بتجويز الحكمين.

قال أبو حنيفة: «تقتلني أو تناظرني؟».

قال: أناظرك.

قال: «فإن اختلفنا في شيء مما تناظرني عليه، فمن يحكم بيني وبينك؟».

قال: اجعل من شئت.

قال أبو حنيفة لرجل من أصحاب الضحاك الشاري: «اقعد فاحكم بيننا فيما اختلفنا فيه».

ثم قال للضحاك: «أترضى هذا بيني وبينك حكماً؟».

قال: نعم.

قال أبو حنيفة: «فأنت جوزت التحكيم».

فانقطع وسكت، ولم يستطع أن يرد^(٢).

• وناظر سني أحد القدرية، فقال السنِّي للقدري: «بلغني أن أناساً في عهد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقال لهم القدرية كانوا يسرقون نعال الصحابة!».

(١) كتاب المحاربة من موطأ ابن وهب (ص ١٦).

(٢) الانتقاء - لابن عبد البر (ص ١٥٩).

فقال القدري: ومتى كان القول بالقدر في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فالقدرية لم يظهرها إلا بعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فقال له: «إذا كان قولكم هذا غير موجود في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن أين أتيتم به؟!».

• وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ:

«سَارَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ رَسُولًا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى طَاغِيَةِ الرُّومِ، فَقَالَ لِرَاهِبِهِمْ: «كَيْفَ الْأَهْلُ وَالْأَوْلَادُ؟» فَقَالَ الْمَلِكُ: مَهْ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الرَّاهِبَ يَنْزَهُ عَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: «تُنْزَهُونَهُ عَنْ هَذَا، وَلَا تَنْزَهُونَ رَبَّ الْعَالَمِينَ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ!».

وَقِيلَ: إِنَّ الطَّاغِيَةَ سَأَلَتْ: كَيْفَ جَرَى لَزَوْجَةِ نَبِيِّكُمْ؟ يَقْصِدُ تَوْبِيخًا، قَالَ: «كَمَا جَرَى لِمَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وَبَرَّاهُمَا اللهُ، لَكِنَّ عَائِشَةَ لَمْ تَأْتِ بِوَلَدٍ». فَأَفْحَمَهُ^(١).

وبالجملية: فإن الجدال لإسكات أهل الباطل، والرد على النصارى وغيرهم من أهل الكفر، من الواجبات على المسلمين، ولا يجوز لمسلم أن يعرض الكفر أمامه، ويسكت.



(١) سير أعلام النبلاء (١٣/١٢).

أضرار المراء والجدال المذمومين

إن الشارع الحكيم لا ينهى عن شيء إلا وفيه ضرر على العباد، في العاجل والآجل، ومن ذلك المراء والجدال بالباطل، فهما سبب لكثير من المضار والمفاسد، ومن أبرزها ما يأتي:

حرمان الخير العظيم:

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: «إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل»^(١).
وقال معاوية بن قرة رَحِمَهُ اللهُ: «إياكم وهذه الخصومات؛ فإنها تحبط الأعمال»^(٢).

حرمان العلم:

ألم تعلموا أن ليلة القدر قد رُفِعَ علمها بسبب المراء والمجادلة؟!

فعن عبادة بن الصامت رَحِمَهُ اللهُ تَعْنِي: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج يخبر بليلة القدر، فتلاحي رجلان من المسلمين فقال: «إِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرْكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ -أي: بتعيين ليلتها-، وَإِنَّهُ تَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَرَفَعَتْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْراً لَكُمْ، التَّمَسُّوْهَا فِي السَّبْعِ، وَالتَّسْعِ، وَالْخَمْسِ»^(٣).

تلاحي فُلَانٌ وَفُلَانٌ: تنازعا وتخاصما، وحضر معهما الشيطان، فلذلك نُسِيَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعيين هذه الليلة.

فالحديث دليل على أن المخاصمة مذمومة، وأنها سبب في العقوبة، والحرمان من

(١) اعتقاد أهل السنة - للالكائي (٢٩٦).

(٢) اعتقاد أهل السنة (٢٢١).

(٣) رواه البخاري (٤٩).

الخير، وقد كانت هذه الخصومة وهذه الملاحاة ورفع الصوت في المسجد، وبحضرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعن يونس قال: كتب إلي ميمون بن مهران: «إِيَّاكَ وَالْخُصُومَةَ وَالْجِدَالَ فِي الدِّينِ، وَلَا تُجَادِلَنَّ عَالِمًا، وَلَا جَاهِلًا: أَمَّا الْعَالِمُ، فَإِنَّهُ يَحْزُنُ عَنْكَ عِلْمَهُ، وَلَا يُبَالِي مَا صَنَعْتَ، وَأَمَّا الْجَاهِلُ، فَإِنَّهُ يَخْشَى بِصَدْرِكَ وَلَا يُطِيعُكَ»^(١).

هلاك الأمم:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(٢).

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَزِيَادِ بْنِ حَدِيرٍ: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟» قال: لا، قال: «يهدمه زلة العالم، وجدال المناق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين»^(٣).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْمِرَاءِ، وَالْخُصُومَاتِ فِي الدِّينِ»^(٤).

يورث الضغائن وقسوة القلوب:

قال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المراء في العلم يقسي القلب، ويورث الضغائن»^(٥).

وكثير من الناس هجر بعضهم بعضاً بسبب الجدال، فلا يكلم بعضهم بعضاً، ولا يزور بعضها بعضاً، وذلك بسبب اللدد والمناقشة والجدال والخصومة التي حصلت في المجلس، فانتهى بالافتراق، وابتعاد القلوب بعضها عن بعض، ولذلك كان السلف يحذرون منه، قال

(١) سنن الدارمي (٣٠٢).

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، واللفظ للبخاري.

(٣) سنن الدارمي (٢١٤)، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (٨٩/١).

(٤) تفسير الطبري (٣٢٢/٩).

(٥) شعب الإيمان (٨٤٨٨).

ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كفى بك ظلماً أن لا تزال مخاصماً، وكفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً»^(١).
وقال محمد بن علي بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخصومة تمحق الدين، وتنبت الشحنة في صدور الرجال»^(٢).

وقال عبد الله بن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «المراء يفسد الصداقة القديمة، ويحلّ العقدة الوثيقة، وأقل ما فيه أن تكون المغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة»^(٣).

وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلَقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدُوَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤] قال: «الخصومات، والجدال في الدين»^(٤).

حرمان التوفيق:

لأن الله لا يوفق أصحاب المجالس التي تقع فيها هذه المجادلات، التي لا يراد بها وجه الله.

انشغال القلب عن الله:

فأقل ما في هذه الخصومات التي ليست لوجه الله: أنها تشغل الإنسان حتى في صلاته، ويبقى خاطره معلقاً بها.

قال بعض السلف: «ما رأيت شيئاً أذهب للدين، ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب؛ من الخصومة»^(٥).

مدعاة للزلل:

قال مسلم بن يسار رَحِمَهُ اللَّهُ: «إياكم والمراء، فإنه ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته»^(٦).

(١) تاريخ دمشق (١٠/٨٠).

(٢) بهجة المجالس (ص ٩٣).

(٣) تاريخ دمشق (٢٧/٣٨٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/١٠٤).

(٥) تاريخ دمشق (١٠/٢٩٧).

(٦) سنن الدارمي (٣٩٦)، حلية الأولياء (٢/٢٩٤).

ذهاب الكرامة:

قال بعض الأعراب: «من لاحى الرجال وماراهم قلت كرامته، ومن أكثر من شيء عُرِفَ به»^(١).

ومما ينسب للشافعي رَحْمَةُ اللَّهِ:

قَالُوا سَكَّتْ وَقَدْ حُوصِمَتْ، قُلْتُ لَهُمْ
وَالصَّمْتُ عَن جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقٍ شَرَفٌ
إِنَّ الْجَوَابَ لِبَابِ الشَّرِّ مِفْتَاحُ
وَفِيهِ أَيْضاً لَصَوْنِ الْعِرْضِ إِصْلَاحُ
أَمَا تَرَى الْأُسْدَ تُخْشَى وَهِيَ صَامِتَةٌ
وَالكَلْبُ يُخْشَى لَعَمْرِي وَهُوَ نَبَّاحٌ^(٢)

ظهور البدع واتباع الهوى:

قال عمر بن عبد العزيز رَحْمَةُ اللَّهِ: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل»^(٣).

يعني من بدعة إلى بدعة، ومن مزلق إلى مزلة، وهكذا.

وقيل للحكم بن عتيبة الكوفي رَحْمَةُ اللَّهِ: ما اضطر الناس إلى هذه الأهواء أن يدخلوا فيها؟^(٤) قال: «الخصومات»^(٥).

أي: لما فتحوا باب الخصومات على أنفسهم، كان لزاماً عليهم أن يدخلوا في هذه العقائد الباطلة.

وقال خالد بن برمك: «من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق أن لا ينزل به كبير مكروه: العجلة، واللجاجة، والعُجب، والتواني؛ فثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة العجب البغضة، وثمرة التواني الذل»^(٦).

(١) الآداب الشرعية (١/١٨).

(٢) حسن السميت في الصمت (ص ٢٦).

(٣) السنة لعبد الله بن أحمد (١٠٣)، سنن الدارمي (٣٠٤).

(٤) أي: لماذا دخلوا في البدع؟

(٥) شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/٢١٥).

(٦) روضة العقلاء (ص ٢١٧).

وسئل سهل بن عبد الله رحمه الله: متى يعلم الرجل أنه على السنة والجماعة؟ «قال: «إذا عرف من نفسه عشر خصال: لا يترك الجماعة، ولا يسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يخرج على هذه الأمة بالسيف، ولا يكذب بالقدر، ولا يشك في الإيمان، ولا يهاري في الدين، ولا يترك الصلاة على من يموت من أهل القبلة بالذنب، ولا يترك المسح على الخفين، ولا يترك الجماعة خلف كل وال، جاز أو عدل»^(١).



(١) اعتقاد أهل السنة (٣٢٤).

ممارسة العلماء

هناك أناس يجادلون في القضايا العلمية، يريدون المنازعة في مجالس العلماء، وطلبة العلم؛ ليُظهروا علمهم، ويظهروا قدراتهم البلاغية، ويستعرضوا إمكاناتهم اللسانية.

وهذا أمر مذموم شرعاً؛ فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا لِتَحَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: فَالْتَارُ النَّارَ»^(١).

وفي الحديث الآخر: عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِجَارِي بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِي بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(٢).

فلا بد من الحذر من التعلم للمجادلة، ولا بد من الحذر من مجادلة العلماء.

وهناك أناس همهم المجادلة مع العلماء وطلبة العلم، كأنه يقول: أنا أعرف القاعدة الفلانية، والدليل الفلاني، وكلام العالم الفلاني...، ولذلك تجد بعض هؤلاء يسأل الشيخ، والشيخ يجيب، فيقول: يا شيخ، هذه قال فيها فلان كذا؟ وقال فيها فلان كذا؟ وقال فيها فلان كذا؟

فإذا كان يعرف كل هذا؛ فلماذا يسأل إذن؟!

(١) رواه ابن ماجة (٢٥٤)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٤)، وحسنه الألباني.

ومثل هذا لا يدرُس ويقرأ ابتغاء وجه الله، وإنما يفعل ذلك إرادة الظهور، والبروز، واللمعان في المجالس.

يريد به أن يذكر اسمه، وأن يشار إليه بالبنان، وأن يقال: حافظ، وطالب علم، ومناقش عنده حجة، ونحو ذلك.



الخاتمة

إذا أردنا أن لا نقع في الجدل والمراء المذمومين: فعلينا أن نتمسك بهذا الدين القويم؛ لأن من عقوبات الله لمن ترك دينه: أن ينشر فيهم المراء والجدال.

فعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدَى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ» ثم تلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية: ﴿مَا صَرِيحُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] ^(١).

(إلا أوتوا الجدل) يعني: انتقم الله منهم وعاقبهم بأن أعطاهم الجدل بدل العلم الذي أعرضوا عنه، وأعطاهم الخصومة بالباطل واللجج والمهارة بلا فائدة، أي: لما تركوا العلم النافع ظهر الجدل.

وهذه قاعدة: فأى قوم يتركون العلم النافع علم الكتاب والسنة؛ يعاقبون بانتشار الجدل والخصام فيهم.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.
وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.



(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣)، وحسنه الألباني.

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلوها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرف الجدال والمراء.
٢. ما الفرق بين الجدال والمراء؟
٣. للمراء والجدال أسباب، اذكر أبرزها.
٤. ما هي شروط الجدال المحمود؟
٥. ما هي أنواع الجدال؟ واذكر مثالا لكل نوع منها.
٦. ما المفسد والأضرار الناجمة عن الجدال والمراء؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. ما المقصود بالمراء في القرآن الكريم؟

٢. ما معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا اتَّخَفْتُمْ قُلُوبِكُمْ، فَإِذَا اختلفتم فقوموا عنه»؟

٣. ما معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»؟

٤. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فما معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؟.



مفسات القلوب



الكبر



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله،
وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الكبر والعجب من أدواء النفس الخطيرة، التي تمثل انحرافاً خُلِقياً، يمنح بالإنسان
عن سبيل الهدى والحق، إلى سبيل الردى والضلال؛ وذلك لأنه متى نفخ الكبر والعجب
بالنفس في أنف المستكبر المغرور، واستوليا على عقله وإرادته: ساقاه - بعنف شديد، وتمرد
لئيم - إلى بطر الحق، وردّه، وطمس معالمه، ثم إلى انتحال صور من الباطل، يعمل على
تزيينها وتحسينها بالأقوال المزخرفة التي لا حقيقة لها، ويتبع ذلك غمط الناس واحتقارهم،
صغاراً وكباراً - والعياذ بالله تعالى.

وستتعرّض في هذا الفصل لبيان معنى الكبر، والفرق بينه وبين العُجب، وخطورته،
ومظاهره، وأسبابه، وبعض آثاره، ونختم بالعلاج.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية.

نسأل الله تعالى العفو، والعافية، والمعافة الدائمة، في الدين، والدنيا، والآخرة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

تعريف الكبر

لغة:

قال ابن فارس: «الكِبْرُ: العظمة، وكذلك الكبرياء، يقال: ورثوا المجد كابرًا عن كابر. أي كبيراً عن كبير في الشرف والعز»^(١)، وذكر ابن منظور: «أن الكِبْر والكبرياء: العظمة والتجبر.... وقد تكَبَّر واستكَبَّر وتكابَّر، وقيل: تكَبَّرَ من الكِبْرِ، وتكابَّرَ من السِّنِّ، والتكَبَّرُ والاستِكْبَار: التَّعَظُّم»^(٢).

شرعاً:

عرفه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(٣).

فعرّف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكبر بشقين هامين:

الأول: «بطر الحق» يعني جحود الحق مع الاستهانة به، والاستعلاء عن قبوله.

إننا نجد كثيراً من الناس، إذا عرّض عليهم من دونهم في المكانة أو السن أمراً هو حق لا شك فيه، ولكنه جاء مخالفاً لرأيهم، أو لما كانوا قرروه أو عملوا به: جحدوه، وأنكروه، واستصغروا صاحبه، وأصروا على مخالفته، وربما كانت مصلحتهم الخاصة في جانب الحق، لا في جانب الباطل الذي أصروا عليه.

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/ ١٥٤).

(٢) لسان العرب (٥/ ١٢٥).

(٣) رواه مسلم (٩١).

هذا الصنف من الناس موجود بكثرة، خاصة في المجتمعات الصغيرة: في الأسرة، وفي المدرسة، وفي العمل، وبين زملاء.

إن المحذور الذي يخشاه هذا المتكبر إذا هو قَبِلَ الحقَّ الصادرَ من غيره: أن ينال المجدَ غيرَه، فيكبرَ عند الناس، وينازعَه المكانةَ التي يطلبها لنفسه؛ لأنه يخشى أن يكون تابعاً لغيره. ولو عقل هذا المستكبر وتبصر؛ لعلم أن مكانته ومنزلته هي في اتباع الحق، لا في التماهي في الباطل.

كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا يمنعنك قضاء، قضيته بالأمس، وراجعت فيه نفسك، فهُدِيت فيه لرشدك، أن تراجع الحق؛ فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماهي في الباطل»^(١).

وقال عبد الرحمن بن مهدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كنا في جنازة فيها عبيد الله بن الحسن وهو على القضاء، فُسِّلَ عن مسألة، فغلط فيها، فقلت: أصلحك الله، القول في هذه المسألة كذا وكذا، فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: إذن أرجع وأنا صاغر، إذن أرجع وأنا صاغر، لأن أكون ذنباً في الحق، أحبُّ إليَّ من أن أكون رأساً في الباطل»^(٢).

الثاني: (غمط الناس)، والغمط: هو الاحتقار والازدراء والاستصغار، فغمط الناس هو احتقارهم واستصغارهم والازدراء بهم، والترفع عن الثناء عليهم بفضائلهم، وعدم الاعتراف بحقوقهم، وصفاتهم الفاضلة.

ويصل طغيان هذا الغمط إلى أقصى مداه عندما يحاول هدم فضائل الناس، وطمس كمالهم، وتحقيرهم وتصغيرهم بالكذب والبهتان؛ بُغية احتفاظ المتكبر بالمكانة العالية لنفسه دون الآخرين.

فالمتكبر إذا لم يستطع أن يعتلي مكانة المجدد بكمالاته، فإنه يحاول أن يعتليها بتحطيم كمالات الآخرين، والحطّ من مكانتهم.

(١) رواه الدارقطني (٤/٢٠٦).

(٢) تاريخ بغداد (١٠/٣٠٨).

الفرق بين الكبر والعجب

قال أبو وهب المروزي رَحِمَهُ اللهُ: سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: «أن تزدرى الناس». فسألته عن العُجب؟ قال: «أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العُجب»^(١).



(١) سير أعلام النبلاء (٨/٤٠٧).

أسباب الكبر

يشعر المتكبر بالاستعلاء الذاتي على الأقران، وبالتميز على الآخرين، وبالرغبة الجامحة بعدم الخضوع لأحد.

ويمكن حصر أسباب الكبر فيما يلي:

١. الرغبة في عدم الخضوع لأحد:

تتنامي هذه الرغبة في نفس المتكبر، حتى يصل به الحال إلى التمرد على طاعة الله، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وهو على كل شيء قدير.

ومع هذه الرغبة يأتي شعور المستكبر باستغناؤه؛ فيتولد منه الطغيان، ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ

لِطَّغَىٰ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧].

قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: إن الإنسان يتجاوز حده، ويستكبر على ربه؛ لأنه رأى نفسه غنياً»^(١).

٢. الطموح الجامح إلى الامتياز على الآخرين:

المستكبر يجد أن من حقه على المجتمع أن يمنحه الامتياز والتفوق، وأن يعترف له به. فإن لم يعترف المجتمع له بذلك، سوّلت له نفسه أنه يستطيع أن ينال ما يطمح إليه عن طريق الاستكبار.

٣. الرغبة في إخفاء المستكبر ما يشعر به من نقص في ذاته أو عمله:

المستكبر حريص أن يكون في أعين الناس كبيراً، وألا يكتشفوا نقصه، ثم هو باستكباره

(١) معالم التنزيل (٨/٤٧٩) بتصرف.

يفضح نفسه، ويدل الناس على عوراته؛ إذ يوجه أنظار الناس إليه، باحثين عن حقيقة حاله، فيكتشفون أمره، ويستبينون نقصه، فيحتقرونه، ويستصغرونه.

ولقد كان باستطاعته أن يستر عيوب نفسه بالتواضع، ولين الجانب، والتحبب إلى الناس، والصمت عما يجهل، والاعتذار عما لا يُحسن، والبعد عن التحديات، وعن الادعاءات الباطلة.

٤. مبالغة الآخرين في التواضع:

قد يكون الباعث على الكبر: مبالغة الآخرين في التواضع، وهضم النفس، والعزوف عن التقدم لتحمل المسؤولية، أو تحمل الأمانة، فيرى المتكبر أن عزوف الناس عن ذلك إنما هو لإقرارهم بفضله عليهم، فلا يزال به الشيطان حتى يرى نفسه فوق الجميع، فيحتقروهم، فيقع في الكبر.

٥. اختلال القيم ومعايير التفاضل عند الناس:

من أسباب الكبر الباعثة عليه: اختلال معايير التفاضل عند الناس، فتراهم يقدمون الغني صاحب الجاه، ولو كان عاصيا فاسقا، ويؤخرون النقيّ النقيّ؛ لفقره وعدم جاهته، فيكون ذلك سببا في تقديم من لا يستحق التقديم، فيقع في احتقار الآخرين، والترفع عليهم.

وقد أوضح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك بمثال عملي مع أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، معلنا رفضه المطلق لهذا المعيار، عند تقديم الناس، أو تأخيرهم.

فعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: مرَّ رجل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «ما تقولون في هذا؟»، قالوا: حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشَفَّع، وإن قال أن يُسْتَمَعَ، قال: ثم سكت، فمرَّ رجل من فقراء المسلمين، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حريٌّ إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يُشَفَّع، وإن قال أن لا يُسْتَمَعَ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا»^(١).

(١) رواه البخاري (٥٠٩١).

٦ . مقارنة نعمته بنعمة الآخرين، ونسيان المنعم سبحانه وتعالى:

مِن أسباب الكبر: أن ينظر الإنسان إلى النعم التي أنعم الله بها عليه، ويقارن نفسه بالآخرين الذين منعمهم الله تلك النعم؛ لحِكْمِ يعلمها سبحانه وتعالى، فيرى أنه أهلٌ لتلك النعم، وأنها وصلت إليه لاستحقاقه لها، فينظر لنفسه نظرة المعظمِّ، ويحتقر الآخرين الذين يراهم ليسوا أهلاً لتلك النعم.



بماذا يحصل الكبر؟

النعم التي يتكبر بها أصحابها كثيرة، منها:

• المال:

قال الله تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، وقال: ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَانَيْنَهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنِ مَفَاتِحَهُ لِنُنْزِلُ بِالْعُسْبُكَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِينِ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧].

وقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

• العلم:

وما أسرع الكبر إلى بعض المتعلمين.

فلا يلبث أن يستشعر في نفسه كمال العلم؛ فيستعظم نفسه، ويحتقر الآخرين، ويستجملهم.

وسبب كبره بالعلم أمران:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يُسمى علماً وليس علماً في الحقيقة، فإن العلم الحقيقي هو ما يعرف به العبدُ ربَّه ونفسه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ثانيهما: أن يخوض في العلم وهو خبيث النفس، سيء الأخلاق، فهذا إذا حفظ شيئاً من العلم وجد ما يتكبر به؛ فازداد تكبراً وتيهاً.

كما قال المعري -العاري عن الفضائل - يمدح نفسه:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم يأتِ به الأوائلُ^(١)

ومن الكبر: ما يفعله بعض صغار طلبة العلم، حيث يجعل نفسه ندّاً للعلماء، فيقول: هم رجال، ونحن رجال!!

قال أيوب العطار رَحِمَهُ اللهُ: سمعت بشر بن الحارث يقول: (حدثنا حماد بن زيد) ثم قال: «أستغفر الله، إن لذكر الإسناد في القلب لخيلاء»^(٢).

• العمل والعبادة:

فبعض الناس يتكبر بعبادته، فيرى حقاً على الناس أن يقدموه، ويذكروه بالورع والعبادة، ويرى الناس هالكين، ويرى نفسه ناجياً.

عن أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»^(٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» رُوِيَ (أَهْلَكُهُمْ) على وجهين مشهورين: رفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر... ومعناها: أشدهم هلاكاً، وأما رواية الفتح، فمعناها: هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة، واتفق العلماء على أن هذا الظم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس، واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم، لأنه لا يعلم سرّ الله في خلقه، قالوا: فأما من قال ذلك تحزناً لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين: فلا بأس عليه، كما قالت أم الدرداء رَحِمَهُ اللهُ عَنْهَا: دخل عليّ أبو الدرداء وهو مغضب فقلت: ما أغضبك؟ فقال: «والله ما

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٤٥٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/٤٦١).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٣).

أعرف من أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً إلا أنهم يصلُّون جميعاً»^(١). هكذا فسره الإمام مالك، وتابعه الناس عليه»^(٢).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «وبعض المتزهدين عنده غفلة، يكاد يوطن نفسه على أنه ولي محبوب ومقبول، وربما احتقر غيره، ووطن أن محلته محفوظة به، تغرّه ركيعات ينتصب فيها، أو عبادة ينصب بها، وربما ظن أنه قطب الأرض، وأنه لا ينال مقامه بعده أحد»^(٣).

روى الخطابي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه (العزلة): أن عبد الله بن المبارك قدم خراسان، فقصد رجلاً مشهوراً بالزهد والورع، فلما دخل عليه لم يلتفت الرجل إليه، ولم يأبه به، فخرج من عنده عبد الله بن المبارك، فقال له بعض من عنده: أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هذا أمير المؤمنين في الحديث، هذا عبد الله بن المبارك! فبُهِتَ الرجل، وخرج إلى ابن المبارك مسرعاً يعتذر إليه، ويتنصل مما حدث قائلاً: يا أبا عبد الرحمن، اعذرني، وعظني!

قال ابن المبارك: «نعم، إذا خرجت من منزلك فلا يقع بصرك على أحد إلا رأيت أنه خير منك». وذلك أنه رآه معجباً بنفسه^(٤).

وأما السلف الصالح: فكان أحدهم يقول: «نظرت إلى أهل عرفات، فظننت أنهم غُفِرَ لهم، لولا أنني كنت فيهم»^(٥).

والمؤمن لا يزال يحتقر نفسه وعمله، قيل لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أَتَيْتَ الْمَدِينَةَ، فَإِنَّ قَضَى اللَّهِ مَوْتاً دُفِنْتَ فِي مَوْضِعِ الْقَبْرِ الرَّابِعِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. قَالَ: «وَاللَّهِ لَأَنْ يُعَذِّبَنِي اللَّهُ بِكُلِّ عَذَابٍ إِلَّا النَّارَ - فَإِنِّي لَا صَبْرَ لِي عَلَيْهِ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِي أَنِّي أُرَانِي لِذَلِكَ أَهلاً»^(٦).

(١) رواه البخاري (٦٢٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٧٥/١٦).

(٣) صيد الخاطر (ص ١٣٥).

(٤) العزلة (ص ٢٢٠).

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيثار (٨٢٥٢) عن بكر بن عبد الله المزني.

(٦) الطبقات الكبرى (٣١٦/٥).

• النَّسَب:

بعض مَنْ له نسب شريف يحتقر مَنْ دونه في النسب، وقد يتكبر ويأنف من مخالطة الناس ومجالستهم، وقد يجري هذا الكبر والتفاخر على لسانه، فيقول لمن يخاطبه: مَنْ أنت؟ ومَنْ أبوك؟ ومَع مثلي تتكلم!!؟

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيدنا، وأعتق سيدنا»^(١) يعني بلاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عن المعروف بن سويد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت على أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برداً وعلى غلامه برداً، فقلت: لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة، وأعطيته ثوباً آخر. فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لي: «أَسَابَيْتُ فَلَاناً؟» قلت: نعم، قال: «أَفَنِلْتِ مِنْ أُمِّهِ؟» قلت: نعم، قال: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»، قلت: على حين ساعتني هذه من كبر السن؟! قال: «نَعَمْ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيَطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبَسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا يُكَلِّفْهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ: فَلْيَعْنُهُ عَلَيْهِ»^(٢).

قال ابن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قوله: «هُمْ إِخْوَانُكُمْ» أي العبيد، أو الخدم، حتى يدخل من ليس في الرق منهم... ويؤخذ منه المبالغة في ذم السب واللعن؛ لما فيه من احتقار المسلم، وقد جاء الشرع بالتسوية بين المسلمين في معظم الأحكام، وأن التفاضل الحقيقي بينهم إنما هو بالتقوى، فلا يفيد الشريف النسب نسبة إذا لم يكن من أهل التقوى، ويتنفع الوضع النسب بالتقوى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]»^(٣).

وقال في موضع آخر: «قوله: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ» أي: خصلة من خصال الجاهلية، ويظهر لي أن ذلك كان من أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل أن يعرف تحريمه، فكانت تلك الخصلة من خصال الجاهلية باقية عنده، فلهذا قال: «قلت: على ساعتني هذه من كبر

(١) رواه البخاري (٣٧٥٤).

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٣) فتح الباري (١٠/٤٦٨).

السن؟ قال: نَعَمْ» كأنه تعجب من خفاء ذلك عليه مع كبر سنه، فيبين له كَوْن هذه الخصلة مذمومة شَرعاً^(١).



(١) فتح الباري (١/٨٧).

أمثلة من المتكبرين الذين صرفهم الكبر عن اتباع الحق

• إبليس:

الكبر هو الباعث لإبليس على الكفر، والتمرد على أمر ربه:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ، مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَچِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَعْرَبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُحْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ [ص: ٧١-٨٧].

• فرعون وجنوده:

وكذلك فرعون وجنوده: كان الكبر هو الباعث على كفرهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ، مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ، فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ، فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَاليَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لعنةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ [القصص: ٣٨-٤٢].

• ثمود قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ اَتَعْلَمُونَ اَنْتَ صَاحِبُ مَرْسَلٍ مِّن رَّبِّهِ ؕ قَالُوا اِنَّا بِمَا اُرْسِلَ بِهِءِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا اِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءِ كَفِرُونَ ﴿٧٦﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

• عاد قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال الله تعالى: ﴿ فَاَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْاَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ اَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؕ اُولَئِكَ رَوَّا اَنْتَ اللّٰهُ الَّذِي خَلَقْتَهُمْ هُوَ اَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِاٰيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيْ اَيَّامٍ مَّجْسَاتٍ لِّيَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْاٰخِرَةِ اَخْزٰى ؕ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

• قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيْنَتِنَا اَوْ لِنَعُوْدَنَّ فِيْ مِلَّتِنَا قَالَ اُولُوْا كُنَّا كَرِهِيْنَ ﴿٨٨﴾ [الأعراف: ٨٨].

• قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اِنِّيْ دَعَوْتُ قَوْمِيْ لِيْلَا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاۗءِيْ اِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَاِنِّيْ كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغَفَرُوْا لِحُرْمَتِ اَصْحٰبِهِمْ فِيْ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَاَصْرُوْا وَاَسْتَكْبَرُوْا اَسْتَكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ اِنِّيْ دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ اِنِّيْ اَعْلَنْتُ لَهُمْ وَاَسْرَرْتُ لَهُمْ اِسْرَارًا ﴿٩﴾ [نوح: ٥-٩].

• بنو إسرائيل:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسٰى الْكِتٰبَ وَفَقَّيْنَا مِنْۢ بَعْدِهِءِ بِالرُّسُلِ وَاَتَيْنَا عِيسٰى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِيْنَ وَاَيَّدْنَاهُ بِرُوْحِ الْقُدُسِ ؕ اَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُوْلٌ بِمَا لَا تَهْوٰى اَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَتَّقُلُوْنَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوْا لَوْ بِنَا عَلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ اللّٰهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيْلًا مَّا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٨٨﴾ [البقرة: ٨٧-٨٨].

• مشركو العرب:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا اَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِيْنَ اِلَّا اِنَّهُمْ لَيَأْكُلُوْنَ الطَّعَامَ

وَيَمْسُوكَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ^ط وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا
﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿﴾ [الفرقان: ٢٠-٢١].

آثار الكبر على السلوك

للکبر آثار سيئة على سلوك المستكبر، فمن هذه الآثار:

الاستكبار عن الإيمان بالله، وعبادته، وطاعته:

قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاقِيَ الْجَمَلَ فِي سَرَ الْخَيْطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١].

تصغير الخلد للناس، ومشية الخيلاء:

من وصايا لقمان الحكيم لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: ١٨]، وتصغير الخلد للناس: هو إمالة الوجه عنهم على سبيل الاستكبار.

والمشي في الأرض مرحاً: هو المشي بطراً وكبراً.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي مستكبر على الناس، متعظم عليهم.

﴿فَخُورٍ﴾ بنفسه، أو قوته، أو ماله، أو ذكائه، ونهى الله تعالى عن المشي في الأرض تكبراً، فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وإذا كان من سلوك المتكبرين المشي في الأرض مرحاً، فمن صفات عباد الله: المشي في الأرض تواضعاً، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وكان السلف يتحفظون في مشيتهم؛ فعن خالد بن معدان عن عمرو بن الأسود العنسي، أنه كان إذا خرج من المسجد قبض بيمينه على شاله، فسئل عن ذلك، فقال: «مخافة أن تنافق يدي». قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «يمسكها؛ خوفاً من أن يخطُر بيده في مشيته؛ فإن ذلك من الخيلاء»^(١). وكان علي بن الحسين رَحِمَهُ اللهُ إذا مشى لا تجاوز يده فخذيه، ولا يخطُر بها^(٢).

إطالة الثوب، وجره على الأرض:

عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا ينظرُ الله إلى من جرَّ ثوبه خيلاء»^(٣). قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «قال العلماء: الخيلاء، والمخيلة، والبطر، والكبر، والزهو، والتبخر: كلها بمعنى واحد، وهو حرام. ويقال: خال الرجل واختال اختيالا: إذا تكبر»^(٤).

عن جابر بن سُلَيْمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، اعهد لي، قال: «لا تسبَّ أحدًا»، قال: فما سببت بعده حرًّا، ولا عبداً، ولا بعيراً، ولا شاة، قال: «ولا تحقرن شيئاً من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسطٌ إليه وجهك، إن ذلك من المعروف، وارفَع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإيّاك وإسبال الإزار؛ فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحبُّ المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلمُ فيك، فلا تُعيرهُ بما تعلمُ فيه؛ فإنما وبأ ذلك عليه»^(٥).

وقد استُحدثت الآن مظاهرٌ كثيرة، دالة على الخيلاء في الثياب غير الإسبال، كأشكال

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٨٠)، تاريخ دمشق (٤٥/ ٤١٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٩٢).

(٣) رواه البخاري (٥٧٨٣)، ومسلم (٢٠٨٥).

(٤) شرح النووي على مسلم (٦٠/ ١٤).

(٥) رواه أبو داود (٤٠٨٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٠٩).

الثياب، وأصنافها، وما يُبدل في الحصول عليها من أموال كثيرة؛ إسرافاً وتبذيراً، بقصد التفاخر والتعظيم والخيلاء.

يجب أن يسعى الناس إليه، ويقوموا له:

عن أبي مجلز رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: خرج معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر، وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس؛ فإني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرَّجَالُ قِيَامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

التقعر في الحديث:

عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الثَّرَاوُونَ، وَالتُّشَدِّقُونَ، وَالتُّتْفِيهُقُونَ» قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفهبون؟ قال: «التُّكْبَرُونَ»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والثرثار: هو الكثير الكلام بتكليف، والمتشدد: المتطاول على الناس بكلامه، الذي يتكلم بملء فيه؛ تفاصلاً، وتفخماً، وتعظيماً لكلامه، والمتفهب: أصله من الفهب، وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه؛ تكثراً، وارتفاعاً، وإظهاراً لفضله على غيره»^(٣).

الاستهزاء، والسخرية، والهمز، واللمز، والتنايز بالألقاب:

المتكبر يرى نفسه أعلى من الناس؛ فيحتقرهم، ويسخر منهم، ويستهزئ بهم.

الغيبة:

المتكبر يريد أن يُظهر أنه أعلى من غيره، فمن وسائله لتحقيق ذلك: الغيبة، وفضح عيوب الآخرين، وكشف نقائصهم.

(١) رواه أبو داود (٥٢٢٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٣٥٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨) وحسنه.

(٣) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٤٤٥/٢)، مدارج السالكين (٣٠٧/٢).

الترفع عن مجالسة الفقراء، والمساكين، والضعفة من الناس:

المتكبر يأنف من الجلوس مع من يراهم أقل منه مالاً، أو نسباً، أو طبقةً اجتماعية.

وكان هذا السلوك وراء صدّ بعض المشركين عن الدخول في الإسلام؛ فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اطرد هؤلاء؛ لا يجترئون علينا، فوقع في نفس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (١).

وعن خباب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، قَالَ: «جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقروهم، فأتوه، فخلّوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد! فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: «نعم»: قالوا: فاكتب لنا عليك كتابا، قال: فدعا بصحيفة، ودعا عليا ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهْتُولَاءُ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] ثم قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال: فدنوننا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجلس معنا،

فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

قال خباب: «فكنا نقعد مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه، حتى يقوم»^(١).

ملازمة العيوب والنقائص:

المتكبر أبعد الناس عن إصلاح نفسه، أو معالجة عيوبه؛ لأنه يرى نفسه قد بلغ الكمال، فلا يفتش في عيوب نفسه، ولا يقبل نصيحة ناصح؛ فيبقى غارقاً في عيوبه ونقائصه، ملازماً لها، إلى أن تنقضي الحياة.

ويكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

عدم قبول النصيحة:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

عدم تعلّم العلم:

قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «لا يتعلّم العلم مُستحي، ولا مستكبر»^(٢).
فالمتكبر يحمّله الكبر على الترفع والاستعلاء، فلا يكسب من غيره علماً، ولا خبرة، ولا مهارة، ولا تجربة، فيبقى طوال حياته جاهلاً، قصير النظر.

لا يبدأ من لقيه بالسلام:

وإن ردّ عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه، ولا ينطلق للناس وجّهه، ولا يسعهم

(١) رواه ابن ماجه (٤١٢٧)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٢) رواه البخاري تعليقا (٣٨/١): «باب الحياء في العلم»، وأبونعيم في الخلية (٢٨٧/٣)، وصححه الحافظ في الفتح (٢٢٩/١).

خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقا، ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، ولا يزداد من الله إلا بعدا، ومن الناس إلا صغارا، وبُغضا^(١).

لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه، ويجب التصدّر في المجالس، والشهرة بين الناس، وأما المتواضعون: فإنهم يهربون من ذلك.

فعن عامر بن سعد قال: «كان سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في إبله، فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سعد قال: أعود بالله من شر هذا الراكب، فنزل، فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك، وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟! فضرب سعد في صدره، فقال: اسكت، سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ»^(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «المراد بِالْغَنَى: غَنَى النَّفْسِ، هَذَا هُوَ الْغَنَى الْمَحْبُوبُ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَكِنَّ الْغَنَى غِنَى النَّفْسِ»... وَأَمَّا (الْخَفِيُّ): فَمَعْنَاهُ: الْخَامِلُ، الْمَنْقَطِعُ إِلَى الْعِبَادَةِ، وَالِاشْتِغَالُ بِأُمُورِ نَفْسِهِ»^(٣).



(١) الروح (ص ٢٣٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٥).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٨/١٠٠).

عقوبة المتكبر

عقوبة المتكبر في الدنيا:

١. يعاقب المتكبر بنقيض قصده؛ فيحتقره الناس، ويستصغرونه:

وهذا من الجزاء الرباني، والسنن الربانية الجارية في هذا الكون، فمن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر على الحق وضعه الله.

٢. الحرمان من النظر، والاعتبار، والاستفادة من آيات الله:

قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ أي عن الاعتبار في الآيات الأفقية، والنفسية، والفهم لآيات الكتاب. ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: يتكبرون على عباد الله، وعلى الحق، وعلى من جاء به، فَمَنْ كان بهذه الصفة حرمه الله خيراً كثيراً، وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما يتفجع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح»^(١).

٣. المتكبر توعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعذاب في الدنيا:

عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ، حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ؛ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ»^(٢).

(١) تفسير السعدي (ص ٣٠٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٠)، وقال: «حسن غريب»، وضعفه الألباني.

« لا يزال الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ » أي: يُعْلِي نَفْسَهُ، ويرفعها، ويبعدها عن الناس في المرتبة، ويعتقدها عظيمة القدر، « حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ » أي في ديوان الظالمين والمتكبرين، كفرعون، وهامان، وقارون، أو معهم في أسفل السافلين^(١).

إن هذا الحديث يصوّر حالة تدرج المستكبر في سلم الاستكبار والانتفاخ، حتى يكون جباراً من الجبارين، وأنه في أول حاله قد لا يكون كذلك، فليخش العاقل عاقبة الكبر، مهما كان في صغائر الأمور، فقد يتطور المرض اليسير، حتى يتدهور حال المريض، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

٤. الكبر سبب لزوال النعم، وحلول النقم:

عن سلمة بن الأكوع: رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ» قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ^(٢).
قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذا الحديث: جواز الدعاء على من خالف الحكم الشرعي بلا عذر»^(٣).

فهذا الرجل منعه الكبر من طاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وامتنال أمره؛ فكان عقابه العاجل: أن دعا عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعجز، فاستجاب الله دعاء نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصيب الرجل بالعجز في الحال.

أما يخشى المتكبرون الذين يمنعهم الكبر من اتباع الحق أن يسلبهم الله تعالى نعمه التي عصوه بها، وتكبروا بها؟!!

٥. الكبر من أسباب الخسف، وعذاب القبر:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجَّلٌ جَمْتُهُ، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤).

(١) تحفة الأحوذى (١١٧/٦).

(٢) رواه مسلم (٢٠٢١).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٩٢/١٣).

(٤) رواه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

قال الفيروز أبادي رَحِمَهُ اللهُ: «خسف المكان: ذهب في الأرض... وخسف الله بفلان الأرض: غيَّبه فيها»^(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «(يَمِشِي فِي حُلَّةٍ) إِزَارٌ وَرِدَاءٌ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخَّرُ فِي بُرْدِيهِ»، قَوْلُهُ: «مُرَجَّلٌ جُمَّتُهُ» هِيَ مَجْتَمِعُ الشَّعْرِ إِذَا تَدَلَّى مِنَ الرَّأْسِ إِلَى الْمُنْكَبِينَ، وَإِلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ، وَتَرْجِيلُ الشَّعْرِ: تَسْرِيحُهُ وَدَهْنُهُ، قَوْلُهُ: «إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» التَّجَلُّجُ: التَّحْرُكُ، وَقِيلَ: الْجَلْجَلَةُ: الْحَرَكَةُ مَعَ صَوْتٍ، وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ: التَّجَلُّجُ: أَنْ يَسُوخَ فِي الْأَرْضِ مَعَ اضْطِرَابٍ شَدِيدٍ، وَيَنْدَفِعُ مِنْ شِقِّ إِلَى شِقِّ، فَالْمَعْنَى: يَتَجَلَّجَلُ فِي الْأَرْضِ، أَي: يَنْزِلُ فِيهَا مُضْطَرَبًا، مُتَدَافِعًا، وَمَقْتَضَى هَذَا الْحَدِيثُ: أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَأْكُلُ جِسْمَ هَذَا الرَّجُلِ، فَيُمْكِنُ أَنْ يُلْغَزَ بِهِ، فَيُقَالُ: كَافِرٌ لَا يَبْلِي جِسْمَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ»^(٢).

عقوبته في الآخرة:

١. المتكبر هالك لا محالة مع الهالكين:

عن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلُ عَنْهُمْ: رَجُلٌ يُنَازِعُ اللَّهَ فِي كِبْرِيائِهِ، فَإِنَّ رِدَاءَهُ الْكِبْرِيَاءُ، وَإِزَارَهُ الْعِزَّةُ، وَرَجُلٌ يَشْكُ فِي أَمْرِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ»^(٣).

٢. أبغض الناس وأبعدهم مجلساً من رسول الله يوم القيامة: المتكبرون:

عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقاً، وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الشَّرَّارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفِيهِقُونَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الشَّرَّارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفِيهِقُونَ؟ قَالَ: «الْمُتَكَبِّرُونَ»^(٤).

(١) القاموس المحيط (ص ١٠٣٩).

(٢) فتح الباري (١٠/٢٦١).

(٣) رواه ابن حبان (٤٥٥٩)، والطبراني (٧٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥٩).

(٤) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

٣. المتكبر يلتقى الله تعالى وهو عليه غضبان:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ تَعَطَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوْ اخْتَالَ فِي مَشِيَّتِهِ؛ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ»^(١).

٤. يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي غَايَةِ الذَّلِّ وَالْمَهَانَةِ:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُوَلَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةَ الْحَبَالِ»^(٢).
قوله: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ»: الذر: النمل الأحمر الصغير، فيحشرون أمثال الذر في الصغر، والحقارة.

(في صُورِ الرِّجَالِ) يعني صورهم صور الإنسان، وأجسامهم كأجسام الذر في الصغر. (يَغْشَاهُمُ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) والمعنى: أنهم يكونون في غاية من المذلة والنقيصة، يطؤونهم أهل المحشر بأرجلهم؛ من هوانهم على الله.

(يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُوَلَسَ، تَعْلُوهُمْ) أي تحيط بهم وتغشاهم (نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ) وهو ما يسيل منهم من الصديد، والقيح، والدم^(٣).

ولأن المتكبر يأخذ حجما في الدنيا أكبر من حجمه، فإن الله تعالى يعاقبه يوم القيامة بإذلاله أمام الناس، ويُحْشَرُ كَأَمْثَالِ الذَّرِّ.

٥. الكبر من أسباب المنع من دخول الجنة:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ

(١) رواه أحمد (٥٩٥٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١١٦): «رجاله رجال الصحيح»، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩١٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٢) وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني.

(٣) تحفة الأحوذي (٧/١٦٢) بتصرف.

مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»، قال رجل: إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١).

٦. المتكبرون متوعدون بالنار:

عن حارثة بن وهب الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ، كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ، كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطِظٍ مُسْتَكْبِرٍ»^(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «(الْعُتْلُ): الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الجافي الفظ الغليظ»^(٣).

(جَوَاطِظٍ): هو الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته. وقيل غير ذلك^(٤).
(عُتْلٌ): هو الشديد الجافي: والغليظ من الناس^(٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِحْتَجَّتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: يَدْخُلْنِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضَعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ - وَرَبَّمَا قَالَ: أُصِيبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ - وَقَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا»^(٦).

قوله: «اِحْتَجَّتِ» أي اختصمت، كما في رواية للبخاري^(٧).

قوله: «يَدْخُلْنِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ» قيل: هما بمعنى، وقيل: المتكبر المتعظم بما ليس فيه، والمتكبر المنوع الذي لا يوصل إليه، وقيل: الذي لا يكثر بأمر.

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) رواه البخاري (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/١٨٧).

(٤) تحفة الأحوذى (٧/٢٧٩).

(٥) حاشية السندي على ابن ماجه (٢/٥٢٧).

(٦) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، واللفظ له.

(٧) برقم (٧٤٤٩).

قوله: «ضَعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطَهُمْ» أي: المحتقرون بينهم، الساقطون من أعينهم، هذا بالنسبة إلى ما عند الأكثر من الناس، وبالنسبة إلى ما عند الله: هم عظماء رفعا الدرجات، لكنهم بالنسبة إلى ما عند أنفسهم - لعظمة الله عندهم وخضوعهم له - في غاية التواضع لله، والذلة في عبادته، فوصفهم بالضعف والسقط بهذا المعنى صحيح، أو المراد بالحصص في قول الجنة (إِلَّا ضَعَفَاءُ النَّاسِ) «الأغلب»^(١).

٧. المتكبرون متوعدون بدخول جهنم صاغرين:

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّامًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١ - ٧٢].

وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللهُ عَزَّجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(٢).

فالكبرياء والعظمة لا يليقان إلا بالله عَزَّجَلَّ، فإذا تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فيما لا يليق إلا به؛ فاستحق أن يقذفه الله تعالى في النار.



(١) فتح الباري (٨/ ٥٩٧).

(٢) رواه أبو داود (٤٠٩٠)، وصححه الألباني.

علاج الكبر

اعلم أن الكبر من المهلكات، وإزالته فرض عين، ولا يزول الكبر بمجرد التمني، بل بالمعالجة، فمن علاج الكبر:

استئصال أصل الكبر من القلب:

بأن يعرف العبد نفسه، ويعرف ربه تعالى، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، عَلِمَ أنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف ربه حق المعرفة، علم أن الكبرياء والعظمة لا تليق إلا بالله. فمعرفة بنفسه: أن يتفكر في بداية خلقه، ونهايته، ووسطه.

أما بداية خلقه: فإن الله خلقه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظماً، ثم كسا العظام لحماً.

فهذه بداية خلقه، فلم يُخلق في ابتدائه خلقاً كاملاً، بل بدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبضلاله قبل هداه، وبفقره قبل غناه، فمن أين له البطر، والكبرياء، والفخر، والخيلاء؟!!!

ثم إذا خرج إلى هذه الحياة الدنيا سلط الله عليه الأمراض والآفات، تنال منه، شاء أم أبى؛ فيجوع كرهاً، ويعطش كرهاً، ويمرض كرهاً، ويموت كرهاً، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء فيذكره، فهو عبد مملوك، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا خيراً ولا شراً.

فأي شيء أذل منه، لو عرف نفسه؟!!

وأما آخر حاله: فهو الموت، فيسلب روحه، وسمعته، وبصره، وعلمه، وقدرته، وحسه، وإدراكه، وحركته، فيعود جماداً كما كان أول مرة، ثم يوضع في التراب، فيصير جيفة منتنة قدرة.

وليته بقي كذلك، بل يحيه بعد طول البلى، ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره، إلى أهوال القيامة، وينشر له كتاب أعماله، ويقال له: ﴿ أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]. ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُرِيلْنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

قال الأحنف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «عجبت لمن يجري من مجرى البول مرتين، كيف يتكبر؟!»^(١).

رأى مطرف بن الشخير رَحِمَهُ اللهُ يَزِيدُ بن المهلب يسحب حلته، فقال له: «إن هذه مشية ييغضها الله»، قال: أو ما تعرفني؟، قال: «بلى، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قدرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة»^(٢).

وقد نظم هذا المعنى أبو محمد عبد الله بن محمد البسامي الخوارزمي فقال:

عجبتُ من مُعجَبٍ بصورته	وكان من قِبَلِ نطفةٍ مَذْرَه ^(٣)
وفي غدٍ بعد حسنِ صورته	يصيرُ في الأرضِ جيفةً قدَره
وهو على عُجبِهِ ونُخوتِهِ	ما بين ثوبيهِ يحملُ العذرة ^(٤)

وقال آخر:

يا مُظهِرَ الكِبَرِ إعجاباً بصورته	انظر خلاءك إن التَّنُّ تثرِبُ
لو فكر الناسُ فيما في بطونهم	ما استشعر الكِبَرُ شبانٌ ولا شيبُ
يا ابنَ الترابِ ومأكولِ الترابِ غداً	أقصر؛ فإنك مأكولٌ ومشروبٌ ^(٥)

النظر والتأمل في الأسباب التي تكبر بها، وإدراكه أنه لا يليق به التكبر بها:

من يعتريه الكبر من جهة النسب؛ فليصلح قلبه بمعرفة أن هذا جهل، من حيث إنه تكبر بكمال غيره.

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٥٠٥)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٩٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٥).

(٣) مذرة أي قدرة، القاموس المحيط (ص ٦٠٩).

(٤) وفيات الأعيان (٦/ ٢٨٤).

(٥) عيون الأخبار (ص ١١٦).

وكيف يليق بعاقل أن يتكبر بكمال غيره؟!

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: انتسب رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أم لك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان - حتى عدت تسعة - فمن أنت لا أم لك؟ قال: أنا فلان بن فلان ابن الإسلام، قال: فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: أن هذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتسب أو المنتسب إلى تسعة في النار: فأنت عاشرهم، وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة: فأنت ثالثهما في الجنة»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان، التي تدفع بأنفها التثر»^(٢).

(عبية الجاهلية) أي: فخرها وتكبرها ونخوتها.

(مؤمن تقي وفاجر شقي): قال الخطابي: «معناه: أن الناس رجلان: مؤمن تقي، فهو الخير الفاضل، وإن لم يكن حسيباً في قومه، وفاجر شقي، فهو الدني، وإن كان في أهله شريفاً رفيعاً».

وقيل: معناه: أن المفتخر المتكبر: إما مؤمن تقي، فإذا لا ينبغي له أن يتكبر على أحد، أو فاجر شقي، فهو ذليل عند الله، والذليل لا يستحق التكبر، فالتكبر منفي بكل حال.

(أنتم بنو آدم، وآدم من تراب): أي فلا يليق بمن أصله التراب: النخوة والكبر.

(ليدعن): بلام مفتوحة في جواب قسم مقدر، أي: والله ليركن.

(إنما هم): أي أقوام (أو ليكونن): أي: ليصيرن (أهون): أي أذل (على الله): أي

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٢٠٦٧٤)، والبيهقي في الشعب (٤٧٧٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٧٠).

(٢) رواه أبو داود (٥١١٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٧).

عنده (من الجعلان): دويبة سوداء، تدير الخراء بأنفها (التي تدفع بأنفها التتن): أي العذرة^(١).

عن أبي ریحانة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ انْتَسَبَ إِلَى تِسْعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ، يُرِيدُ بِهِمْ عِزًّا وَكِرَامًا: فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ»^(٢).

ومن تكبر بسبب العلم؛ فليعلم أن حجة الله على أهل العلم أكد، وأن من عصى الله على علم فجنابته أعظم.

وليعلم أن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى، فإذا تكبر صار ممقوتاً عند الله، بغضاً، فهذا مما يزيل التكبر، ويبعث على التواضع.

وليعلم أن التكبر بالعمل والعبادة فتنة عظيمة على العباد.

قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاحِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلَّنِي وَرَبِّي، أَبْعَثْ عَلَيَّ رَقِيبًا؟! فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ - أَوْ: لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ -. فَفَبَضَّ أَرْوَاحُهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟ أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ».

قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»^(٣).

وقد وصف الله تعالى السابقين إلى الخيرات بأنهم يعملون الطاعات، وهم على وجل وخوف أن لا يقبل الله منهم، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْغَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه

(١) عون المعبود (١٤/١٦).

(٢) رواه أحمد (١٦٧٦١)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٤٣١).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٠١)، وصححه الألباني.

الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءًا تَوْأَمًا لِقُلُوبِهِمْ وَجِلَةً﴾ قالت: أهم الذين يشربون الخمر، ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»^(١).

الدعاء والاستعانة بالله تعالى:

عن عمرو بن مرة عن عاصم العنزي، عن ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الصلاة قال: «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً - ثلاثاً - سبحان الله بكرة وأصيلاً - ثلاثاً - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: من نفخه وهمزه ونفثه» قال عمرو: نفخه: الكبر، وهمزه: الموتة، ونفثه: الشعر^(٢).

التواضع:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنتطق به حيث شاءت»^(٣).

قال ابن حجر رحمه الله: «فتنتطق به حيث شاءت» في رواية أحمد: (فتنتطق به في حاجتها)، وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع؛ لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء، أي أمة كانت، وبقوله (حيث شاءت) أي من الأمكنة. والأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف، حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة، والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه، وبراءته من جميع أنواع الكبر صلى الله عليه وسلم^(٤).

عن الأسود رحمه الله قال: سألت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»^(٥).

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه أبو داود (٧٦٤)، وابن حبان (١٧٨٠)، واللفظ له، وصححه الألباني في تحريج الكلم الطيب (٨٠).

(٣) رواه البخاري (٦٠٧٢).

(٤) فتح الباري (١٠/٤٩٠).

(٥) رواه البخاري (٦٧٦).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «(في مَهْمَةِ أهله) وقد فسر لها في الحديث بالخدمة، والمراد بالأهل: نفسه، أو ما هو أعم من ذلك. وقد وقع مفسرا في الشائل للترمذي من طريق عمرة عن عائشة بلفظ: «ما كان إلا بشرا من البشر: يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه» ولأحمد وابن حبان من رواية عروة عنها: «يخيط ثوبه، ويخصف نعله». وفيه الترغيب في التواضع، وترك التكبر، وخدمة الرجل أهله»^(١).

عن جبير بن مطعم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: تقولون فيّ التيه، وقد ركبت الحمار، ولبست الشملة، وقد حلبت الشاة، وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ فَعَلَ هَذَا فَلَيْسَ فِيهِ مِنَ الْكِبْرِ شَيْءٌ»^(٢).

(فيّ التيه): الكبر، أي: في نفسي الكبر، (وقد ركبت الحمار، ولبست الشملة) هو كساء يُتَغَطَّى به، ويتلف فيه، (من فعل هذا) أي المذكور من ركوب الحمار، ولبس الشملة، وحلب الشاة، (فليس فيه من الكبر شيء) فإن هذه الأفعال لا يأنف منها إلا المتكبرون^(٣).

عن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه مر في السوق، وعليه حزمة من حطب، فقيل له: ما يحملك على هذا، وقد أغناك الله عن هذا؟ فقال: أردت أن أدفع الكبر عن نفسي، سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه خردلة من كبر»^(٤).



(١) فتح الباري (٢/١٦٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠١) وقال: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) تحفة الأحوذى (٦/١١٨).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٣٦٣)، وحسنه الهيتمي في مجمع الزوائد (١/١١٧)، وحسنه الألباني في صحيح

الترغيب (٢٩١٠).

الخاتمة

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أصول الخطايا كلها ثلاثة: الكبر: وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره، والحرص: وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد: وهو الذي جَرَّأ أحد ابني آدم علي أخيه. فمن وُقِيَ شَرَّ هذه الثلاثة فقد وُقِيَ الشر. فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد»^(١).

نسأل الله أن يجعلنا من الذين يتواضعون له، ولخلقه، ويعافينا من الكبر، وأهله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.



(١) الفوائد (ص ٥٨).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرّف الكبر في اللغة.
٢. عرّف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكبر تعريفاً جامعاً مانعاً، فما هو تعريفه؟
٣. للكبر أسباب متعددة، فما هي أسبابه؟
٤. بِمَ يحصل الكبر؟
٥. ما هي أصول الخطايا؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. ما الفرق بين الكبر والعجب؟
٢. متى يكون العلم سبباً للكبر؟
٣. بماذا يعاقب المتكبر في الدنيا؟
٤. بماذا يعاقب المتكبر في الآخرة؟
٥. كيف نعالج المتكبر؟

مفسدات القلوب

لَمَا كَانَ فِي صَلَاحِ الْقَلْبِ صَلَاحُ الْبَدَنِ كُلِّهِ، وَفِي فِسَادِهِ فِسَادُ الْبَدَنِ كُلِّهِ، لَازِمَ الشَّيْطَانُ قَلْبَ ابْنِ آدَمَ، فَشَغَلَهُ بِالْدُنْيَا وَمِفَاتِنَهَا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَخَشِيَّتِهِ وَمِرَاقِبَتِهِ، فَأَلْهَاهُ بِالتَّكَاثُرِ، وَغَرَّهُ بِالْأَمَانِيِّ الْكُوَاذِبِ، وَأَغْفَلَهُ بِالضَّنَنِ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، وَتَدَارَكَهُ بِفَضْلِهِ، فَأَنْجَاهُ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ، وَبَصَّرَهُ بِفُخُوحِهِ وَمَصَالِيهِ.

وَفِي هَذَا الْكِتَابِ نَتَنَاوَلُ بَعْضًا مِنْ هَذِهِ الْمَكَاذِبِ الَّتِي يَكِيدُ بِهَا الشَّيْطَانُ ابْنَ آدَمَ؛ لِيَصُدَّهُ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَخَشِيَّتِهِ، وَيُفْسِدَ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، وَيَشْغَلَهُ عَنِ عِبَادَةِ رَبِّهِ، كَاتِبَاعِ الْهَوَى، وَالشَّهْوَةِ، وَالْغَفْلَةِ، وَالْكِبْرِ، وَالْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ، وَحُبِّ الدُّنْيَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآفَاتِ؛ لِنَتَعَرَّفَ عَلَى أَسْبَابِهَا، وَمُفَاسِدِهَا، وَطَرِيقِ الْوَقَايَةِ مِنْهَا، وَأَحْوَالِ أَصْحَابِهَا، مِمَّنْ أَغْوَاهُمُ الشَّيْطَانُ؛ لِنَلَّا نَتَشَبَّهُ بِهِمْ؛ فَنَكُونَ مِنْهُمْ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَا جَعَلَ اللَّهُ لِلْقَلْبِ مَرَضًا إِلَّا جَعَلَ لَهُ شِفَاءً بَضْدَهُ، فَإِنْ عَلِمَهُ صَاحِبُ الدَّاءِ وَاسْتَعْمَلَهُ وَصَادَفَ دَاءَ قَلْبِهِ: أَبْرَأَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ. وَمَا مِنْ مَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ سَبِيلُ الدَّلَالَةِ عَلَى دَوَائِهِ وَسَبَبِهِ، وَالْحَمِيَّةِ مِنْهُ، لِمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ فَهَمًّا فِي كِتَابِهِ.

وَالْعَاقِلُ يَتَعَرَّفُ عَلَى الْخَيْرِ لِأَيَّتِهِ، وَيَتَعَرَّفُ عَلَى الشَّرِّ لِئِتِّتِيهِ، وَمَنْ لَازِمَ الْخَيْرِ وَعَمِلَ بِهِ، وَعَرَفَ الشَّرَّ وَنَأَى عَنْهُ: فَقَدْ صَلَحَ قَلْبُهُ، وَتَمَّ فَلَاحُهُ.

ISBN: 978-603-8047-87-3



9 786038 047873

المملكة العربية السعودية
الخبر - هـ: ٨٦٥٥٣٥٥
جدة - هـ: ٦٩٢٩٢٤٢
ص.ب. ١٢٦٧١ جدة ٢١٣٥٢



خصم خاص للتوزيع الخيري: ٠٥٠٤٤٤٦٤٣٢